مكتبة الأسرة 1999

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الخاصة

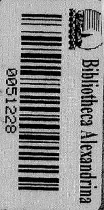


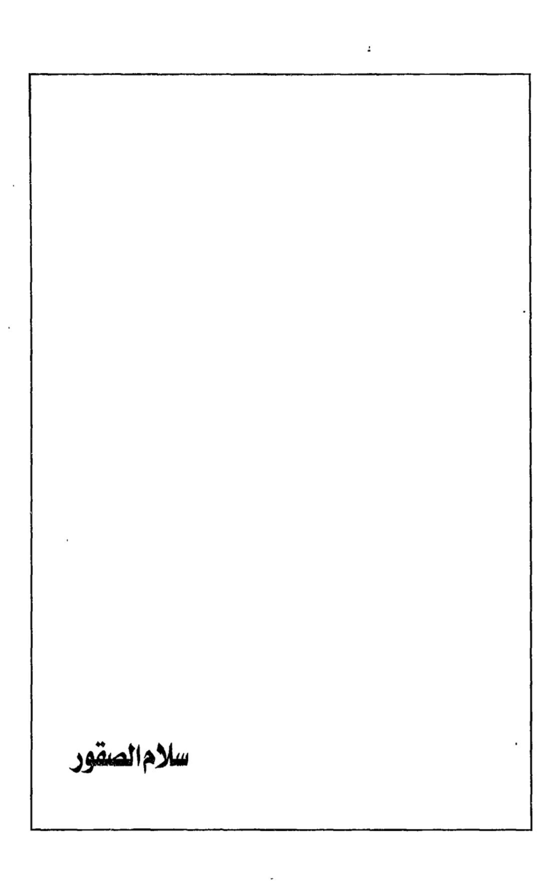



سلام الصقور

محمد عبد المنعم




سلام الصقور

سلام الصقور

محمد عبد المنعم



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

سلام الصقور

محمد عبد المنعم

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

أهداء

إلى كل من حمل السلاح عندما كان العدو على الأبواب.. وانتظم فى مسيرة البناء والركب الحضارى عندما حان الأوان.

المؤلف

تمهيد

عندما يبدأ الكاتب فى تأليف كتاب، فإنه لابد وأن تكون هناك فكرة أو هدف من وراء الكتابة.. فكرة تؤرق الكاتب ويريد أن يشارك فيها الجميع، وفى ذلك فإنه يخرج كل ما فى أعماقه عسى أن يجد ذلك قبولا وقناعة لدى القراء والمهتمين بشئون الوطن، والهدف من هذا الكتاب هو توضيح التحول الكبير الذى انتقلت به مصر من مرحلة الصراع العسكرى إلى مرحلة السلام، هذا الانتقال الذى لم يستوعبه البعض تماما وتصوروا أنه استسلام أو نوع من الخزى والتقاعس.

.. الهدف من هذا الكتاب هو أن أقول للجميع أن الحرب كانت سبيلنا إلى السلام، وأن حرب أكتوبر ٧٣ هى وحدها التى أدت إلى انسحاب إسرائيل سلميا من أراضى سيناء، وفى الصفحات التالية من الكتاب أخترت أبرز الروايات والأدلة الموثقة لإثبات الرأى الذى أتبناه.. ولم أكن لأتبناه لولا أننا كنت طوال هذه الحقبة قريبا من موقع الأحداث.. إما كواحد من آلاف المقاتلين الذين اشتركوا فى جولات الحرب (وكان حظى منها ثلاث جولات خضتها كمقاتل) أو كصحفى ركز كل نشاطه على المجال العسكرى بحكم خبرة سابقة، وأيضا لأن مصر كلها فى تلك الحقبة لم تكن تهتم بأى شيء إلا بالشئون العسكرية، وبمعركة التحرير التى أصبحت قدراً محتوماً بالنسبة للجميع.

وهكذا فإنه بين صفحات هذا الكتاب سيجد القارئ أبرز نقاط وجوانب حرب أكتوبر ٧٣ من وجهة نظر القادة المصريين، ومن وجهة نظر الجانب الآخر، ومن خلال هذه

النقاط والجوانب سننتقل إلى أعماق المجتمع الإسرائيلى لنرى معا، من خلال وثائقهم، كيف أن الأداء العسكرى المميز للمصريين زلزل كيان هذا المجتمع ودفعه إلى تغيير أفكاره الثابتة، ومعتقداته السائدة ، خاصة فيما يتعلق بالأرض وبسياسات التوسع، وبذلك - وبذلك وحده - أصبح المجتمع هناك مستعدا وتواقاً إلى السلام.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى دور الزعيم الراحل أنور السادات وكيف أمكنه استقراء الواقع بذكاء شديد، وكيف استغل هذا الواقع ليبنى رؤيته التاريخية التى غيرت من تاريخ المنطقة، والتى مازالت مثار جدل حتى الآن.

ثم نمضى بعد ذلك معاً لنرى الدور العملى للرئيس مبارك الذى حول السلام من مجرد رؤية، أو تطلع، إلى واقع ملموس وحقيقة راسخة زاد من ترسيخها عودة الأطراف العربية أدراجها لتنضم إلى مانادت به مصر فى السبعينيات، وإلى ما كان سببا فى القطيعة العربية لمصر بعد مؤتمر بغداد الشهير.

وعندما اختفى الصقور من مسرح السياسى الإسرائيلى - لأن فى رأيى أن الصقور وحدها هى التى تصنع الحرب وتصنع السلام، وفى رأيى أيضا أن الحمائم لا دور لها فى حرب أو سلام وأنها مجرد رمز للوداعة المفقوده فى العالم منذ فجر التاريخ - عندما حدث ذلك بدأ السلام يتعثر، وبدأت المخاوف والعداوات تستقر فى النفوس، وسوف يظل هذا الركود سائدا إلى أن يظهر جيل آخر من الصقور يبدد المخاوف، وينتزع اغصان الزيتون، ويفرض السلام على باقى أرجاء منطقة شهدت أكثر من غيرها مآسى حروب أمتدت لأكثر من نصف قرن من الزمان.. ويمكن أن يستمر امتدادها إلى الألفية الثالثة من تاريخ البشرية.

محمد عبدالمنعم

القاهرة فى يونيو ١٩٩٩

مقدمة

من الأقوال المأثورة للكاتب العظيم أوسكار وايلد.

«أننا جميعا نخوض بأقدامنا فى الوحل ولكن بعضنا يتطلع ببصره دائما نحو النجوم».

وقد مضت سنوات طويلة عندما قرأت هذه العبارة لأول مرة، ولكنها كانت ثابتة فى ذهنى على مر السنين، تؤكد منها كل الأحداث الهائلة التى شهدتها مصر فى السنوات الأخيرة فى أحلك أوقات الهزيمة عندما ازداد «غوص الاقدام فى الوحل» كان هناك دائما أولئك الذين «يتطلعون نحو النجوم» لا أنسى منهما صديقان: الشهيد الرائد طيار سامح مرعى، والشهيد النقيب طيار أحمد نور الدين.. ظلا يحاربان حتى استشهدا، وكانا يدركان تماما أن هذا هو المصير ولكنهما كان يقولان دائما - بعد الهزيمة الكبرى فى يونيو ١٩٦٧ - «أننا جميعا نتكلم كثيرا ويجب علينا أن نكف عن الكلام.. وعلى كل من يستطيع أن يفعل شيئا من أجل هذه البلد - أن يشرع فورا فى عمله دون كلام أو ضجيج» وبمعنى آخر فإن هذين الصديقين العزيزين كانا يحلقان مع النجوم فى كل مرة يخرجان فيها لاعتراض طائرات القتال الاسرائيلية وطياريها الذين اكتسبوا سمعة اسطورية بعد يونيو ١٩٦٧ .. وعندما يتغلب المرء على كل مخاوفه، وبصفة خاصة الخوف من الموت، فإنه يكون قد وصل إلى أعلى درجات الرقى الانسانى.

من نفس هذا الطراز كان شهيد مصر الفريق عبدالمنعم رياض.. «جنرال» بمعنى الكلمة، كان يسمو دائما بنفسه ويعلو ولا يستطيع أبدا أن يقبل الهزيمة وسلالتها من عار، وانكسار، وانحطاط... فكان أن استشهد على الحد الأمامى من جبهة القتال فى وقت كانت فيه طبيعة عمله ورتبته تحتمان عليه بقائه فى مراكز القيادة المحصنة فى الخطوط الخلفية، بل وفى القاهرة نفسها... ولكن حال دون ذلك خاصية النبل الإنسانى، وبالذات نبل الإنسان المقاتل الشريف الذى يواجه جهنم نفسها فى سبيل وطنه وكرامته!

وفى هذا الاطار بل وفى قمته يأتى دور الزعيم الراحل محمد أنور السادات الذى واجه عدوه فى أكتوبر ١٩٧٣ فى وقت كان فيه الجميع يسبحون فى أوحال اليأس والهزيمة، وكان قراره بالصمود يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ هو الذى حسم لمصر والعرب أول معركة عسكرية ناجحة ضد اسرائيل.

حينذاك خرج المهرجون يقولون بأن الحرب كلها كانت تمثيلية، ولا أفهم كيف يمكن أن يضحى إنسان بشقيقه الاصغر فى تمثيلية «كما فعل السادات فكلنا نعلم أن النقيب طيار عاطف السادات كان من أول ضحايا حرب أكتوبر ١٩٧٣ عندما أستشهد فى أول طلعة جوية هجومية ظهر السادس من أكتوبر

وعندما اتجه الرجل إلى السلام بعد ذلك بأربع سنوات قالوا أنه باع القضية، ولا أفهم كيف يمكن أن يسترد انسان كل شبر فى أرضه المحتلة ليرد بذلك القضية إلى منبعهاوهى قضية فلسطين بدلا من قضية سيناء أو الجولان أو الضفة) كيف يمكن أن يكون مثل هذا الرجل قد باع القضية؟ حقيقة لا أفهم.

واذا كانت مصر السادات قد استردت بحرب أكتوبر كبرياءها وشرفها العسكرى، فإن مصر السادات عندما ارتادت اتجاه السلام فى المنطقة استطاعت أن تجتذب احترام وتقدير العالم المتحضر كله الذى اهتز لاغتيال السادات كما لم يهتز بموت كيندى أو تشرشل أو ديجول.. لم يكن من الممكن أن نبدأ هذا الكتاب الذى يحاول أن يوضح بموضوعية صورة الحرب ودوافع السلام بغير هذه الكلمات، لأن «رجال الاوحال» خرجوا الآن - رغم أن السادات اغتيل بسبب أفكار ومعتقدات دينية لا قبل لى بمناقشتها - يحاولون أن ينالوا منه بأحقادهم ومن انجازاته الواضحة فى مجال الحرب والسلام.

كما لو كان موته بهذه الطريقة المأساوية لم يشف غليل قلوبهم التى لا تفرز غير الحقد والكراهية ، وفى ذلك أكبر دليل على ضخامة الدور الذى أداه هذا الرجل على مسرح الاحداث والتاريخ الإنسانى، الذى يمتلأ للأسف بكل ألوان الجحود، لأنه حتى فى موته بهذا الاسلوب لم يستطع أن ينال شفقتهم.. والشفقة لا تمنح إلا للضعفاء والاقزام.

محمد عبد المنعم

هكذا تعلم العالم من المصريين!

الأسلحة الحديثة

أو

الأفعوان الأسطورى

حققت تكنولوجيا الصناعات العسكرية إبعادا خيالية لم يكن ليتصورها أى إنسان منذ سنوات، ويكفى الاشارة إلى تلك الاحصائية المذهلة التى تؤكد أن العالم ينفق مليون دولار فى الدقيقة الواحدة على التسليح، وأنه بعد سنوات سيتضاعف هذا المبلغ فى عام ٢٠٠٠، ويكفى أيضا معرفة أن جنون التسلح وصل إلى زرع الغام فى المدار حول الكرة الأرضية!!

وفى ذلك فإن الحروب التى تنشب فى أركان الدنيا، وما ينتج عنها من خسائر، هى حقول التجارب التى يختبر فيها سلاح ما. ثم يبدأ بعدها مباشرة تطوير سلاح مضاد.. وهكذا حتى أصبحت الأسلحة الحديثة مثل هذا الأفعوان الخرافى الذى وصفته أساطير الأولين والذى يتكون من جسم ضخم ورؤس متعددة ما أن يقطع إحداها حتى ينبت بدلا منها رأسين جديدين أو ثلاثة!!

ولقد كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ هى آخر حرب نظامية بالشكل الذى ينبغى أن تكون عليه الحروب الحديثة، وقد يدهش القارئ لمعرفة ما تبعها من تطوير وابتكارات،

لا ننحاز إذا قلنا أنها قامت بشكل أوضح على الأفكار والمبادئ والأساليب التى دخل بها المصريون هذه الحرب التاريخية.

مئات الدراسات والكتب والمقالات، خرجت عن حرب أكتوبر ٧٣ وفى مقدمة لدراسة نشرها معهد استوكهولم الدولى لأبحاث السلام جاءت العبارة التالية:

«لقد أعلن العالم الشهير البرت اينشتين فى عام ١٩٤٥ أن القنبلة الذرية قد تفرض على الجنس البشرى ضرورة تنظيم شئونه الدولية.. تلك الشئون التى لن تنتظم أبدا بدون هذا الضغط وليد الخوف.. ومع ذلك فإن الأحداث العالمية خلال عام ١٩٧٣ أكدت أن أمنية اينشتين المتواضعة فى أن يرى فائدة واحدة - على الأقل - تتحقق من وراء تصنيع وتطوير الأسلحة الذرية.. تلك الأمنية المتواضعة لم - ولن - تتحقق أبدا، والسبب وراء ذلك هو حرب أكتوبر ١٩٧٣».

لقد تأكد العالم كله أن الحرب الحديثة - وأخرها حرب أكتوبر ١٩٧٣ - أصبحت ساحة هائلة للدمار، ولقد دارت حرب أكتوبر بايقاع سريع أشبه بالحرب الخاطفة التى ابتدعها جنرالات هتلر ولكن بصورة خيالية بما أسفرت عنه من دمار وبما استخدم فيها من وسائل علمية وتكنولوجيا متقدمة.

وفى ذلك تقول دراسة المعهد السويدى:

«لقد شهدت حرب أكتوبر استخدام الأسلحة الحديثة بشكل لم يسبق له مثيل. كما وكيفا، تخللت هذه الحرب معارك فريدة فى ضرواتها برا وجوا ألقى خلالها جانبى الصراع بحوالى ٥ آلاف دبابة وألفى طائرة قتال، وجاءت الخسائر جسيمة فى الأرواح والمعدات طوال الأسابيع الثلاثة التى استغرقتها عمليات القتال حتى وصل معدل الخسائر إلى تدمير أكثر من دبابة كل ١٥ دقيقة وأكثر من طائرة كل ساعة زمن».

أسلحة أشبه بالذرية
من حيث القوة التدميرية

وتؤكد كافة الدراسات والمعاهد العالمية أنه بناء على حرب أكتوبر تأكد أن إستخدام الأسلحة التكتيكية الحديثة بالأسلوب الذى استخدمت به فى ١٩٧٣، أدى إلى آثار

بعيدة على التخطيط والفكر العسكرى العالمى وبصورة أوضح بكثير من تلك التى نتجت عن تجارب القتال فى جنوب شرق آسيا وخاصة حرب فيتنام.

وأكثر من ذلك فإن مبدأ الردع النووى تكتيكيا وإستراتيجيا، يجرى إلى الآن إعادة بحثه على ضوء نتائج حرب أكتوبر، بل إن وزارة الدفاع الأمريكية ـ طبقا لما نشرته مجلة ـ نيوزويك ـ بدأت تعيد النظر بشأن الحرب التقليدية، وذلك بعد أن أظهرت هذه الحرب للمخططين العسكريين الأمريكيين أن تكاليف خوض القتال فى المستقبل بهذه الصورة الجديدة التى شهدتها رمال سيناء، ستصل إلى عشرات المليارات من الدولارات ثمنا للخسائر فى الأسلحة والمعدات فى الأسبوع الواحد.

٢٠٠٠ مدفع
و١٠٠ ألف دانة

ويكفى أن نعلم أنه فى تمام الساعة الثانية وخمس دقائق ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ انطلق من الضفة الغربية لقناة السويس أكثر من ٢٠٠٠ مدفع لاجراء عملية التمهيد النيرانى للهجوم وعلى الفور استطاعت هذه المدافع إسكات أكثر من ٩٠ فى المائة من بطاريات مدفعية الخصم وكان معدل طلقات المدفعية ١٧٥ دانة فى الثانية الواحدة أى أنه فى الدقيقة الأولى أطلقت هذه المدافع ١٠٥٠٠ دانة.

وبلغ عدد الدانات التى أطلقت فى عملية التمهيد النيرانى ١٠٠ ألف دانة زاد وزنها عن ٣ آلاف طن من المواد المتفجرة.

ومن هنا نستطيع أن نفهم العلاقة بين أسلحة الحرب التقليدية فى العصر الحديث وقوة التدمير للأسلحة النووية المحدودة الآن، إن المسألة فى النهاية تتعلق بالقوة التدميرية التى أصبحت حاليا بفضل الأسلحة الحديثة وقوة نيرانها الهائلة تقترب من نفس القوة التدميرية التى تحدثها الأسلحة الذرية وأصبح بامكان الأسلحة التقليدية الحديثة أن تنتج كمية من النيران، وبالتالى قوة تدميرية تفوق القوة التدميرية التى أحدثتها قنبلة هيروشيما.

وعلى الصعيد العالمى، وفى ضوء الدور الضخم الذى لعبته المدفعية المصرية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، فإنه يجرى حاليا التوفيق بين المدافع وأشعة الليزر والعقول

الاليكترونية وأجهزة الرادار بحيث تصبح مدافع ميدان - وفى النهاية فإن كل الأسلحة ما هى إلا مدافع الميدان - وفى النهاية فإن كل الأسلحة ما هى إلا مدافع: فى البر أو البحر أو الجو - أعظم أثرا وأكثر دفعة فى إصابة الهدف.

العالم يطور مدافعه

وفى ذلك يقول تشارلز ماك ليلاند مدير مؤسسة الدراسات الدولية، بالولايات المتحدة الأمريكية، إن الأمريكيين يستطيعون الآن إضافة جهاز توجيه بالليزر لدانات المدافع، ووضع جهاز رادار مزود بعقل اليكتروني، يصل ثمنه إلى مليون دولار تقريبا، مع كل بطارية مدفعية وبذلك يمكنهم إصابة بطاريات العدو ومحوها من الوجود، ويضيف المسئول الأمريكى قائلا إن لديهم كاميرا تلفزيونية بحجم علبة السجائر يستطيعون وضعها داخل الدانات والصواريخ لأننا بحاجة إلى كل هذه الأسلحة من أجل المعركة القادمة التى حددت معالمها حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وبمعنى آخر فإن مدافع أكتوبر كانت على درجة هائلة من الفاعلية بحيث أخذ الفكر العسكرى العالمى فى إيجاد حل يستهدف إجادة هذه المدفعية - بمدافع أكثر تطورا - عندما ينشب موقف مماثل فى المعركة القادمة.

وفى إطار الدور الذى لعبه رجال المدفعية، فإن التاريخ قد سجل لهم الدور الرائد الذى لعبه رجال المقذوفات الموجهة المضادة للدبابات بعد أن أحدثوا ثورة فى التكتيكات الحديثة عندما هزوا مكانة الدبابة كسلاح هجومى وتفوقوا عليها مما أدى بجيوش الدول الكبرى إلى إعادة حساباتها.

الرجل وصاروخه الصغير
واقعه فريدة فى التاريخ

لقد انبهر العالم بالدور الذى لعبه هؤلاء الجنود المصريون عندما إقتحموا قناة السويس بدون معدات أو أسلحة ثقيلة، ووقفوا شامخين على الضفة الشرقية لقناة السويس يتحدون ثانى أقوى سلاح تملكه إسرائيل.. سلاح المدرعات أو (القبضة الفولاذية) كما يسمونها هناك، ولم يكن مع هؤلاء الجنود سوى عدد من الصواريخ والقذائف المضادة للدبابات إستطاعوا بواسطتها أن يدمروا مئات الدبابات الثقيلة

للخصم وأوقفوا محاولات الاسرائيليين للتصدى للمشاه المصريين الذين اقتحموا قناة السويس وحدهم دون مدرعات أو دبابات وكان عليهم أن يصمدوا ساعات طويلة حتى يتم الانتهاء من بناء كبارى الاقتحام وفتح ثغرات فى السد الترابى تستطيع مدرعاتنا التقدم من خلالها.

وإزاء هذه الواقعة الفريدة فى التاريخ العسكرى أصبح هناك! هتمام عالمى بتصنيع وتطوير الصواريخ التكتيكية المضادة للدبابات، يركز التطوير فى هذا المجال على تجميع ثلاثة منجزات علمية هى:

- الحشوة الجوفاء
- المحرك الصاروخى
- التحكم عن بعد

وبهذا نحصل على قذيفة تخترق درع الدبابة على مسافات كبيرة مع إصابة الهدف من الدقيقة الأولى، وكانت هناك الفكرة العامة التى تقوم على مبدأ يقول (اطلق الصاروخ ثم أنساه) بمعنى أنك لن تبذل مجهودا بعد ذلك فى التوجيه أو تصحيح المسار وتضمن إصابة مائة فى المائة، وقد ظهر حتى الآن ثلاثة أجيال من الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات هى:

١ - الجيل الأول: وهو أول الأنواع وأكثرها بدائية، وهو ما كان متوفر لدينا فى حرب أكتوبر، ويعتمد هذا النوع على مراقبة عامل التوجيه للهدف وتتبعه لمسار الصاروخ بالعين المجردة، ويتم التحكم فى المسار يدويا عن طريق صندوق التحكم، وترسل إشارات التصحيح إلى الصاروخ بواسطة سلك التوجيه وتقلل من إحتمالات الاصابة لصواريخ هذا الجيل صعوبة مهمة الرامى فى توجيه الصاروخ خاصة تحت ظروف المعركة الحديثة الأمر الذى يعكس مستوى الجهد والبراعة التى بذلها رجال مدفعيتنا فى حرب أكتوبر.

٢ - الجيل الثانى: ويعتبر التوجيه الآلى الذى حققه صواريخ هذا الجيل هو التطور الكبير الذى حدث فى هذا المجال وتقتصر مهمة عامل التوجيه على تتبع الهدف فقط من خلال منظار القاذف، ويتم تصحيح المسار بواسطة جهاز حاسب اليكترونى، وترسل إشارات التصحيح خلال سلك التوجيه إليا مما يزيد إحتمالات إصابة الهدف.

٣ ـ الجيل الثالث: وهى صواريخ حديثة يتم إطلاقها فى اتجاه الهدف بشكل تقريبى ثم يقوم الصاروخ ذاتيا بتصحيح مساره وتصحيح أخطائه ليصوب الهدف إصابة مؤكدة وذلك عن طريق جهاز توجيه ذاتى موجود فى مقدمة الصاروخ، وينقسم هذا الجيل إلى ثلاثة أنواع:

ـ جهاز توجيه ذاتى يعتمد على أشعة الليزر لتمييز الهدف المعادى.

ـ جهاز توجيه ذاتى يعتمد على الأشعة الحرارية المنبعثة من الهدف فيقوم بتوجيه نفسه ذاتيا إلى الهدف عن طريق رأس باحثة عن الحرارة.

ـ جهاز توجيه ذاتى يعتمد على الموجات الحرارية لتمييز الهدف وإصابته.

وبقى أن نعرف أنه فى إطار هذا التطور الهائل الذى تشهده أنظمة التسليح العالمية على خبرة أكتوبر ٧٣، فإننا عن طريق سياسة تنويع مصادر الأسلحة التى انتهجها الرئيس السادات بعد أكتوبر ومازلنا نعمل بها حتى الآن، فإننا بعد صواريخ الجيل الأول التى إنتزعنا بها أعجاب العالم كله، فإن رجال المدفعية يملكون الآن صواريخ «هوت» (إنتاج فرنسى المانى) وصواريخ «تاو» الأمريكية وصواريخ ميلان الفرنسية وصواريخ سوينج فاير البريطانية والتى تقوم بانتاجها محليا بالتعاون مع بريطانيا بل قمنا بتطويرها للعمل بأسلوب معين من فوق سيارات جيب.. وبناء على خبرة أكتوبر أيضا.

وهكذا إستطاع رجال المدفعية المصرية أن يعرضوا أمام العالم أجمع على مسرح سيناء إنه بالتدريت الجيد والاستغلال الأقصى لا مكانيات الأسلحة الحديثة يمكن تحقيق الاصابة، والقتل، والتدمير بقذيفة واحدة، وكان الهدف هو الدبابة، والوسيلة هى الصواريخ المضادة للدبابات من الجيل الأول. وعلى نفس هذا النمط تعامل رجال الدفاع الجوى المصرى مع أقوى سلاح تملكه إسرائيل وكانت، ومازالت. تعتمد عليه حتى الآن، وهو سلاح الطيران.

وفى ذلك يقول الخبير العسكرى البريجادير كينث هانت نائب مدير المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية بلندن: «إن حرب أكتوبر ١٩٧٣ غيرت بالفعل أفكارا عديدة عن التوازن بين الطائرات المقاتلة وأسلحة الدفاع الجوى، وبين الدبابات ووسائل

المدفعية المضادة للدبابات، ولقد واجهت السيطرة التى يتمتع بها سلاح الطيران الاسرائيلى تحديا خطيرا من جانب وسائل الدفاع الجوى العربى، كما أصبح تفوق الدبابات الاسرائيلية فى المعركة موضع شك كبير.

إن الاهتمام العالمى بدور الدفاع الجوى المصرى فى حرب أكتوبر وضح منذ اللحظة الأولى لاندلاع الحرب، لأن امالا كبيرة كانت معقودة على السلاح الجوى الاسرائيلى الذى وصف بأنه من أقوى الأسلحة الجوية فى العالم، وباستمرار الحرب ازداد هذا الاهتمام بعد أن تساقطت الطائرات الاسرائيلية الحديثة بمعدل فاق أحلام أكثر الناس تفاؤلا.

خبرة أكتوبر تسود العالم

وعلى الفور بدأ العالم شرقا وغربا يطور وسائل الدفاع الجوى بعد أن أظهر المصريون قدرتهم على التصدى بنجاح لوسائل الهجوم الجوى الحديث ويغيروا إلى النهاية مبدأ السيادة الجوية الذى ظل الفكر العسكرى يعتبره أحد الأركان الأساسية لأى معركة وضرورة يجب توافرها من أجل إحراز النصر.

هكذا تعلم المفكرون العسكريون من الحرب العالمية الثانية ومن حروب كوريا وفيتنام، وهكذا إتعلمت اسرائيل أيضا فكانت منذ البداية تركز بشكل واضح على الأسلحة الجوية، ثم جاء المصريون فى أكتوبر ١٩٧٣ ليبددوا كل المفاهيم السائدة، ويقدموا درسا جديدا فى الحرب الحديثة.

ولقد ظهرت بعد هذه الحروب مناقشة حامية بين مختلف دول العالم على إنتاج الصواريخ المضادة للطائرات وكان هناك الصاروخ الفرنسى «كروتال» الذى تنتجه جنوب أفريقيا تحت إسم «كاكتوس» واشترته السعودية والكويت وليبيا وباكستان، وهناك أيضا الصاروخ «رولاند» الذى اشتركت فرنسا وألمانيا الغربية فى إنتاجه: وقد تعاقدت شركات «بوينج» و «هيوز» الأمريكية على حق إنتاج هذا الصاروخ بترخيص خاص.

كذلك أنتجت السويد صاروخا جديدا مضاد للطائرات على نمط «سام - ٧» والتجربة المصرية، ويسمى الصاروخ الجديد «ببى رأس - ٧٠» وهو يعمل بأشعة الليزر واتفقت سويسرا ودول أخرى على شرائه، وفى نفس هذا الاطار كان هناك إهتمام عالمى بالصواريخ فى الحرب الحديثة من هذه السلالة التى أفرزت حرب أكتوبر أهميتها.

صواريخ «سام» أمريكية!

وبدأ الأمريكيون فى تقييم التجربة المصرية. ثم شرعوا فى تطوير صواريخهم المضادة للطائرات وفى مقدمتها الصاروخ «هوك» المتوسط المدى وقد أنتجت الولايات المتحدة طرازا معتدلا من هذا الصاروخ، كذلك أهتمت دوائر للصناعات الحربية هناك بتطوير أنواع أكثر تقدما وكان منها الصاروخ «باتريوت» أو السام - د» الذى سارعت ألمانيا الغربية إلى شرائه (سام إختصار لعبارة صاروخ أرض جو وتستخدم فى الشرق والغرب على حد سواء)..

وفى مجال الصواريخ الصغيرة التى يحملها جندى واحد على كتفه على غرار صواريخ «سام - ٧» التى إستخدمها المصريون فى أكتوبر، كان هناك الصاروخ الأمريكى «رد آى» وتم تطويره بناء على خبرة أكتوبر فخرج إلى الوجود الصاروخ «ستنجر» وهو يعمل فى ألمانيا ودول الأطلنطى كلها والذى سيحل مكان الصاروخ «رد آى» فى إسرائيل.

ومن ناحية أخرى لا يفوتنا ذكر الطائرات الآلية التى تعمل بدون طيارين والتى إستخدمت اسرائيل طرازين منها لأول مرة فى حرب أكتوبر ٧٣: طراز «شكار» وطراز «فايربى - ١» ورغم صعوبة إصابة هذا النوع من الطائرات لضآلة حجمها ولقدرتها على القيام بمناورات حادة إذ لا يوجد بها طيار آدمى هو محدود القدرة فى نهاية، فإننا استطعنا عدم تمكين هذه الطائرات القيام بدورها .

ولذلك فإن دوائر الصناعات العسكرية فى العالم كله بدأت تفكر فى تطوير أنواع جديدة من هذه الطائرات وتزويدها بأجهزة تشويش وإعاقة لتكون بين الموجات الأولى للهجوم وينحصر دورها فى إبطال مفعول أسلحة الدفاع الجوى للخصم وتحييد هذه الأسلحة التى فتكت بالطائرات الاسرائيلية فى حرب أكتوبر.

ورغم تمتع طائرات القتال الحديثة بأجهزة تنشين ووسائل اليكترونية متقدمة تساعدها فى ضرب الأهداف، وعمليات القذف الجوى، إلا أن تجربة أكتوبر أثبتت قدرة وسائل الدفاع الجوى المتمركزة فوق سطح الأرض، على إزعاج هذه الطائرات - إن لم تسقطها - فتجعلها غير قادرة على إصابة أهدافها.

ولذلك فقد بدأ التفكير فى أنواع من الطائرات الألية التى تعمل بدون طيارين - بأشعة الليزر - للعمل بسرعة وبدقة على تحديد مواقع الخصم الحيوية وتسهيل إصابتها وتدميرها بواسطة الطائرات المقاتلة وبحيث لا تتعرض هذه الطائرات كثيرا لنيران وسائل الدفاع الجوى للخصم.

تجربة شيلكا المصرية فى قاعدة «نيليس» الأمريكية!

وفى صحراء نيفادا الأمريكية هناك قاعدة جوية تسمى قاعدة «نيليس» وهى أغرب قاعدة من نوعها فى العالم إذ يرتفع فوقها العلم السوفيتى وتؤدى القاعدة مشروعا تدريبيا فريدا يسمى «رد فلاج» (العلم الأحمر) أى العلم السوفيتى، ويرتدى الطيارون هناك ملابس الطيارين السوفييت ويعيشون بأفكارهم ويعملون على طائراتهم - أو طائرات شبيهة بالطائرات السوفيتية - ويتصرفون مع الطيارين الأمريكيين على أنهم أعداء.

المهم أنه وسط هذه التجربة الفريدة أخذ الأمريكيون - وبناء على خبرة أكتوبر يركزون على استخدام مدفع رباعى مضاد للطائرات على غرار المدفع «شلكا» الذى استخدمه المصريون فى حماية قواتهم البرية المتقدمة فى سيناء والذى أسقطوا به عددا كبيرا من الطائرات الاسرائيلية.

وفى نفس الوقت بدأت دول غربية كثيرة فى تطوير مدافع مضادة للطائرات مماثلة لهذا المدفع بسبب إنجازاته فوق رمال سيناء.. وإلى هذا الحد وصل الاتجاه فى الاستفادة من دروس أكتوبر والخبرات التى قدمها المصريون لأول مرة.

صواريخ «هوك» لمصر وصواريخ «سام» للعرب

والغريب إننا - بمقتضى سياسة تنويع مصادر السلاح وبناء على الخبرة التى حققناها بأنفسنا، اشترينا صواريخ «كروتال» الفرنسية وتعاقدنا على شراء صواريخ «هوك» المعدلة الأمريكية، وكلاهما من الصواريخ المضادة للطائرات، ولكن فى الوقت

ذاته ورغم توافر هذه الأنواع ببعض الدول العربية إتجه عدد منها لشراء صواريخ سام السوفيتية الصنع والتى ألقينا عليها الأضواء فى حرب أكتوبر.

(المغنى) وليست (الأغنية)

وهنا يجدر التنويه إلى حقيقة هامة: لقد كنا نملك نفس الصواريخ والأسلحة فى يونيو ١٩٦٧ ولكنها لم تفعل شيئا لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئا وحدها وليس هناك سلاحا سحريا يحقق مثل هذه الانجازات، ولكن الذى حدث هو التدريب والتخطيط، والاستغلال الجيد لامكانيات كل سلاح، الأمر الذى انتهى بالطائرات الاسرائيلية إلى «مناطق قتل» مؤكدة... إنها قصة طويلة وتاريخ يرجع إلى الحرب العالمية الثانية بل وقبل ذلك بكثير، ولم تكن المسألة سهلة على الاطلاق. وكما يقول المثل الغربى: لم تكن «الأغنية» هى الجميلة، ولكنه «المغنى» الذى أجاد.

لقد ظهرت الدبابة لأول مرة فى ميدان القتال يوم ١٥ سبتمبر عام ١٩١٦ وكانت وقتذاك السلاح السرى الجديد الذى تحتفظ به بريطانيا وجلبت منه فى هذا اليوم ٤٩ دبابة لمحاربة الألمان عند قرية «ملرز كورسيليت» الفرنسية وقتها كان للسلاح الجديد تأثيرا حاسما فقد صاح أحد الجنود الألمان عندما رأى هذه الالة الغريبة لأول مرة - صاح بأعلى صوته وبالذعر كله:

«إن الشيطان قادم نحونا» وسرعان ما سرت هذه الكلمات بين زملائه الجنود عرفت بعد ذلك بقوة الصدمة التى تحدثها الدبابات فى نفوس الجنود.

ورغم أن هذه الدبابات الـ ٤٩ أصيب ١٧ منها باعطال ميكانيكية قبل الوصول إلى خط البداية، وفشلت ٩ أخرى فى تشغيل المحرك، ووصلت ٩ غيرها متأخرة عن ساعة الصفر، وتبقى بعد ذلك كله ١٤ دبابة تعطلت ٥ منها عن العمل ثم خرجت الدبابات التسع الباقية سليمة بطريقة أو أخرى ورغم ذلك كله فقد كان للسلاح الجديد تأثيرا عظيما استمر يزداد باطراد مع ازدياد حجم وصلابة الدبابة، ووصلت درجة الفاعلية إلى الزروة على أيدى القائد الألمانى الشهير الفيلد مارشال إيروين روميل، والقائد الأمريكى جون سميث باتون.

أما فى أكتوبر ١٩٧٣ فقد كانت معارك المدرعات التى شهدتها ميادين القتال تفوق أى معارك للمدرعات غير التاريخ كما ونوعا وعنفا، فمثلا كان حشد المدرعات فى معركة العلمين عام ١٩٤٢ يصل إلى ١٧٢٥ دبابة للطرفين المتحاربين (قوات مونتجمرى وقوات المحور بقيادة روميل)، وفى معركة كورسلت التى أذهلت ضخامة حجمها الخبراء والمحللين كان عدد المدرعات التى اشتركت فيها حوالى ٦٢٠٠ دبابة كان لدى السوفيت منها ٣٥٠٠ ولدى الألمان ٢٧٠٠.

أما فى حرب أكتوبر فقد بلغ حشد المدرعات لدى الطرفين المتحاربين (على جبهتى القتال) حوالى ٦٧٠٠ دبابة بالاضافة إلى اعداد كبيرة من الدبابات زجت لميدان القتال من خلال الجسر الأمريكى الجوى والبحرى الذى أمد اسرائيل بها بعد أن فقدت أعدادا هائلة من دباباتها وكانت بعض المدرعات التى اشتركت فى تلك الحرب حديثة ومتعددة الامكانيات وأحضر الجسر الامريكى دبابات جديدة جاءت من المخازن والمستودعات الأمريكية إلى سيناء مباشرة.

وقد كان دور المدرعات المصرية من أروع ما سيذكره التاريخ، لقد بدأت المدرعات عبر القناة إلى سيناء بعد عدة ساعات من عبور المشاه وذلك بعد أن تم إنشاء ١٠ جسور وكذلك إستخدمت ٥٠ معدية انتقلت عليها فى نفس الوقت الدبابات والمجنزرات فى النقاط التى لم تنشأ فيها جسور. وقبل بزوغ فجر اليوم الثانى (٧ أكتوبر) كانت الدبابات المصرية تتدفق على الضفة الشرقية للقناة لتدعم رؤوس الكبارى.

حتى أن جريدة صنداى تلجراف قالت على لسان موشى ديان باعترافه عن الأيام الأولى للحرب (فى اليوم الرابع وضح أن مصر قد أحرزت تفوقا ظاهرا فى معارك المدرعات بسيناء حيث توالت الخسائر الفادحة فى المدرعات الاسرائيلية التى فوجئت أثناء تحركها نحو تجمعات جنود المشاه المصريين بقذائف تنصب عليهم من مسافة كيلو مترين أو ثلاثة فقد كانت تلك القذائف من الدبابات المصرية، حيث ذكر الجانب الاسرائيلى أن المصريين يتحركون على شاكلة الفيالق الرومانية فى صورة كتلة من الجنود تتوسطها الدبابات. كان هذا فى الأيام الأولى للمعركة. وعند صدور الأمر بتطوير الهجوم شرقا أبلت المدرعات بلاء حسنا رغم ما تعرضت له من مقاومة عنيفة

نتيجة لاستخدام اسرائيل للأسلحة الحديثة والصواريخ المضادة للدبابات التى وصلت إليها عبر الجسر البحرى من العريش وقد استخدمت فى هذه المعارك الصواريخ المضادة للدبابات الأمريكية (تو) لأول مرة وكانت تطلق من منصات أرضية ومن طائرات هليكوبتر.

ورغم التطور العلمى الهائل فى مجال الصواريخ المضادة للدبابات وقدرتها الفائقة على الاصابة والتدمير فلا تزال القوات المدرعة تحتل نفس الأهمية فى مختلف جيوش العالم ولم ينته دور الدبابة وإنما يواصل العلم والفكر الفنى والعسكرى العمل على تطوير الدبابة لأنها تعتبر من الوسائل الحاسمة لاحراز النصر فى الحروب، ومن المتوقع أن تتسم معارك المدرعات فى المستقبل بالقهر وشدة الضراوة، وعلى الجانب الذى يود إحراز النصر أن يكسب المعركة الأولى حيث أنها ستكون الأولى والأخيرة وفى النهاية فإن من يحتفظ باحتياطى من المدرعات سيحصل على النصر.

وقد مكنا ذلك من القاء كميات هائلة من المدرعات فى المعارك الضخمة التى دارت على مختلف محاور سيناء ووصفت بأنها أكبر معارك للدبابات فى تاريخ الحرب.

لقد كانت حرب أكتوبر والدروس المستفادة من أهم ما اعتمد عليه مصممو دبابات الثمانينات والتسعينات من هذه المدرعات والتى أمكن بلورتها فقد وضعوا أمامهم كافة التحليلات فى ١٨ معركة على كل من الجبهتين المصرية والسورية وتركزت الجهود بالنسبة للتطوير فى ثلاثة محاور هى فى الواقع المقومات الأساسية للدبابة وهى قوة النيران + خفة الحركة + الوقاية والتدريع.

وسوف نذكر باختصار أهم الخصائص للإنجازات فى هذه المحاور الثلاثة:

١ - قوة النيران:

إن المهمة الأساسية للدبابة هى الضرب. وقد أضافت دروس حرب أكتوبر تطورا فى أسلوب الاشتباك بحيث يحقق للدبابة التى تطلق قذيفتها أولا باحراز ٥٠٪ من التفوق على الدبابة المعادية ركز خبرة اكتوبر على تغيير إجراءات الاشتباك ليصبح أقصر ما يمكن حيث وصل الى ٥ - ٧ ثانية بدلا من ١٣ - ١٥ ثانية وقد استلزم هذا

بالتالى اضافة تجهيزات جديدة تحقق الوصول الى المستوى المطلوب وهذه التجهيزات حققت:

(أ) - معدل إصابة عالى مع بساطة أسلوب الاشتباك بحيث يخفف العبء عن رامى وقائد الدبابة حيث تقدم الأجهزة كافة البيانات.. وما على الرامى الا أن يضغط زر الضرب.

(ب) - زيادة فاعلية الاصابة بما يحقق تدمير كامل يصعب معه إعادة دفع الدبابة للمعركة.

(جـ) - زمن الضرب قصير جدا وبذا تجنب الدبابة الرصد والاصابة.

وفى مجال زيادة قوة النيران ظهرت الدبابات الحديثة وقد زودت بأجهزة إدارة نيران تستخدم فيه الحواسب الآلية وأشعة الليزر لتقدير المسافة مع الوضع فى الاعتبار جميع العوامل المؤثرة على الضرب مثل سرعة الريح ودرجة الحرارة وزاوية ميل الدبابة أثناء الضرب.. الخ. كما تم تطوير أجهزة الرؤية والتنشين لتعمل نهارا وليلا بكفاءة، وباستخدام نظام تكثيف أضواء النجوم، أو استخدام الاشعاع الحرارى الصادر من الهدف المعادى.

هذا بالاضافة الى التطوير فى مجال تصنيع الذخيرة لتصبح أسرع وأكثر ثباتا وأعمق اختراقا.

٢ - خفة الحركة:

المقصود بخفة الحركة هو مقدرة الدبابة على التحرك فوق أرض المعركة أيا كان الجو والوقت وطبيعة وشكل الأرض. أى القدرات التى تسمح بالانتقال السريع من حيث الزمان والمكان بين مختلف صور القتال بالاضافة الى المرونة الكاملة على إدارة الاشتبكات، وببساطة فان القدرة النوعية للدبابة هى المرادف لخفة الحركة وهى عبارة عن قوة المحرك.

وفى مجال التطوير بالنسبة لخفة الحركة تميزت الدبابات الحديثة ودبابات المستقبل بالآتى:

(أ) - محركات ذات قدرة كبيرة وصغيرة الحجم، تتقبل جميع أنواع الوقود، سهلة الادارة فى الأجواء الباردة - سهلة الصيانة.

(ب) - أجهزة نقل للحركة بنظام هيدروماتيكى علاوة على نظام فرملى متكامل مع نظام قيادة أدى الى زيادة سرعة الدبابة عبر الأراضى الى ثلاث أضعاف السرعة العادية.

(جـ) - نظام التحميل والتعليق والجنازير المصنوعة من الألمونيوم أو الصلب.

وقد أمكن الوصول بالدبابات الحديثة لأن تحقق سرعة متوسطة تجاوز ٤٠كم ساعة فى ظرف ٩ ثوان من بدء التحرك، أى أنها تحقق مرونة عالية وهذا لم نعهده من قبل مما يوفر لها الوقاية والهروب من القذائف ذات السرعات ١٠٠٠ متر/ ثانية، فعلى سبيل المثال تستطيع الدبابة الأمريكية «اكس أم - ١» قطع ١٣ متر فى ظرف ثانية واحدة وهى زمن طيران الطلقة الحشوة الجوفاء مما يمكنها من إخلال التنشين والبعد عن نقطة الاصابة بما يعادل ١٣ مترا (٢ طول دبابة).

٣- الوقاية والتدريع:

مع التطور الهائل فى الأسلحة المضادة للدبابات والصواريخ أصبح توفير الوقاية التامة أمر يصعب تحقيقه ويمكن تعريف الوقاية بأنها سلبية إيجابية. فالسلبية تعتمد على كافة وخواص الدرع. والايجابية تعتمد على أسلحة الدبابة بما يسمح لها بالرمى من مسافة بعيدة، وعلى خفة الحركة. والوقاية الكلية هى محصلة الوقاية السلبية والايجابية.

وفى مجال الوقاية تم التطوير العالمى على الوجه التالى:

(أ) - استخدام تدريع من مخاليط معدنية وغير معدنية لها نفس الصلابة وتتميز بخفة الوزن مثل سبائك الصلب والبلاستيك مثل مادة يولين أين. وكذلك استخدام الدروع المتعددة (شهوبهام).

(ب) زيادة إيجابية التدريع باستخدام الزوايا التى تحد من فترة الاختراق أو استخدام الواح التدريع الخارجية.

(جـ) تقليل الآثار الناتجة عن الاختراق باحتواء أماكن الذخيرة والوقود وذلك بتوفير تدريع حوالها.

(د) - تحاشى تشوين الذخيرة فى الأماكن المعرضة للضرب مثل برج الدبابة.

(هـ) - توفير الاختفاء وتقليل الارتفاع وزمن التعرض.

وقد جاء كل ذلك نتيجة دراسات إيجابية مستفيضة لمعارك الدبابات الكبرى التى دارت فوق رمال سيناء خلال عمليات أكتوبر المجيدة.. دراسة علمية جادة ومثمرة.

وفى النهاية فان المواءمة بين المقومات الثلاثة للدبابة هى المعارك الصعبة التى يحرص على تحقيقها مصمم دبابة ما بعد أكتوبر.. ويجمع الخبراء العالميون أنه بعد هذه التعديلات والتغييرات فى التصميم والمواصفات عاد للدبابة ما فقدته خلال حرب أكتوبر وسيبقى الصراع بين الدبابة والأسلحة المضادة للدبابات طالما بقيت الحاجة للدبابة كعنصر حاسم يستطيع الوصول الى حيث توضع أعلام المنتصر وتترك لزملاء آخرين الاحتفاظ بالأرض وتأمين هذه الأعلام.

الحرب الجوية

كان للحرب الجوية فى أكتوبر ١٩٧٣ وضع خاص فقد القى خلالها جانبا الصراع أحدث ما أنتجته الدولتان الكبيرتان من طائرات القتال.. على الجانب المصرى كانت هناك طائرات الميج والسوخوى والتوبوليف.. هى نفسها طائرات ما قبل عام ١٩٦٧، وعلى الجانب الاسرائيلى كان هناك الميراج والفانتوم وسكاى هوك، وكلا النوعين الأخيرين من أحدث طائرات القتال وقتها وحصلت عليها اسرائيل فى عام ١٩٦٩ وقت لم تكن فيه دولة خارج أمريكا قد حصلت على الفانتوم التى كانت تعتبر أقوى طائرة فى هذا الوقت.

لذلك كانت الحرب الجوية فى أكتوبر ١٩٧٣ مسرحا مصغرا لما يمكن أن تكون عليه الحرب الجوية التقليدية بين الدول الكبرى، ومن هنا كان إهتمام هذه الدول واضحا بما يجرى فى سماء الشرق الأوسط ولعل ذلك يفسر العبارة الشهيرة التى قالها كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى وقتذاك - أى الأمريكيين - لن يسمحوا بهزيمة السلاح الأمريكى أمام السلاح الشرقى.. إلى هذا الحد وصل الاهتمام العالمى.

الرجل وراء السلاح

ولعل أهم ما يؤكد أن الحرب ليست سلاحا من هنا أو هناك، هو ما ذكرناه من قبل أن الميج والسوخوى كانت معنا قبل ١٩٦٧ وإنهم رغم الانحياز الكبير الذى حققوه بالميراج فقط فى حرب ١٩٦٧، فانهم فى حرب ١٩٧٣ ومعهم الميراج والفانتوم والسكاى هوك لم يحققوا شيئا بل تعرضوا لخسائر فادحة.. الرجل وراء السلاح هو العامل الأكثر حسما.

لقد قامت قواتنا الجوية بتوجيه الضربة الأولى التى بدأت بها معركة ٦ أكتوبر، واشترك فى هذه الضربة ٢٠٠ طائرة مصرية هاجمت مطارات الخصم فى سيناء ومراكز القيادة والتوجيه ومواقع الصواريخ هوك ومواقع الرادار الأمر الذى أحدث شللا للقوات الاسرائيلية وأتاح لقواتنا البرية إقتحام قناة السويس دون تدخل يذكر من الطيران الاسرائيلى.

وفى الوقت نفسه قامت قواتنا الجوية فى ليلة ٦ أكتوبر بابرار القوات الخاصة والصاعقة خلف خطوط الاسرائيليين فى سيناء وعلى طول المواجهة.. عند المضايق وطرق الاقتراب فى وسط سيناء، ثم جنوبا على طول خليج السويس من رأس سدر الى شرم الشيخ، وقد قامت هذه القوات الخاصة بقطع خطوط مواصلات العدو وخطوط إمداداته، وإشتبكت مع الاحتياطيات الاسرائيلية التى هبت لنجدة خط باريف المنهار، وظلت هذه القوات تناوش الاسرائيليين حتى اجتازت قواتنا البرية الفترة الحرجة بعد عبور القناة، وهى الفترة التى كان يقف فيها جنودنا وحدهم على الضفة الغربية يواجهون الأسلحة والمعدات الاسرائيلية الثقيلة حتى يتم بناء الجسور وفتح الثغرات فى السد الترابى الشهير، ثم تبدأ بعد ذلك مدرعاتنا وأسلحتنا الثقيلة فى التقدم الى سيناء.

الفترة الحرجة

ولقد كانت هذه الفترة هى أحرج الفترات فى عملية العبور والتى يتم خلالها إنشاء رؤوس الشواطىء شرقى القناة وهى «القبضات» المصرية على الأرض التى إقتحمتها.. وفى هذه المرحلة قامت قواتنا الجوية بتدعيم قواتنا البرية وظلت تهاجم المدرعات والقوات الاسرائيلية التى حاولت صد الهجوم، وألحقت بها خسائر كبيرة

فساعدت بذلك على قيام قواتنا بانشاء الكبارى على القناة ثم عبور مدرعاتنا ومدفعيتنا، التى سرعان ما أخذت أوضاعها شرقى القناة لتأمين وحماية القوات فى مناطق «رؤوس الشواطىء».

وكان على قواتنا البرية بعد ذلك القيام بتوسيع مناطق رؤوس الشواطىء وتوسيع رقعتها وحينذاك كانت طائراتنا مرة أخرى تهاجم الطائرات الاسرائيلية فى سيناء لشل فاعلية طيران الخصم، كما هاجمت تجمعات القوات البرية الاسرائيلية وإحتياطياتها الاسرائيلية فى أعماق سيناء وطرق إمدادها ومواصلاتها، وبذلك كانت تجهض مجهودات الخصم ضد قواتنا وتحطم موجات هجومه دفاعا عن قواتنا البرية وتمكينها من التقدم.

وبعد أن قررت القيادة العامة المصرية تطوير الهجوم فى عمق سيناء هبت قواتنا الجوية تهاجم من جديد مطارات إسرائيل وقواتها وتجمعاتها البرية التى قد تعترض تقدم قواتنا فى سيناء.

العبء الأكبر

على أن العبء الأكبر وقع على القوات الجوية خلال مرحلة الثغرة عندما قامت بعد إختراق المدرعات الاسرائيلية فى منطقة الدفرسوار وكان لها الفضل الأكبر فى تحديد حجم ومواقع قوات الاختراق «بواسطة طائرات الاستطلاع ثم القيام بمهاجمة وتدمير المدرعات الاسرائيلية شرق وغرب الدفرسوار مما أجبر هذه القوات على الاختفاء ثلاثة أيام متوالية.

وفى الوقت الذى كانت فيه قواتنا الجواية تقوم بمهامها الأساسية فقد كانت قاذفاتها المقاتلة رهن إشارة الجيوش الميدانية لتلبية أى مساعدات تطلبها هذه الجيوش إذا ما تعرضت لأى مواقف قد تؤثر على صلابتها وتمسكها بالمواقع الجديدة التى احتلها.

وعندما ركز السلاح الجوى الاسرائيلى على مهاجمة مدنية بورسعيد على أساس أنها منطقة شبه منعزلة، وعندما وصل الهجوم الجوى الاسرائيلى على هذه المدينة الى الحجم الذى يفوق امكانيات وحدات الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات فى هذه المنطقة، استبسلت مقاتلاتنا الاعتراضية فى التصدى للطيران الاسرائيلى عند

طرق اقترابه الى مدينة بورسعيد فخفف بذلك الضغط على هذا القطاع فى فترات شديدة الحرج مما دعم صمود بورسعيد أمام هذا الحجم المكثف من الغارات الجوية.

ولقد وقعت معارك جوية فوق هذا القطاع باعداد هائلة من الطائرات من الجانبين المصرى والاسرائيلى وصلت فى المتوسط إلى أكثر من ٦٠ طائرة فى المعركة الواحدة.. وفى إحداها تمكنت مقاتلاتنا الاعتراضية من إسقاط ٦ طائرات اسرائيلية فى ٥ دقائق.

الهليكوبتر تؤكد مكانتها

لقد أثبتت حرب أكتوبر أن طائرات الهليكوبتر أصبحت حيوية ولا غنى عنها فى المعركة الحديثة، وإلى جانب عمليات الابرار المختلفة وعمليات الامداد بمختلف أنواع الامدادت برا وبحرا، فقد ظهر الهليكوبتر بدور كبير، وجديد عندما وقفت تحارب الدبابت وذلك بعد تزويدها بصواريخ مضادة للدبابات، وأصبحت تشكل حاليا قوة هائلة فيما يسمى «بالاحتياطى الطائر» كذلك فان تزويد الهليكوبتر بالأسلحة المختلفة جعل منها قلعة طائرة قادرة على مهاجمة تجمعات الخصم بكفاءة عالية.

الطيران قريب من الأرض

كذلك تبين من عمليات أكتوبر أن الهجوم على ارتفعات منخفضة هو الحل الوحيد لتتجنب عناصر الدفاع الجوى للخصم المتمركزة فوق سطح الأرض، وبالتالى تفادى الاعتراض، ومفاجأة الخصم فوق أهدافه الحيوية الأمر الذى يساعد على تدمير هذه الأهداف بسهولة، ومن ثم بدا الاهتمام أكثر بوسائل الانذار المحمول جوا مثل طائرات «الاواكس» و «الهوك أى» على أساس أن هذه الطائرات وحدها يمكنها الكشف بسهولة عن الطائرات التى تحلق على ارتفاعات منخفضة على مسافات بعيدة مما يتيح وقتا كافيا لرفع حالات الاستعداد، وملاقاة هذه الطائرات المهاجمة على طرق اقترابها الى الأهداف الحيوية، وتدميرها قبل الوصول الى هذه الأهداف المراد الدفاع عنها.

العقول الاليكترونية

وفيما يختص بعمليات القيادة والسيطرة أظهرت العمليات الجوية فى حرب أكتوبر ضرورة الاعتماد على العقول والحاسبات الالكترونية فى عمليات الكشف والتتبع والتوجيه الملاحى للمقاتلات الاعتراضية ضد طائرات العدو المهاجمة.

كذلك بدأ الاهتمام بعد حرب أكتوبر بالطائرات التى تعمل بدون طيار للعمل كطائرات استطلاع فى الوقت الذى يتم فيه تزويد أنواع منها بمختلف الأسلحة التى تحملها طائرات القتال، وتتجه النية لاستخدام هذا النوع من الطائرات فى استنفاذ شبكة الدفاع الجوى للخصم وتضليلها خاصة وأن هذه الطائرات لديها قدرات هائلة على المناورة التى لا تحد منها الامكانيات البشرية، كما هو الحال فى الطائرات التى يقودها أدميون، أضف الى ذلك أن تخصيص هذا النوع من الطائرات للمهام الانتحارية والخطرة سيوفر كثيرا فى عنصر الطيارين الذى يحتاج تدريبهم الى سنوات طويلة ونفقات ضخمة.

أما بالنسبة لقاذفات القنابل الثقيلة مثل التوبوليف ١٦ التى استخدمناها أيضا فى حرب أكتوبر ـ فقد تبين أن الاستخدام الأمثل لهذه القاذفات هو تزويدها بما يسمى بأسلحة «الاطلاق من البعد» وهى أنواع من الصواريخ جو أرض يتم إطلاقها نحو الهدف من مسافات تصل لأكثر من ١٠٠ كليو متر، وبالتالى تفادى التوغل داخل نطاقات الدفاع للخصم، وهناك إقبال حاليا على شراء صواريخ «اس ـ ٢٠» و «اس ـ ٣٠» الفرنسية، ومن الجيل الحديث من هذه الصواريخ ظهر فى فرنسا صاروخ «مارتل» وهو صاروخ باهظ التكاليف وأعربت كل من الكويت وأبوظبى عن رغبتهما فى شرائه وفى الترسانة الأمريكية هناك الصاروخ «مافريك» الذى استخدمته اسرائيل فى حرب أكتوبر ونجحنا فى ابطال مفعوله «وقد طلبت كل من السعودية وإيران وتركيا وكوريا الجنوبية والسويد شراء هذا الصاروخ الذى يمكن استخدامه بواسطة طائرات الفانتوم ف ٤ «وف ـ ٥سى»

طائرات القتال

متعددة المهام

كذلك أكدت حرب أكتوبر أهمية طائرات القتال المتعددة المهام وهى طائرات يمكنها القيام بالقتال الجوى بجانب قدرتها على مهاجمة الأهداف الأرضية وتتربع حاليا على عرش هذا الطراز من طائرات القتال المقاتلات الأمريكية «ف ـ ١٦» التى تعاقدنا على الحصول عليها وهو قوام قوتنا الجويه الآن بعد سنوات طويله من حظر الأسلحه الغربية ـ وخاصة الهجوميه ـ بالنسبة لمصر.

والغريب إننا طوال الفترة من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٣ كنا نطوف العالم كله للحصول على طائرة قتال هجومية على غرار الفانتوم «ف ـ ٤» الأمريكية، ولم نستطيع الحصول على هذه الطائرة أبدا كما لو كان العالم كله قد اتفق على عدم تزويدنا بهذا السلاح الفعال، ولأنه كان من الضروري جدا أن نحصل على مثل هذه الطائرة فقد اعتمدت الحسابات الاسرائيلية على إننا لن نجرؤ على دخول الحرب ما لم نحصل على طائرة فعالة من هذا النوع، وبالتالى كان هذا من الأسباب الرئيسية لعنصر المفاجأة فى حرب رمضان لاننا دخلنا الحرب بدونها وبعد أن خضنا الحرب وانتصرنا. لأننا نعيش فى عالم يحترم غير الأقوياء المتزنين فقد حصلنا فعلا على الفانتوم «ف ـ ٤» «والميراج ـ ٥» «ف ـ ١٦» والميراج ٢٠٠٠ وكان السبب الرئيسى هو السياسة المتزنة، والبعيدة عن الغوغائية، التى اتبعتها مصر السادات قبل وبعد أكتوبر ١٩٧٣، والتى أرسى قواعدها بشكل قوى ملحوظ الرئيس حسنى مبارك.

وبعد فإن القارىء يستطيع أن يتصور الأبعاد التى يمكن أن تصل إليها برامج التسليح فى منطقة الشرق الأوسط إذا ما استمرت الأخطار وتهديدات الحرب المباشرة كما كانت عليه قبل أكتوبر ١٩٧٣ والتى يمكن أن تستنزف تماما موارد الدول المعنية، أو فى أحسن الأحوال، إبطاء وتبديد مجالات التنمية التى أصبح إنسان الشرق الأوسط فى أمس الحاجه إليها.

صورة إسرائيلية عن شكل الحرب

«حرب التكفير» هو اسم الكتاب الذى ألفه المعلق العسكرى الاسرائيلى الشهير الجنرال حاييم هرتزوج الذى ولد فى ايرلندا وهاجر الى اسرائيل عندما كان طفلا صغيرا، وخدم فى الجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية، ثم شغل منصب مدير المخابرات الحربية الاسرائيلية مرتين، وبعد أن خرج من الخدمة أصبح المعلق العسكرى والسياسى الأول، فى اسرائيل ثم رئيسا لوفد اسرائيل فى الأمم المتحدة. ثم بعد ذلك رئيسا لاسرائيل.

الكتاب من عنوانه

ويجى إسم الكتاب من واقعة معينة حدثت فى الساعات الأولى من «يوم كيبور» هناك فوق هضبة الجولان. هناك كان الليفتنانت كولونيل يائير احد قادة الكتائب المدرعة قد تلقى ليلة ٥ أكتوبر ١٩٧٣، تعليمات بالغاء كافة الاجازات والتصاريح .... فى حين كان قد وصل عنده فى نفس اليوم عدد من جماعة دينية اسرائيلية تسمى «هاياد» وهى طائفة معروفة بنظرتها المتفائلة الى الحياة، ويكرس اعضاؤها أنفسهم للنشاط التبشيرى بين أخوانهم من اليهود.

وقام أعضاء هذه الجماعة بالانضمام الى الجنود داخل التحصينات لتنظيم الصلاة خلال صيام أقدس يوم فى السنة اليهودية: «يوم التكفير»، ولما كان يائير قد شعر بأن هناك شيئا غير عادى سيحدث على الجبهة، فقد توجه الى رجاله متفقدا الوحدات والتحصينات التابعة له، وهناك فوجىء بمدى نجاح أعضاء تلك الجماعة الدينية،

ولدهشته وجد جميع رجاله بما فيهم أولئك الشبان غير المتدينين صائمين ومستغرقين تمام فى الصلاة وكانت صلواتهم حينذاك تقول «يحدد فى رأس السنة العبرية ثم يقرر بصفة نهائية خلال فترة صيام يوم التكفير عدد أولئك الذين سيموتون... وعدد أولئك الذين سيولدون... من سيعيش... ومن سيموت... وهؤلاء الذين انتهت فترة حياتهم المحددة وأولئك الذين لم تنته حياتهم بعد».

كان الكولونيل يائير يستمع الى كلمات هذه الصلاة فى دهشة وتعجب وكان أن أمسك مؤلف الكتاب فيما يبدو بهذه الواقعة، والتى كانت تحمل أكثر من مغزى ومعنى... للحرب الوشيكة بعد ساعات، لتكون عنوان كتابه الذى خرج بعد عامين من انتهاء هذه الحرب.

وكأن القدر قد حدد فعلا أفدح الخسائر التى منيت بها اسرائيل منذ نشأتها.

شخصية السادات نفسها هى بند الخداع الرئيسى:

فى فصل بعنوان «لديهم عيون ولكنهم لا يبصرون» تكلم المؤلف عن الشواهد العديدة التى كانت تجرى على جبهتى القناة والجولان، وتؤكد أن الحرب وشيكة، فقد كانت وحدات كثيرة تتحرك على الجبهتين، فى حين كان توزيع القوات نفسه يثير الى أنها فى طريقها الى شن هجوم مسلح، وخاصة بعد وصول معدات العبور الى جبهة القناة، وأكثر من هذا فان مؤلف الكتاب يقول أن الرئيس السادات عقد اجتماعا فى القاهرة مع ياسر عرفات وقادة منظمة تحرير فلسطين خلال شهر أغسطس ١٩٧٣، وأفضى اليهم خلال هذا الاجتماع بأنه قد قرر دخول الحرب، وسألهم عن الدور الذى سيقومون به، وأقترح عليهم أن يمدوه بقوات العمل على جبهة القناة، ولم يأخذ الزعماء الفلسطينيون هذا القرار بالجدية، فقد كان الرئيس السادات لسنوات عديدة يتكلم عن قرب وقوع الحرب، ومع ذلك لم يحدث شيء.

وعندما عاد هؤلاء الزعماء الى بيروت عقدوا اجتماعا طارئا للجنة المركزية لمنظمة تحرير فلسطين وناقشوا قرار السادات على مدى ٩ ساعات كاملة وقد تم ابلاغ الحاضرين بأن الهدف النهائى للسادات هو توليد ضغط أمريكى على اسرائيل، وعلى الفور تسربت أنباء اجتماع السادات مع القادة الفلسطينيين الى مقاهى بيروت وأصبحت

مثار للتعليقات الفكاهية والتشكك، وفى الصباح يوم ٢١ سبتمبر نشرت صحيفة النهار البيروتية أنباء هذا الاجتماع بين السادات والزعماء الفلسطينيين، والتقطت وكالة الاسوشيتيد برس الأمريكية هذا النبأ وقامت بتوزيعه على جميع أنحاء العالم!

وكان موقف السادات نادرا، ربما كان أول زعيم فى العالم ينوى الدخول الى معركة وأعلن نواياه بوضوح الى العالم أجمع وجميع الأطراف المعنية. لا أحد فعل مثلما فعل السادات قبل حرب أكتوبر، ويستند الحديث الذى أدلى به الرئيس السادات الى الصحفى الأمريكى أرنولد دى بورجراف، يوم ٩ ابريل ١٩٧٣، ونشرته مجلة نيوزويك الأمريكية، وقال فيه بالحرف الواحد: أنتم يامعشر الأمريكيين تستخدمون الحاسبات الاليكترونية دائما فى حل المعادلات الجغرافية والسياسية، وهى دائما تضللكم، وأنتم ببساطة تنسون تغذية هذه الحاسبات بالسيكولوجية المصرية، لقد حان الوقت الان لاتخاذ قرار.. لقد حان الوقت لحدوث صدمة.. أن الدبلوماسية ستستمر قبل، وخلال وبعد المعركة... لقد تم تعبئة كل شىء فى هذا البلد لاستئناف القتال الذى أصبح الآن أمر محتوما.

وعاد بورجراف الى واشنطن ليروى القصة لعدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب هناك، والى المسئولين فى وزارة الخارجية الأمريكية ولم يكن أحد منهم مستعدا لتصديقه فقد أتفق الجميع على أن السادات «يهوش» وذلك فيما عدا الدكتور هنرى كيسنجر الذى أخذ نوايا السادات على محمل الجد وقال:

أنا أيضا أتوقع حدوث شىء يمكن أن يكون خطيرا جدا....

خطة ٥٠ قاذفة لضرب شرم الشيخ:

أما بالنسبة للمخابرات الاسرائيلية فقد «لاحظت أنه تم التصعيد فى مصر والاستعداد للقتال وإعلان التعبئة الكاملة وحالة الطوارىء القصوى ٤ مرات وفى كل مرة كانت اسرائيل تقيم الاستعدادات وتحرك قواتها بما يتفق مع خطة الدفاع عن سيناء، وقد جرى التصعيد الأول فى مُصر نهاية عام ١٩٧١ (عام الحسم) وخطط المصريون للهجوم على شرم الشيخ بـ ٥٠ قاذفة قنابل ثم ألغى السادات تنفيذ هذه الخطة بسبب اندلاع الحرب بين الهند وباكستان رغم أن التعبئة والاستعداد للحرب فى مصر كانت كاملة.

وبعد ذلك بعام، قام المصريون فى ديسمبر ١٩٧٢ ، بتعبئة أخرى كاملة واستعدوا للقتال وخططوا حينذاك لواء من المظليين فى قلب سيناء والتمسك بالمنطقة التى يهبطون فيها حتى تجتمع الأمم المتحدة، وخلال هذه المرة أيضا تم تغطية الخطة تحت ستار أجراء مناورة ضخمة بين القوات المصرية، وكان الاستعداد للقتال كاملا فى مصر بما فى ذلك تحرك معدات العبور الى القناة السويس، أما التصعيد الثالث من هذا النوع فقد جرى خلال شهرى ابريل ومايو ١٩٧٣ ، بنفس الاسلوب وبنفس الدرجة.

ثم جاء التصعيد الرابع فى نهاية سبتمبر وأوائل أكتوبر ١٩٧٣ ، وكانت الاجراءات مماثلة تماما للإجراءات السابقة، وعندئذ كونت اسرائيل من تجاربها السابقة صورة معينة للرئيس السادات تقوم على أساس أنه يذهب فى استعدادته للحرب إلى أخر الحدود.. إلى حافة الهاوية... وعندئذ يعود مرة أخرى أدراجه... ولما كانت تعبئة القوات الاسرائيلية تتكلف مبالغ طائلة فإنهم وبناء على هذه الفكرة الخاطئة عن شخصية السادات، أعتقدوا أن الأمر سيمر مثل المحاولات الثلاث السابقة واعتقدوا أنها مناورات أخرى تجريها القوات المصرية وسرعان ما تنتهى،ثم مالوا إلى ابتلاع وسائل الخداع الأخرى التى ألقتها إليهم القيادة المصرية، وأصبحوا بذلك يرون ولايبصرون... يرون بأعينهم ولايصدقون مايرونه!!...

الميج ٢٣ التى ساعدتنا مع أنها لم تكن بين أيدينا:

ومن الاخطاء الاسرائيلية التى ساعدت ـ كما يقول هرتزوج ـ على تحقيق المفاجأة، هى أن القيادة الاسرائيلية كونت لنفسها انطباعا مؤداه أننا لن ندخل الحرب مالم يمدنا الاتحاد السوفيتى بقاذفات أو مقاتلات قاذفة متقدمة مثل الميج ـ ٢٣ القادرة على تهديد المراكز السكنية فى اسرائيل وقواعدها الجوية، وبناء على تقدير المخابرات الاسرائيلية فإن المصريين لن يحصلوا على مثل هذه الطائرات قبل عام ١٩٧٥ ، (وهذا ما حدث بالفعل) ومع ذلك فإن الرئيس المصرى السادات قرر أنه لن يستطيع الانتظار إلى هذا التاريخ، واستغنى عن ذلك بالصواريخ أرض أرض من طراز «سكود» و «لونا» التى نجح المشير أحمد اسماعيل فى الحصول عليها من الاتحاد السوفيتى خلال زيارته هناك فى مارس ١٩٧٣ ، ووصلت طلائع هذه الصواريخ إلى مصر خلال شهر أبريل ١٩٧٣ ، وهو الشهر الذى قرر فيه السادات دخول الحرب معتمدا على قوة الردع لهذه الصواريخ كبديل عن الطائرات الحديثة.

،كذلك فإنه فى نفس الاطار عمل المصريون على تطوير شبكة دفاعهم الجوى بحيث تصبح قادرة على تحييد طائرات السلاح الجوى الاسرائيلى، واعتمدوا فى ذلك على عناصر الدفاع الجوى الأرضية دون ما حاجة إلى الطائرات الحديثة التى أعتقد الاسرائيليون أننا لن نجرؤ على دخول الحرب بدونها، ومن ثم كان عدم وصولها بمثابة بند آخر للخداع ساعد على تحقيق المفاجأة يوم ٦ أكتوبر.

بروفة اسرائيلية للهجوم المصرى:

ومن الغريب - كما يقول المؤلف - أنه فى عام ١٩٦٨، قامت القوات الاسرائيلية باجراء «مباريات حربية» (مناورات يمثل فيها الصديق والخصم) وتم اختيار الميجور جنرال «يشياعو جافتش» لقيادة القوات الاسرائيلية فى هذه المباريات على جبهة سيناء، بينما تم اختيار الميجور جنرال موردخاى جور - الذى عين رئيسا لأركان القوات الاسرائيلية بعد حرب أكتوبر للقيام بدور قائد القوات المصرية التى ستهاجم جبهة القناة إلى سيناء، وفى هذه المباريات الشبيهة بما سيجرى فى الحرب الحقيقية بدأ جور يقود قواته كما لو كانت قد عبرت من الضفة الغربية للقناة، ومتقدما على جميع المحاور بنفس الاسلوب الذى تقدمت به القوات المصرية خلال حرب أكتوبر، بل أنه قام بارسال قوات محمولة جوا بواسطة الهليكوبتر إلى أعماق سيناء خلف الخطوط الاسرائيلية. وبالضبط كما فعل الكوماندوز المصريون بالهليكوبتر بعد ذلك بخمس سنوات.

ومنذ ذلك الحين قامت القوات الاسرائيلية بتطوير دفاعاتها على جبهة سيناء بما يتناسب مع مفهوم هذه الخطة المصرية، وتم بناء خط بارليف وتحصيناته ليلائم الدفاع ضد هذا النمط من الهجوم المصرى المتوقع، ومع ذلك نجحت قوات مصر فى اقتحام قناة السويس رغم خطة الدفاع الاسرائيلية عن سيناء التى كانت تعتمد على أسس ثلاثة:

١ - توفير وقت كاف يسمح بتعبئة قوات الاحتياط وإرسالها إلى الخطوط الأمامية.

٢ - توفير وإنذار مبكر للقوات الاسرائيلية عن الهجوم المتوقع.

٣ - قدرة القوات العاملة المتركزة على الخطوط الأمامية على الصمود وصد الهجوم إلى أن تصل إليها قوات الاحتياطى.

خطتا الدفاع.. والثغرة لدى المخابرات المصرية:

ويشيد الكاتب بكفاءة جهاز المخابرات الحربية المصرى وتطوره بعد حرب يونيو ١٩٦٧، وهو يستشهد على ذلك بأن خطة الدفاع الاسرائيلية هذه قد أمكن للمخابرات المصرية أن تحصل عليها بل أن الخطة الاسرائيلية لعبور القناة بواسطة فرقة الجنرال شارون والتى تم اعدادها فى مايو ١٩٧٣، هذه الخطة ـ ثبت أن المخابرات الحربية المصرية استطاعت أن تحصل عليها وتوقعت بذلك عبورا اسرائيليا عند منطقة الدفرسوار، وتم تحصين هذه المنطقة بكثافة ضخمة من القوات المصرية.

أكثر من هذا كله نجحت المخابرات المصرية فى الحصول على «الخريطة الكودية» ـ خريطة بالشفرة السرية، لسيناء بما فى ذلك منطقة القناة والضفة الغربية، وكانت القيادة الاسرائيلية قد طبعت ٩ نسخ من هذه الخريطة خلال عام ١٩٧٣، ووضحت عليها جميع الأسماء السرية لشبكة الاتصالات الاسرائيلية، وقام المصريون بترجمة ذلك كله إلى اللغة العربية، مما يؤكد أن خطة تأمين وسائل الاتصال والاشارة الاسرائيلية كانت فاشلة تماما خلال حرب أكتوبر الامر الذى أدى إلى عديد من «الأخطاء المأساوية»

برئ من دم مندلر:

كان أحد «الأخطاء المأساوية» التى أشار إليها هرتزوج هى واقعة مصرع الميجور جنرال «البرت مندلر» قائد الفرقة المدرعة المواجهة لقطاع الجيش الثالث، وتتلخص هذه القصة فى أن الصراع كان حادا منذ بداية الحرب بين الجنرال جونين قائد جبهة سيناء وبين الجنرال أريك شارون قائد الفرقة الاسرائيلية العاملة فى القطاع الأوسط الذى كان يخالف الأوامر بصفة مستديمة ويتهرب من الحديث مع جونين.

ولما كان الموقف حرجا فقد استقل جونين طائرة هليكوبتر يصحبه ـ الجنرال عازر وايزمان، القائد السابق لسلاح الطيران الاسرائيلى، متجها إلى مقر قيادة شارون لمناقشته شخصيا، وفى الطريق تحدث جونين باللاسلكى مع الجنرال مندلر الذى أبلغه بأنه ليس سعيدا بالمعركة التى خاضتها قواته صباح ذلك اليوم فى غربى ممر الجدى، فرد عليه جونين قائلا أنه سيزوره فى مقر قيادته بعد أن ينتهى مع شارون وسأله عن

المكان الذى يمكن أن يقابله فيه، وهنا أعطاه مندلر الاسم سؤالا آخر فلم يرد مندلر عليه وعندئذ نظر جونين إلى رفيقه فى الطائرة الجنرال وايزمان وقال له: وايزمان.. أن منذلر لقى مصرعه، فرد عليه زميله قائلا: أى هراء هذا الذى تقوله أيها الجحش».

فاستطرد جونين قائلا: «طالما أن مندلر لايرد فى جهاز اللاسلكى فليس هناك تبرير آخر سوى أنه لقى حتفه».

وبعد ذلك حاول اللاسلكى اعادة الاتصال دون فائدة ولما وصل جونين ووايزمان إلى مقر قيادة شارون، كان فى انتظار جونين رسالة من نائبه يبلغه فيها أن مندلر لقى مصرعه بنيران المصريين.

والتفسير الوحيد لذلك أن المصريين كانوا يتصنتون على المحادثات اللاسلكية للاسرائيليين وبفضل الخريطة السرية الاسرائيلية لسيناء التى حصلت عليها المخابرات المصرية كما قلنا من قبل فقد كانوا يستطيعون تفسير كل شيء.. وقد التقطوا الحديث بين جونين ومندلر ولما حدد الأخير موقعه وجهوا إليه نيران المدفعية المصرية فى قصفة دقيقة أودت بحياته. وقد سرى هذا الانطباع، بين القادة الاسرائيليين واتجهت أصابع الاتهام إلى جونين.. فاضطر - متهورا - بعد ذلك بيومين إلى الاعلان عن موقعه عبر جهاز اللاسلكى وانتظر عدة دقائق بعدها ليثبت لمن معه أنه برئ من دماء زميله مندلر!

تليفونات الفجر لقائد المخابرات الحربية الاسرائيلية:

لقد كان ضباب الخداع يسود جبهات القتال قبل نشوب الحرب وكانت القيادة الاسرائيلية حائرة بين الاستعدادات العربية التى يرونها بأعينهم وبين الأفكار والمفهومات التى التصقت فى أذهانهم!

وفى الساعة الرابعة صباحا من يوم السادس من أكتوبر رن جرس التليفون فى منزل الجنرال زئيرا قائد المخابرات الحربية الاسرائيلية، واستمع زئيرا إلى «صوت محدثه» ثم وضع السماعة ليطلب بعد ذلك ثلاث مكالمات بالترتيب التالى: الجنرال ديان وزير الدفاع ثم الجنرال دافيد اليعازر رئيس الاركان ثم الجنرال اسرائيل طال نائب رئيس الاركان.

وخلال نصف ساعة من هذه المكالمات كان الجميع فى مقر القيادة العامة الاسرائيلية ـ وقد أيقنوا تماما ـ بناء على تلك المكالمة ـ أن الهجوم المصرى ـ السورى سيتم فى الساعة السادسة من مساء السادس من أكتوبر!

١٠٥٠٠ قنبلة مصرية فى الدقيقة... الأولى:

لكن الحرب بدأت فى الساعة الثانية ظهرا، وكانت البداية مذهلة على الجبهة المصرية.. قصف جوى من الطائرات المصرية، غلالة هائلة من نيران المدافع المصرية، التى غطت جميع مواقع الجبهة الاسرائيلية بمدى وكثافة لم يروها من قبل.

وخلال الدقيقة الأولى من الحرب سقطت فوق المواقع الاسرائيلية فى سيناء ١٠٥٠٠ دانة مدفعية بمعدل ١٧٥ دانة فى الثانية الواحدة.

وعندما بدأ بعض رجال المدرعات الاسرائيلية التقدم صوب خط بارليف، والبعض الآخر يهم بركوب مدرعاته والبعض الثالث يهرع إلى المواقع التى سيتركزون فيها حسب الخطة وجد الجميع فى انتظارهم غلالة من قذائف «آر. بى. جى» المضادة للدبابات والتى يحملها جنود المشاة المصريون ـ بجانب نيران الدبابات والصواريخ ساجر المضادة للدبابات التى كان يطلقها المصريون من فوق ساترهم الترابى على الضفة الغربية من القناة.

ويصف الجنرال الاسرائيلى آمون هذا المنظر قائلا: «لقد اشتعلت كل سيناء بالنيران» وكان أن لاقت وحدات المدرعات الاسرائيلية أولى خسائرها على يد جنود المشاة المصريين الذين حاربوا بعناد هائل واستمرت موجاتهم فى التقدم.

أما عن الهجوم الاسرائيلى المضاد الذى كانوا جاهزين له، حسب المعلومات التى توفرت لديهم، فقد تقدمت القوات الاسرائيلية المكلفة بهذه المهمة من الشمال إلى الجنوب تحت وابل هائل من نيران المدفعية المصرية ثم اشتبكوا مع وحدات الفرقة الـ ١٨ المصرية، وبانتهاء يوم الثامن من أكتوبر تنبه القائد «برن» إلى أن الألوية التابعة له والمكلفة بالهجوم المضاد، كانت فعلا تتحرك حسب التعليمات من اتجاه الشمال إلى الجنوب ولكنها كانت متوغلة فى اتجاه الشرق وبعيدا عن القوات المصرية، ونتيجة لهذا الخطأ، الذى لم يتم تصحيحه فى الوقت المناسب، فإنه بدلا من اكتساح الجناح

الشمالى لرؤوس الشواطئ المصرية، فإن الفرقة التى يقودها، «برن» كانت تتحرك صوب واجهة رؤوس الشواطئ هذه ، وبالتالى فإنه عند شن هذا الهجوم أخيرا أصبح اتجاهه من الشرق إلى الغرب مباشرة، (بدلا من الشمال إلى الجنوب) وصوب مواقع المصريين مباشرة.

انشقت الأرض عن حملة الصواريخ:

كذلك كانت المقاومة الجوية الاسرائيلية محدودة وانخفض عدد الهجمات الجوية الاسرائيلية.

وفى ظهر هذا اليوم وصلت قوات «جابى» إلى قرب القناة واشتبكت معها المدرعات والصواريخ المضادة للدبابات المصرية المتمركزة فوق السد الترابى على الضفة الغربية من القناة، وقامت كتيبة الجناح الأيسر لهذه القوات بمهاجمة طريق الفردان، وكادت تصل إلى السد الترابى الاسرائيلى على الضفة الشرقية وعندئذ انشقت الكثبان الرملية المحيطة بهذه القوات، وخرج منها مئات المشاه المصريين يطلقون نيران أسلحتهم المضادة للدبابات من على مسافات قريبة من المدرعات الاسرائيلية فاشعلوا ١٢ دبابة منها وأصابوا قائد الكتيبة نفسه ثم أجبروا باقى دبابات الكتيبة على الانسحاب.

فى هذه الاثناء أصدر القائد «برن» أوامره إلى كتيبتين أخريين لنجدة الكتيبة التى دمرها المشاة المصريون، وعندما وصلت هاتان الكتيبتان إلى الطريق الموازى شمالا لطريق الفردان وبدأ هجومهم، سار كل شىء فى الاتجاه الخاطئ!

لقد وجدوا أنفسهم على بعد ٨٠٠ ياردة من القناة يحاصرهم آلاف من جنود المشاة المصريين الذين استطاعوا أن يدمروا لهم ١٨ دبابة بجانب تدمير دبابة الليفتنانت كولونيل عساف ياجورى قائد هذا التشكيل.

لن يبقى أحد يجيب على أسئلتك!

ونظر القائد الاسرائيلى «ناتك» نظر حوله فوجد الدبابات تنفجر على يمينه ويساره، والدخان يملأ المنطقة كلها، وقد أقنعه ما رآه أنه من الضرورى أن ينسحب.... فلم يبق معه من القوة التى كان يقودها غير ٤ دبابات قادرة على الانسحاب من هذا الجحيم!

وأثناء انسحابه اتصل به قائد الفرقة «برن» بواسطة جهاز اللاسلكى، وخاطبه قائلا: «ماذا حدث؟ لماذا تنسحب؟» فأجاب عليه نائتك قائلا: «إذا استمريت فى توجيه الاسئلة إلى فإنه خلال دقائق قليلة لن يبقى منا أحد ليجاوب عليك».

ثغره.. فى قلب الجحيم!

فى الحرب الحديثة فإن المسألة فى النهاية ليست بضعة كيلومترات هنا، أو بضعة كيلومترات هناك، طالما أن الأمر يتعلق بالقتال، وفنونه والاصرار عليه... وقد حدث هذا من جانبنا الأمر الذى جعل القوات الاسرائيلية تقع، على حد تعبير الكاتب - فى أكبر خطأ يقع فيه الطرف المحارب وذلك عندما أعجبوا ببسالة وكفاءة المصريين وبدأ هذا الاعجاب والاحترام يتزايد مع تطور عمليات القتال تماما كما حدث فى جنود الحلفاء نحو القائد الألمانى الشهير اروينى رومل.

وفى عملية الثغرة استخدمت القيادة المصرية كل ما تملك من أسلحة ورجال: المشاة، المدفعية، المظلات، الصاعقة، الطيران بكافة أنواعه، الصواريخ أرض - أرض - حتى الصواريخ المضادة للطائرات أطلقها رجال الدفاع الجوى فى مسار أفقى لضرب أهداف العدو البرية!

ويسرد المؤلف تطور هذه العملية، التى اشتركت فيها ٣ فرق اسرائيلية واحدة بقيادة شارون والثانية بقيادة «ماجن» والثالثة بقيادة «برن»، وكلما رصدت المدفعية المصرية مكان هذه القوات المهاجمة كانت تصب عليها نيرانا مكثفة جعلت من طريق تقدمهم جحيما لا يطاق، واستطاعت أكثر من مرة أن تحطم كبارى العبور قبل تركيبها.

أما المشاة المسلحون بالقذائف والصواريخ المضادة للدبابات فكانت الأرض تنشق عنهم فى كل مكان، ولم يتركوا الدبابات الاسرائيلية تعبر إلا بعد أن تفيض أرواحهم، وبعد أن يدمروا أكبر عدد ممكن منها كذلك كان الحال مع رجال الصاعقة. ويحكى لنا الكتاب أن القائد الاسرائيلى «آمون» وقف عند منطقة أبو سلطان يشاهد معركة بين سرية مدرعة اسرائيلية (تابعة لكتيبة تعتبر صفوة الوحدات الاسرائيلية) وبين فصيلة من رجال الصاعقة المصريين، وكان القائد الاسرائيلى يراقب «باعجاب بالغ» القتال العنيد الباسل الذى أظهره هؤلاء الرجال المصريون. ومع أن آمون قدم معاونة

بمدرعاته وعرباته النصف مجنزرة إلى السرية الاسرائيلية المهاجمة... إلا أن المصريين ظلوا يقاتلون حتى استشهدوا جميعا فيما عدا رجلا واحدا.

لم يلق هذا الرجل سلاحه أمام الجحافل المتقدمة، لكنه بدلا من ذلك قفز إلى أعلى التل الذى كان يدافع عنه هو وزملاؤه وظل يطلق نيرانه على الاسرائيليين حتى سقط شهيدا على قمة هذا التل».

ولما كان القائد الاسرائيلى يعلم أن وراء هذا الموقع قوات أخرى مماثلة، ولما كان قد «شاهد بنفسه كفاءة هذه القوات» فلم يستطع أن يتقدم إلا بعد إمداده بقوات إضافية من المظلات (صفوة المقاتلين هناك) ويقول الكاتب أن أى مصرى أصيب فى هذه المنطقة «كان يعتبر دليلا حيا على الاصرار المتناهى والشجاعة الهائلة التى بذلها هؤلاء الرجال».

طلعات هليكوبتر انتحارية فوق معابر الثغرة:

ويعترف الكاتب بأن الطابع الرئيسى فى عملية الثغرة هو المصادفة والمخاطرة ويشرح لنا كيف أن القوات المصرية استطاعت أكثر من مرة أن تثبت القوات الاسرائيلية المشتركة فى هذه العملية شرق القناة، وعندما أراد ـ الاسرائيليون انزال معدات العبور إلى الماء، كان يتقدمهم رجال المظلات لفتح الطريق لهم، ورغم أن المظلات هى صفوة المقاتلين هناك فإن رجال المشاة المصريين استطاعوا أن يثبتوا هؤلاء المظليين الاسرائيليين فى مكانهم ودون أن يسمحوا لهم بالتقدم خطوة واحدة.

واستطرادا فى «المصادفات» فإن القائد الاسرائيلى سمح لمعدات العبور بالتقدم بعيدا عن مكان اشتباك المصريين مع الاسرائيليين، واستطاعوا أن يقيموا كوبريا عائما عبر القناة لم ترحمه المدفعية المصرية لحظة واحدة وقد لقى مصرعه الليفتنانت كولونيل جونى ثان، كبير المهندسين المختصين ببناء هذا الكوبرى، وذلك قبل وصوله إلى مياه القناة، وبعد بناء هذا الكوبرى العائم تمكن المصريون من تدمير أجزاء منه، وتركز الهجوم عليه بكافة الاسلحة حتى الهليكوبتر المصرية خرجت فى طلعات انتحارية تريد اشعاله ـ حسب كلمات الكاتب ـ بقنابل النابالم.

وباختصار فإن المسألة لم تقتصر على وحدات أو جماعات صغيرة من رجالنا المصريين الذين حاربوا ببسالة منقطعة النظير فى هذه المنطقة، بل أن الكاتب يروى لنا أن كافة قواتنا المسلحة، بما فيها وحدات من الجيش الثالث الميدانى التى كانت مرابضة شرقى القناة، اشتركت فى قتال مرير وبعنف لم تشهده معركة من قبل الأمر الذى كبدالاسرائيليين خسائر هائلة فى الأرواح والمعدات.

ديان: انسحبوا فورا سيذبحكم المصريون:

ولقد استطاعت الموجة الأولى من القوات الاسرائيلية أن تعبر القناة فى الساعة ١,٣٥ ظهر يوم ٦ أكتوبر، وقبل ذلك بلحظات كانت القوات المصرية شرقى القناة تبذل مجهودات مستميتة لاغلاق الممر أو الثغرة عبر قوات الجيشين الثانى والثالث، والتى اختارها الاسرائيليون لبناء رأس الشاطئ الوحيد لهم، ولما كان صفوة المقاتلين الاسرائيليين يقاتلون هناك فى «صراع مرير» ادركت ابعاده القيادة الجنوبية الاسرائيلية، فإن موشى ديان، وزير الدفاع الاسرائيلى، الذى كان موجودا فى تلك القيادة خلال ذلك الوقت، أقترح انسحاب قوات المظلات الاسرائيلية قائلا: لقد حاولنا ولكننا لم نستطع ثم اقترح التخلى عن فكرة العبور إلى الضفة الغربية قائلا: «فى الصباح سيقوم المصريون بذبح المظليين الاسرائيليين على الضفة الغربية، فرد عليه الجنرال جونين قائلا: «لوكنا عرفنا ذلك من قبل لما كنا فكرنا أولا فى هذه العملية، ولكننا الان فى وسط الطريق وسنستمر حتى النهاية الأليمة».

معركة السويس:

وجاء وقف اطلاق النيران واستمر «ماجن» و «برن» بوحداتهما فى التقدم جنوبا. (جدير بالذكر هنا أن شارون لم يغادر منطقة الدفرسوار).

واستأذن «برن» من ديان أن يدخل مدينة السويس، ورد جونين قائلا: نعم اذا كانت خالية.. أما اذا كان المصريون يدافعون عنها بقوة «فلا تدخل».

وتقدم الاسرائيليون بدباباتهم ومظليهم إلى مدينة السويس (ومن بين ٢٤ دبابة متقدمة استطاع المصريون اقتناص ٢٢ من قادة هذه الدبابات) وانهالت النيران عليهم من كل جانب كما لو كان الجحيم قد فتح أفواهه عليهم، وانحصر المظليون على

مشارف المدينة بجرحاهم وقتلاهم، رغم أن القيادة ـ الاسرائيلية كانت قد مهدت لهم بنيران كثيفة من المدفعية ظنوا بعدها أنهم أخمدوا كل مقاومة فيها!

وخرج سلاح الطيران الاسرائيلى يحاول أن يفعل شيئا من أجل هؤلاء الاسرائيليين المحاصرين، ولكنه لم يستطع أن يقدم لهم عونا، وباءت كل محاولة لانقاذهم بالفشل.. بل ونزلت خسائر هائلة بالقوات المتقدمة لنجدتهم.

صندوق النيران لانقاذهم فى السويس:

وكان اثنان من قادة الكتائب الاسرائيلية قد اصيبا على مشارف السويس، منهم الكولونيل يوسى الذى قاد العملية بأكملها، وقد تولى القيادة بعده أحد قادة السرايا الذى رفض الانسحاب لأن المصريين يحاصرونه فى مبنى مجاور.

وأخذ جونين يقنعه ٤ ساعات كاملة بأن ينسحب هو ومن معه مخترقا طريقه إلى الحرية، وأخيرا استطاع جونين أن يتعرف من بعض الصور الجوية التى طلبها على عجل من طائرات الاستكشاف على مكان جنوده المحاصرين بالضبط، وقام بنفسه بتجهيز شبه «صندوق» كامل الاضلاع من نيران مدفعيته... وأحاط به القوة الاسرائيلية من جميع الجوانب، معطيا لها التعليمات بنفسه عبر جهاز اللاسلكى حتى قادها خارج مدينة الجحيم.

وعندما وصل موشى ديان إلى منطقة الدفرسوار وقف بجانب الجنرال شارون وتفقد بعينه المسرح الذى دارت فيه معركة الثغرة ، وبعد أن شاهد بنفسه كمية الخسائر والدمار، «الذى يقف كدليل حى على المعركة التى بلغت قسوتها ومرارتها حدا لا يصدق» ارتابه الذعر، وعندئذ نظر إليه أمون مرددا عبارة صادقة عن العملية بأسرها قائلا له: «انظر إلى وادى الموت هذا».... ولم يرد ديان!

النكت.. والعقلية الإسرائيلية!

فى الفصل الثالث والعشرين من سفر «اللاوية» (كتاب مقدس فى الديانة اليهودية) نجد الفقرة التالية:

«وتحدث الله إلى موسى قائلا: كذلك فإنه فى اليوم العاشر من هذا الشهر السابع، سيكون هناك يوما للتكفير، يوما للاجتماع المقدس لكم، يوما ترجعون فيه أفئدتكم وأرواحكم، وتقدمون خلاله إلى المولى قربانا يصنع بالنار. وفى هذا اليوم بالذات لن تباشروا أى عمل: لأنه سيكون يوم التكفير لكم أمام المولى ربكم وأن أى روح تنجو من الحزن والأسى فى هذا اليوم، فإن صاحبها يجب أن يقطع تماما من بين قومه».

لقد كان يوم كيبور، خلال الـ ٢٥٠٠ عاما الماضية، هو أقدس أيام اليهود المقدسة، وكان يوما جليلا بالنسبة لهم يصوم فيه الجميع. وفى إسرائيل فإنه ابتداء من ظهر ليلة «يوم كيبور» (حوالى الساعة الثانية ظهرا) يتوقف كل شئ عن الحياة: يقوم اليهود باغلاق محلاتهم، ومصانعهم، ومكاتبهم ويتم إغلاق المدارس، ثم يهرع كل فرد عائدا إلى بيته ليعد نفسه بدنيا وروحيا لهذا اليوم المقدس الذى سيقبل عليه، والذى سيستمر حوالى ٢٥ ساعة تبدأ من قبل غروب الشمس فى اليوم السابق «ليوم كيبور»، حتى غروب الشمس فى اليوم التالى (يوم كيبور نفسه). وخلال هذه الفترة لايتناول اليهودى أى نوع من الطعام أو الشراب، ولايدهن نفسه بأى نوع من المراهم أو العطور، ولايستحم إذا ماكان الاستحمام بغرض المتعة الجسدية، وهى متعة تحرم بكل

أنواعها فى هذا اليوم.. حتى ارتداء الأحذية يعتبر حراما، ويرتدى المتزمتون عباءة بيضاء وهى نفسها «الكفن» الذى سيدفنون به عند مماتهم.

فى هذا اليوم الذى تصادف وقوعه يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وفى حوالى الثانية عشر ظهرا تمزق فجأة هذا الهدوء، الذى كان يسود إسرائيل على أثر انطلاق صفارات الانذار من الغارات الجوية. كان الانذار واضحا لايمكن أن يخطئه أحد..

وبعد لحظات من انطلاق صفارات الانذار، كانت كل موجات الإذاعة الإسرائيلية تذيع على الهواء مباشرة، وبفاصل ١٥ دقيقة بين كل نشرة أخبار والأخرى، بيانا واحدا مقتضبا يقول: «فى الساعة الثانية وعشر دقائق قامت جيوش مصر وسوريا بشن هجوم على قواتنا المحتشدة على الحدود» وخلال كل ١٥ دقيقة فاصلة بين هذه النشرات، كانت الإذاعة الإسرائيلية تذيع مقتطفات موسيقية تتخللها صوت المذيع الذى أخذ ينادى بعبارات غريبة مثل: «المرأة الفاتنة» و «الخيار» و «قطعتين من خيط الصوف»... كلمات كانت تبدو بلا معنى، فى الحقيقة عبارة عن «نداءات كودية» يتم بواسطتها استدعاء القوات الاحتياطية الإسرائيلية إلى مواقع تجمع معينة.

لقد استمرت الطقوس الدينية فى المعابد، ولكن هنا وهناك كان يتم استدعاء الرجال بطريقة أو أخرى.. تم استدعاء البعض بواسطة رسل وسعاة، والبعض الآخر بواسطة بعض جنود الجيش. وفى بعض المعابد كان الحاخام نفسه ينادى على أسماء الجنود الموجودين فى المعبد ويطلب منهم المغادرة وتسليم أنفسهم فورا إلى وحداتهم، وقد خرج هؤلاء من المعابد وهم مازالوا يرتدون «عباءات الصلاة» أو العباءات البيضاء التى سيذهبون بها إلى الموت..

وفى حوالى الساعة السادسة من مساء هذا اليوم - أى بعد دقائق من انقضاء الفترة الزمنية ليوم كيبور - ظهرت جولدا مائير رئيسةوزراء إسرائيل على شاشة التليفزيون وخاطبت أبناء الأمة القلقة قائلة: «لأن الأنباء كانت محزنة للغاية فقد اضطررت إلى عقد اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلى فى يوم كيبور»!!.

وخلال ساعات معدودة كانت الأمة بأسرها قد أصيبت بصدمة كبيرة.

لقد وضح أن مصر قامت فى حماية هذه الشبكة المرعبة من صواريخ «سام»

المضادة للطائرات، بالقاء الجسور عبر قناة السويس، والتقدم بقواتها خلال مواقع خط بارليف، كذلك كان السوريون يضربون فى الجبهة الشمالية.. عندئذ أدرك كل إسرائيلى أنه يحارب من أجل البقاء.. من أجل البقاء فقط وليس من أجل عدة أفدنة من الرمال الضائعة، أو من أجل تلك الجمل والعبارات الجوفاء المدفونة بين سطور مستندات ووثائق تعصف بها الرياح، أو من أجل ضمانات شفوية يمكن انتهاكها.

وجاءت أنباء اليوم الأول من القتال رهيبة للغاية. فقد عرف الشعب الإسرائيلى أن المصريين اقتحموا خط بارليف على طول قناة السويس، وأن القوات المصرية ابتلعت مئات من الجنود الإسرائيليين خلال هذا الهجوم المفاجئ.

أما على الجبهة الشمالية فكانت الأنباء سيئة هى الأخرى، فقد تقدم السوريون خلال الجولان العليا مكتسحين خطوط الدفاع الإسرائيلية هناك، وكانت النشرات والبيانات التى تذيعها الإذاعة الإسرائيلية كئيبة ومحزنة حقا وبلا أدنى شك، وكان أقصى ما يأمله أى إسرائيلى هو أن يتمكن «جيش الدفاع الإسرائيلى» أن يحول «المد» بالنسبة لاتجاه المعركة عندما يتم تعبئة هذه القوات على الوجه الأكمل.

وفى هذه الأثناء لم تكن هناك عائلة واحدة فى إسرائيل استطاعت أن تنجو من مشاعر القلق العميق. لقد استطاعت هذه الحرب أن تمس كيان كل إسرائيلى، فقد كان لكل منهم له أبنا، أو أخا، أو أبا، أو حبيبا، أو فى أحسن الظروف، صديقا يعرفه ويحبه ــ كل هؤلاء ابتلعهم الهجوم العربى فى يوم كيبور، وفى كل لحظة كان الجميع يشعرون أن هناك عزيزا لديهم يجابه خطر الموت، وكان الجميع ينتظرون بهلع وفزع هائل قوائم أسماء الذين قتلوا فى ميدان المعركة.

مفاهيم جديدة

ومنذ اللحظة الأولى من بداية حرب أكتوبر، أدرك الإسرائيليون أن الحرب بالنسبة لهم هذه المرة لن تكون «رحلة ٦ أيام» كالحرب السابقة، فقد أعد العرب أنفسهم طويلا لهذه الحرب، واستطاعوا أن يعدوا أنفسهم جيدا، ومن الواضح هذه المرة أن العرب استطاعوا أن يمسكوا الإسرائيليين وهم فى غفلة. ورغم أن إذاعة إسرائيل لم تعلن الأرقام الصحيحة لعدد الذين قتلوا فى الحرب إلا أنها تركت ظلالا أكيدة تشير إلى أن الخسائر هذه المرة كانت جسيمة للغاية.

وفى اليوم الثانى من نشوب القتال كانت قوات «العدو» مسيطرة تماما على الموقف، وكان الإسرائيليون فى وضع الدفاع يحاولون، بلا جدوى، أن لايخسروا مزيداً من الأراضى.

وكان واضحا أيضا منذ البداية أن سلاح الطيران الإسرائيلى اكتشف أن فاعليته قد هبطت بشكل هائل.. وإزاء هذا الموقف الخطير الذى أصبح يهدد الوجود الإسرائيلى لأول مرة فى التاريخ، فان نوعا من روح الفكاهة التى تظهر على المحكوم عليهم بالاعدام الذين سيلاقون الموت لامحالة - ظهرت وسط التيار الخفى للرأى العام الإسرائيلى فى العاصمة تل أبيب ويتجسد هذا واضحاً فى النكتة التى سادت بين سكان تل أبيب وتقول أن أحد الإسرائيليين سأل زميلا له قائلا: إذا تقدم السوريون الآن عبر المستعمرات الزراعية فى الشمال وقاموا بالاستيلاء على طبرية فمن ذا الذى سيوقفهم عن غزو تل أبيب؟

فرد عليه زميله: «المصريون طبعا» [لأنهم كانوا يتقدمون من الجنوب].

نعم لقد كان مجلس الوزراء الإسرائيلى، خلال اليوم الثانى من الهجوم العربى، خائفا إلى حد هائل ولم يكن سكان إسرائيل بصفة عامة قد أدركوا بعد الحجم الحقيقى لهذه المذبحة ولكن رئيسة الوزراء جولدا مائير، ووزير الدفاع موشى دايان، وجميع الوزراء الإسرائيليين - كان هؤلاء جميعا مدركين تماما لحجم الكارثة التى نزلت بهم.

وعلى أثر هذا الهجوم كان كل عصب من أعصاب الدولة قد استعد إلى أقصى درجة بهدف «صد الغزاة» كان قد تم استدعاء كل القوات المقاتلة للخدمة فورا، تم تحريك كل وحدة للعمل، وقامت الدولة بالاستيلاء على كل مركبة أو عربة خاصة، أو عامة، لنقل الجنود إلى الجبهة، وتم تشغيل كل رجل، أو إمرأة، أو طفل يستطيع أن يؤدى أى نوع من العمل.

وبذلك أصبحت شوارع جميع المدن خالية تماما من الناس، وأغلقت المحلات أبوابها، وتولى الكهول والأولاد الصغار تشغيل الخدمات البريدية، فى حين تولت النساء قيادة الأتوبيسات وقد شوهد جنرال متقاعد من جيش الدفاع الإسرائيلى يقود سيارة لحمل القمامة، وبجوار المستشفيات فى جميع الأحياء العامة، اصطفت طوابير

طويلة من الإسرائيليين للتبرع بدمائهم من أجل إنقاذ الجرحى والمصابين الذين سقطوا بغزارة خلال اليوم الأول من القتال.

رحيل من مطار اللد

وفى الساعات الأولى من صباح يوم الأحد السابع من أكتوبر، اكتظ مطار اللد الدولى بالزوار الأجانب، الذين كانوا موجودين فى إسرائيل، يحاولون مغادرة هذه البلد التى تتهددها الحرب، وخلال الرحلات الجوية التى غادرت إسرائيل فى الليلة السابقة تمكن ٢٠٠٠ أجنبى من مغادرة البلاد. وكانت بوابات المطار مازالت مكتظة بالراغبين فى مغادرة إسرائيل، وفى نفس الوقت أعلنت وزارة التعليم إغلاق جميع المدارس ودور الحضانة إلى حين صدور تعليمات أخرى، أما هيئة الدفاع المدنى فكانت تعلن طوال اليوم خلال الإذاعة الإسرائيلية تعليمات تحث المواطنين «على ملء كل الاوعية الموجودة فى المنازل بالماء، والتخلص من كل المواد القابلة للاشتعال من المنازل والمخابئ المخصصة للحماية من الغارات الجوية، وتدعيم زجاج النوافذ بالأشرطة اللاصقة، وتجهيز شنط للاسعافات الأولية، وتوفير أكبر عدد ممكن من معدات أطفاء الحرائق، وتخزين المرايا وكل الأشياء المصنوعة من الزجاج..

.. وكان لايمكن أن يخطئ المرء الهدف من وراء ذلك كله، والرسالة التى يريد أن ينقلها الدفاع المدنى الإسرائيلى إلى المواطنين: استعدوا لقيام «العدو» بقذف المدن والمستعمرات الرئيسية فى إسرائيل.

تمائم للحماية من اللعنة

وفى الساعة السابعة و ٤٥ دقيقة من مساء يوم الأحد ٧ أكتوبر كان قد تم شحن ألف مخطوط من كتاب التوراه المقدس إلى الوحدات والتشكيلات المقاتلة على خط الجبهة.. وذلك لأن المتزمتين فى الدين اليهودى يعتبرون هذه المخطوطات كتمائم تحميهم من «لعنة المصير» ورغم أن هذه المخطوطات المقدسة لاتوفر أى حماية من الدانات والقنابل المصنوعة من الصلب وبعيدة كل البعد من أى علاقة بالحرب والقتال، إلا أن الوحدات الموجودة فى الجبهة كانت فى مسيس الحاجة إليها. ورحب الضباط والجنود هناك كل الترحيب بوصول هذه المخطوطات كما لو كانوا يرحبون بأصدقاء أعزاء قدامى فقد كانوا فى حاجة إلى أى عون.

وفى هذا اليوم - أى اليوم التالى لنشوب الحرب - تكاثفت كل مشاعر الخوف والتخوف من هذه التوقعات الجديدة التى لم تعرفها إسرائيل منذ قيامها حتى ذلك الوقت، لتشكل مزيجا غريبا جوهره هو الخوف من الفناء والابادة، ومظهره نوع من التصرف غير المألوف والتضرع إلى السماء بصلوات، فى صحراء سيناء وفى مرتفعات الجولان، وفى كل مكان من إسرائيل طلبا للنجاة من هذا الخطر المحدق.

وبحلول يوم الاثنين الثامن من أكتوبر كانت كل القوات الإسرائيلية فى حالة تعبئة تامة للقتال استعدادا لصد الغزاة، وبلغ مجموع هذه القوات ٣٠٠ ألف رجل، كذلك فإنه فى ذلك الوقت كان قد تم تحويل مدن تل أبيب، وحيفا، والقدس، تماما إلى المعركة بحيث توقفت هناك كافة العربات، ووسائل النقل فيما عدا الوسائل المخصصة للمجهود الحربى، أما المقاهى وحياة الليل فى شارع «ديزنجوف بوليفار» فقد سكنت تماما لأنه لم يصبح هناك زبائنا لارتياد هذه الأماكن.

لقد رحل الآن رجل البريد، النجار، وعامل تصليح أجهزة الراديو، وناظر المدرسة، وبائع الأثاث، والفلاح.. كلهم ذهبوا إلى جبهة القتال، كذلك فإن غالبية السائحين الأجانب كانوا قد غادروا البلاد بينما تحاول القلة الباقية أن تجد لها مخرجا، فى نفس الوقت الذى رفض فيه أى سائح قادم أن يسافر إلى بلد ينشب فيه القتال، وعاشت إسرائيل فى حالة إظلام تام بناء على تعليمات الدفاع المدنى، ووسط هذا الظلام وشوارع المدن التى أصبحت خاوية، كان الصغار يحاولون عبثا أن يقوموا بالأعمال التى كان يقوم بها آبائهم، وأشقائهم الذين يجابهوا الآن خطر الموت فى ميدان القتال.

والآن، وبعد ٤٨ ساعة فقط من نشوب القتال، أسفرت حرب أكتوبر عن نتائج وتبعات اجتماعية مباشرة على الإسرائيليين، فقد قررت هيئة «حاخامات» تل أبيب تأجيل جميع مراسم عقد القرآن والزواج التى كانت محددة خلال ذلك الأسبوع، ومن الناحية العلمية فإن جميع هؤلاء العرسان «كان قد تم تعبئتهم للخدمة» بالقوات المسلحة جميعا إلى جبهة القتال.

وفى نفس هذا الوقت عاد إلى البلاد فريق كرة السلة الإسرائيلى، بعد اشتراكه فى مباريات بطولة أوروبا التى عقدت فى أسبانيا، وعلى الفور صدرت إليهم الأوامر،

بمجرد وصولهم، أن يغيروا ملابسهم ويرتدوا الملابس العسكرية ويسلموا أنفسهم فورا إلى الوحدات العسكرية، كذلك تم فى نفس اليوم استدعاء ٢٠٠ رجل من المحاربين القدامى، وكانوا جميعا من المعاقين الذين فقدوا أعضاء من أجسادهم، وقدموا أنفسهم إلى مراكز قيادة الطوارئ. حتى المجرمين تقرر تأجيل محاكمتهم إلى مابعد الحرب وكانت إحدى محاكم تل أبيب تحاكم فعلا رجلا إسرائيليا بتهمة التزوير، فقامت بتأجيل المحاكمة إلى مابعد الحرب وطلبت منه تسليم نفسه إلى وحدته!

وحتى مستشفيات الولادة تحولت هى الاخرى لاستقبال الجرحى والمصابين الذين بدأوا يفدون بكثرة من جبهة القتال.

أسلحة مميتة

«وخلال اليوم الثالث من حرب أكتوبر، تأكد أن زعماء الحكومة وقادة القوات الإسرائيلية المسلحة لم يخطر بذهنهم عند نشوب هذه الحرب أن سلاح الطيران الإسرائيلى، الذى كان عليه العماد الأكبر فى نتائج الحروب السابقة، سيكون غير فعال فى الحرب الجديدة، وكان هذا السلاح قد تلقى ثناء كبيرا من كبار الخبراء العسكريين، على أنه واحد من أحسن القوات المقاتلة فى العالم، ومن هنا فإن سلاح الطيران الإسرائيلى أنطلق هذه المرة أيضا بقوة وشراسة آخذا على عاتقة مهمة الدفاع عن الدولة. ولكنه فى هذه الحرب قابل عاملا جديدا مفزعا إذ لم يكن فى إسرائيل من استطاع أن يتنبأ بمدى الفاعلية التى ستؤكدها ترسانة الأسلحة المضادة للطائرات التى يملكها العرب... لقد ثبت أنها أسلحة مميتة».

وبناء على تقديرات وزارة الدفاع الامريكية، فإنه خلال الأيام الثلاثة الأولى من القتال تم إسقاط ١٥ طائرة فانتوم «ف ٤» و ٤٠ طائرة اسكاى هوك أى أنه تم تدمير ٢٠٪ مما تملكه إسرائيل من هذا النوع من الطائرات الأمريكية المتقدمة، وبعد أسبوع واحد من هذا التاريخ ارتفعت التقديرات الأمريكية إلى ٢٥ طائرة «فانتوم ف ـ ٤» (من واقع ١٠٠ طائرة يملكها سلاح الطيران الإسرائيلى) و ٥٠ قاذفة مقاتلة من طراز سكاى هوك (من واقع ١٦٠ قاذفة مقاتلة تملكها إسرائيل من هذا النوع من الطائرات) وكان معنى ذلك هو تدمير حوالى ثلث إجمالى القوة الهجومية التى يملكها سلاح الطيران الإسرائيلى.

وفى اليوم الثالث بعد يوم كيبور «يوم نشوب القتال» وقف الجنرال أهارون ياريف المتحدث العسكرى الرسمى الإسرائيلى يعلن فى راديو إسرائيل لأمة حزينة «أن عددا من الطائرات الإسرائيلية قد تم اسقاطه بواسطة الصواريخ المضادة للطائرات» ولم يفصح ياريف ولا أى مسئول فى إسرائيل عن هذا العدد بالضبط، ولكن ورغم ذلك، فإن عائلات الطيارين، الذين لاقوا حتفهم وتم إبلاغهم بذلك، سرعان مانشروا الأنباء المحزنة، وأصيبت الأمة كلها بحالة من الذعر والفزع من جراء هذه الحقائق الجديدة التى يواجهونها لأول مرة.

لقد وجد مجتمع إسرائيل نفسه أسير حالة الرعب التى أصبح فيها..

وكان على القيادة التى واجهت الرعب والفزع لأول مرة محاولة عمل شئ يخفف من تلك المشاعر خاصة بعد أن انتشرت الأخبار عن أعداد القتلى الذين يسقطون على الجبهة.

ولذلك نشرت جريدة جيروساليم بوست فى اليوم الرابع من الحرب خبرا فى صفحتها الأولى يقول أنه باستطاعة الأهالى المدنيين الاتصال بأفراد عائلاتهم الذين يخدمون بين صفوف القوات المسلحة «وذلك فى الحالات العاجلة فقط» عن طريق أرقام التليفون الآتية: ٦٣١١١ بالنسبة لمدينة القدس، و ٢٥٤١٢٢ بالنسبة لمدينة تل أبيب، و ٦٦٠٩٦١ بالنسبة لمدينة حيفا.

كان هذا الإعلان مقدما من القيادة العسكرية وقد نشرته الجريدة دون أى نقاش، ولكن بعدها بيوم تلقت الصحيفة إعلانا أثار نقاش المسئولين فى الصحيفة وهل من المصلحة نشره أو تجاهله.

وقد تقدم بالإعلان حزب «راكاح» الشيوعى الإسرائيلى وقد ذكر فى الإعلان:

أوقفوا نزيف الدم. أوقفوا سياسة الاحتلال وضم الأراضى من أجل تحقيق سلام دائم وعادل.. واستطرد البيان منددا بسياسة إسرائيل التوسعية ومطالبا بالتنفيذ الكامل لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ بما فى ذلك الانسحاب من جميع الأراضى العربية التى احتلتها إسرائيل بعد عدوان ١٩٦٧ والاعتراف بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى.

وكان واضحا أن قلوب الكثيرين قد سقطت، وبعد مناقشة أجراها المجلس التنفيذى للجريدة اقنع «تيدلورى» رئيس تحرير الجريدة الجميع بضرورة قبول الإعلان ونشره!

وفى نفس هذا الوقت أعلن اتحاد المعابد اليهودية فى إسرائيل عن حاجة القوات الموجودة فى الجبهة إلى مزيد من مخطوطات التوراه «لرفع الروح المعنوية أيضا» كما طلب الاتحاد أن تقوم كافة المعابد بتقديم مواعيد الصلاة المسائية بحيث تنتهى قبل حلول الظلام وتنفيذ قواعد التقييد التام للإضاءة.

كان الأهالى، كلما سمعوا صفارات الانذار يهرعون بعصبية إلى المخابئ ممسكين بأطفالهم فى أيديهم وحاملين معهم البطاطين وسلال الطعام، وداخل المخابئ كانت السيدات المسنات يجلسن على المراتب، وسرعان ماتنشط ذاكرتهم ويسترجعن أهوال الحرب فى الماضى والحاضر، ثم يبدأن فى «التوجع والأنين» أما البعض الآخر فكان ينصت باهتمام إلى الأنباء الإذاعية عن طريق أجهزة الترانزستور، وتبقى بعد ذلك طائفة قليلة من الناس كانوا يغمضون أعينهم ويستمرون فى الصلاة حتى تنطلق صفارات الأمان.. وفى معظم الأحيان كان الجميع يفضلون المبيت فى المخابئ حتى صباح اليوم التالى.

وتبقى بعد ذلك مشكلة المهاجرين الذين وصلوا حديثا إلى إسرائيل منذ أشهر أو أسابيع، أو حتى أيام قليلة معدودة قبل إندلاع الحرب، لقد كان هؤلاء جميعا صامتين تماما كما لو كانوا قد أصيبوا بالذهول فقد كانت هذه الحرب المهولة هى أول تجربة لهم فى أرض الميعاد، ولم يكن أحد منهم يعرف ماذا يمكن أن يحدث بالضبط، وكيف ستتطور الأمور بعد هذه الصورة الكئيبة المحزنة التى يرونها.

وقد تصادف فى نفس الفترة التى شملتها حرب أكتوبر أن جاء عيدا يهوديا آخر يسمى «عيد الحصاد» وكان اليهود فى الماضى يحتفلون خلاله بجنى حصاد المحاصيل الصيفية، ولذلك كان موعده يختلف من عام إلى آخر حسب الموعد الذى تكون فيه هذه المحاصيل جاهزة للجنى، وقد كان هذا العيد دائما يتسم بالبهجة ومشاعر الفرح.. إلا أن هذا العيد الذى جاء فى أكتوبر ١٩٧٣ «فقد كان عيدا كئيبا حزينا» جاء بعد أيام كلها حزن ومرارة لإسرائيل التى شعر شعبها أجمع بأنه قد أفاق

على محنة هائلة شاهد خلالها معظم أفراد الشعب الإسرائيلى موت أعز أصدقائهم». وعملا بقصيدة «لمن تدق الأجراس» الشهيرة للشاعر الإنجليزى جون دون والتى تقول:

ليس هناك إنسانا عبارة عن جزيرة قائمة بذاتها

كل إنسان جزء من الكل

إن بقعة واحدة يستطيع البحر أن يمحوها بسهولة

وأن موت أى إنسان ينقص شيئا منى لأننى أنتمى إلى الجنس البشرى

لذلك لاترسل أبدا من يسأل: لمن تدق الأجراس؟

لأنها تدق من أجلك أنت.

(يقصد الشاعر أجراس الكنيسة التى تدق عندما يموت أحد الناس).

وعملا بهذه القصيدة الشهيرة فإنه بعد الخسائر الهائلة التى نزلت خلال حرب أكتوبر فإنه فى كل أرجاء إسرائيل لم يكن هناك أحد ليسأل: لمن تدق الأجراس؟ فقد كان الموت يشمل الجميع.

أعياد تتحول إلى مآتم

وبعد ١٣ يوما من أندلاع حرب كيبور جاء عيد آخر من الأعياد اليهودية يسمى «سمحات التوراة» وهو عيد يتميز بالبهجة ومظاهر الفرح والسرور ويملأ فيه اليهود شوارع المدن بالرقص والغناء والطرب حاملين فى أيديهم مخطوطات التوراة المقدسة، كذلك تشترك فى هذا الاحتفال كافة الهيئات والقواعد العسكرية، ويتم اختيار شخصية عسكرية بارزة وأخرى من القيادة السياسية ليكون لهما شرف حمل مخطوطات التوراة ويتقدمان بها على رأس مواكب الاحتفال

وبصفة عامة فإن إسرائيل تحتفل بهذا العيد كيوم للمرح فهو آخر يوم من أيام العطلة، وهو يوم تعقد فيه حفلات المرح وتخرج العائلات للنزهة والرحلات وزيارة المعارف، ويسود الدولة كلها نوعا من البشر والسعادة والشعور بالارتياح. ولقد تصادف

أن كان هذا العيد فى العام الماضى (١٩٧٢) من أسعد الأعياد التى شهدتها إسرائيل ويبدو أن القدر كان يعوض لهم مقدما تلك الأهوال والأحزان التى سيرونها فى العيد القادم: أكتوبر ١٩٧٣.

فى هذا اليوم تقرر إلغاء مظاهر الاحتفال واستمر حظر الاضاءة فى جميع أركان إسرائيل، وجاء عيد المرح هذا حزينا كئيبا وخاليا من كل مظاهر الحياة. وكانت الأمة كلها قد أنغمست فى نوع من الحزن العميق وبصفة عامة كان الشعب كله فى فترة حداد على الأقارب والأصدقاء الذين قتلوا فى المعركة، وكان الجميع ثكالى وكانت يد الموت قد مست، كل إنسان يعيش فى إسرائيل.

معابد الحزن والتابوت المقدس

وبمجرد غروب الشمس فى هذا اليوم، اضطر المصلون داخل المعابد اليهودية إلى اسدال ستائر المعبد حتى لايخرج أى ضوء من خلال النوافذ. كانت معظم هذه المعابد مليئة بالنساء والأطفال الصغار والشيوخ، أما زهرة شباب إسرائيل فكانوا جميعا يلاقون الموت على جبهتى القتال، وفى لحظة يأس أراد بعض هؤلاء المصلين أن يتحدوا ما أنزله عليهم القدر فقاموا باعتناق أطفالهم وحملوهم محاولين إقامة شعائر الفرحة المفقودة وذلك بالرقص حول «تابوت العهد المقدس».. لقد كانت محاولة يائسة لتحدى الأقدار وتجسيدا للرغبة فى الحياة بعد أن قابلوا الموت وجها لوجه.

كان هناك داخل بعض المعابد فى ذلك اليوم، عددا قليلا من الجنود جاءوا من الجبهة ووقفوا بين النساء والأطفال والشيوخ، ولم يستطيع أحد منهم أن يحتوى الدموع التى تذرفها عيناه. لقد ذهب الشباب والرجال جميعا إلى الحرب يلاقون هناك الأهوال والمصير المحزن ولم يتبق داخل إسرائيل غير هؤلاء الشيوخ والنساء وأولئك الأطفال أملا لهم فى المستقبل.

الشك والحيرة

ويتذكر أحد الكتاب هناك حديثا جرى بينه وبين سيدة إسرائيلية تدعى «هاداساه ايشيل» وتبلغ من العمر ٤٠ عاما، قالت له: هل تعلم ياهارولد، إننى من جيل الصابرا الرابع، فقد ولد أبى فى هذا البلد، كذلك جدى وأبوه... ولدوا جميعا هنا، وفى شبابى

تطوعت بمحض إرادتى فى الجيش الإسرائيلى. وكنت فخورة بأننى أدافع عن إسرائيل، وفى الحرب الأخيرة (حرب أكتوبر) كنت مستعدة للذود بحياتى فى سبيل الدفاع عن البلاد.. ولكن أنظر الآن إلى ولداى. أن كلا منهما أغلى من حياتى نفسها.. أنهما توأمان بلغا الآن الحادية عشرة من عمرهما، والسؤال الذى يلح على الآن: ماهو الهدف الذى أربيهما من أجله؟ لكى يلاقيا حتفيهما فى الحرب!.. لا إننى لست مستعدة للتخلى عنهما، لقد كنت مستعدة للتضحية بحياتى، وحتى حياة زوجى، لمجرد أن نجعل هذا البلد مأمونا لأطفالنا... وتوقفت فجأة عن الحديث لتجفف دموعها ثم استمرت قائلة: إننا لانستطيع الاستمرار هكذا، نخوض حربا كل خمس سنوات، إننا نعمل ونكافح ونعلم أبناءنا ولكن ليس ليلاقوا حتفهم فى القتال كما يحدث الآن إننى لاأستطيع أن أتحمل مجرد التفكير أن ولداى سيكبران كى يلاقيان حتفهما فى الحرب..

وخلال الأيام الأولى من حرب أكتوبر، وبسبب الحقائق الجديدة لهذه الحرب، فإن مظاهر الامتعاض اكتسحت المجتمع الإسرائيلى بأكمله وأصبح الجميع يشعرون أنهم يحاربون لإنقاذ حياتهم وأن العدو لا يتأثر بالخسائر فى الأرواح لأن تعداد السكان عنده ضخم ويستطيع أن يستوعب ويمتص هذه الخسائر فى حين أن الخسائر فى الأرواح مؤثرة جداً فى المجتمع الإسرائيلى بسبب قلة السكان.. «إننا نريد أن نعيش بدون هذه الضغوط والأعباء الهائلة والضرائب الفادحة التى ترمى إلى توفير ميزانية مجحفة للدفاع والتسليح، إننا لا نريد أن نبذل كل هذا ثم تأتى مثل هذه الحرب لتقتلنا.. وحرب بعدها لتقتل أعز ما نملك: أطفالنا».

ويقول الكاتب: إنه فى النهج الطبيعى لحياة الإنسان فإن مسألة الموت بالنسبة لعائل الأسرة لا تحدث إلا عندما يبلغ هذا الشخص سن الشيخوخة، وغالباً ما يكون هذا الشخص هو الأب أو الأم، ولكن فى إسرائيل تختلف المسألة تماماً، فالموت هناك الآن أصبح رفيقاً دائماً يوجه ضربته دائماً إلى شباب العائلة وليس كهولها.

مرتين أرملة وعمرها ٢٦ عاماً

وعلى سبيل المثال هناك سيدة إسرائيلية تدعى «حاناه» ذهب زوجها ليقاتل فى حرب ١٩٦٧ ولم يعد أبداً بعد ذلك فأصبحت أرملة وأُماً لطفل واحد وهى فى سن العشرين، وفى سنة ١٩٧٠ تزوجت «حاناه» مرة أخرى وأنجبت طفلين من زوجها الجديد، وعندما نشبت حرب أكتوبر تم استدعاء هذا الزوج للقوات المسلحة، حيث لاقى مصرعه بعد أيام قليلة من نشوب القتال، وبذلك «ترملت» هذه الزوجة الإسرائيلية مرتين وهى مازالت فى السادسة والعشرين من عمرها.

إن المرء بعد حرب أكتوبر يسمع عديداً من هذه القصص فى إسرائيل، وأن إحدى المتطوعات الأمريكيات فى إسرائيل وتدعى «ديل» قالت: إن أصدقاءها من الجنود الإسرائيليين يقولون لها: إنهم لا يريدون أن يقعوا فى الغرام ويتزوجوا حتى إذا ما قتلوا فى الحرب فإنهم لا يكونون قد تركوا من خلفهم أطفالاً وأرامل كما فعل زملاؤهم.

وأكثر من هذا فإن الفتيات، بعد هذه الحرب، أصبحن يشاركن الشبان فى نفس هذا التفكير اليائس من المستقبل الذى لم يعد يخبئ لهم غير المآسى، وربما استطاع هؤلاء الشبان الإسرائيليون أن يغيروا أفكارهم تلك بعد فترة فسيحة تلتئم خلالها جروح الزمن، ولكن الذى يحدث الآن أن موجة من التشاؤم الأسود تسود بين الشباب الإسرائيلى بسبب ما رأوه وما تعرضوا له فى الحرب السابقة، وقد أدى هذا الإحساس بلعنة المصير إلى نشوء نوع من روح الفكاهة التى تصاحب شعور الإنسان باليأس من المستقبل بأكمله.

مقابر هائلة

كان من نتائج حرب أكتوبر فى إسرائيل أنه تم على عجل إنشاء ٣ مدافن مؤقتة لضحايا تلك الحرب: الأولى فى تل أبيب لضحايا القيادة العسكرية المركزية، والثانى فى «عقولا» لضحايا القيادة الشمالية العسكرية، والثالث على بعد حوالى ٣٠ كيلومتراً لضحايا القيادة العسكرية الجنوبية (سيناء) والتى كانت تضم أكبر عدد من الضحايا.

وإلى هذه المقابر الأخيرة بالذات توجه حوالى ٦ آلاف من أهالى الذين قتلوا على تلك الجبهة (وبعد شهر تقريباً من بدء الحرب) ليزوروا ١٨٥٤ قتيلاً ضمتهم المقابر.

وبدأت الموسيقى الحزينة والصلوات، بينما كان قادة المناطق العسكرية الثلاثة الإسرائيلية ينادون على الجميع للوقوف «انتباه» حتى «لا يشعر الموتى أنهم ضحوا بحياتهم عبثاً»، وفى نفس هذا الوقت تم تنكيس الأعلام فى جميع الوحدات العسكرية الإسرائيلية وأقيمت نفس الشعائر فى عدد من المقابر العسكرية الإضافية بكل أرجاء إسرائيل.

لماذا .. لماذا .. لماذا ؟

كانت المقبرة مزدحمة للغاية بأمهات، وزوجات، وشقيقات، وجدات القتلى. وقد جلسن جميعاً قرب القبور بعضهم يصرخ والبعض الآخر «يلطمن» خدودهن. أما باقى الأهالى فقد كانوا صامتين يحاولون بجهد فارق منع دموعهم. وكانت هناك زوجة شابة وقفت بجانب مقبرة لا تفعل شيئاً غير ترديد كلمة واحدة، لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟. وبجانب قبر آخر وقف جندى إسرائيلى حاملاً ابنة أخيه الطفلة لتزور قبر أبيها، وكان يردد هو الآخر: كونى شجاعة لا تبكى. وبجانب قبر ثالث يبدو واضحاً أنه قد فتح منذ فترة قريبة، رقدت جدة تحتضن شاهد القبر الذى دفن فيه حفيدها بينما وقف خلفها زوجها يحتضنها ويقرأ بصوت عال «مزمار داود» رقم ٨٣، فإن هذا هو الموجز المتكرر لما حدث داخل كل المقابر العسكرية فى إسرائيل يوم أن خرج الشعب بأكمله ينعى قتلاه فى حرب أكتوبر.

«بحيرات مرة» من الدموع

وبعد ٧٣ يوماً من انتهاء الحزب، أجريت فى نفس المقبرة (مقبرة ضحايا الجبهة الجنوبية أى سيناء) فرائض أخرى للصلاة التذكارية وحضرها آلاف من أسر الضحايا، وأعلن هناك أحد كبار الضباط الذين خدموا فى نفس الجبهة، أنه لو أمكن فعلاً تحقيق السلام، فإن تضحيات هؤلاء الجنود لن تذهب سدى، وكان هناك أحد الآباء الذين فقدوا أبناءهم فى هذه الحرب. قام بتلخيص المأساة كلها على المستوى الشخصى عندما صرح لمراسل جريدة «جيروسليم بوست» قائلاً: الآن أصبحت لدينا «بحيرات مرة» ولكنها مليئة بدموع أهالى ضحايا القتال.

عودة الأسرى

فى نفس هذا الوقت أصدر الرئيس السادات قراراً إنسانياً بإعادة الأسرى الإسرائيليين، وبعد ٤١ يوماً من القتال وصل الفوج الأول من هؤلاء الأسرى، وكانوا جميعاً يرتدون البيجامات وحليقى الشعر. ولقد كانت فرحة إسرائيل بهم لا توصف واستقبلوهم فى مطار اللد بالأحضان، والدموع، وكل مشاعر الإثارة، وبعد ذلك حملوهم فى قافلة إلى مستشفى «تل هامو شامير» وأدخلوهم جناح الحالات الطارئة ثم قاموا بتوزيعهم حسب حالة كل منهم إلى مختلف الأجنحة والأقسام.

ومن بين هؤلاء الأسرى كان هناك طيار إسرائيلى أمضى فى الأسر ٣ سنوات ونصف، إذا كان قد تم أسره خلال حرب الاستنزاف، ويدعى هذا الطيار سيرين رامى هاباز. وعندما عاد هذا الطيار إلى الكيبوتز الذى يعيش فيه أقاموا له حفل استقبال كبير ثم طلب منهم أن يحملوا قطة، أحضرها معه من سجن المعسكر إلى زميله فى الأسر دان أفيدان الذى يقطن بالكيبوتز المجاور والذى أفرجت عنه مصر قبل ذلك بثلاثة أسابيع. وعندما وصل هاباز إلى بيته اكتشف أنه أصبح أباً لـ ٣ بنات وولد، إذا أنجبت زوجته توأمين أناث بعد أن أسقط المصريون طائرته الفانتوم بشهرين.

ومع مرور الأيام ظهرت فى إسرائيل مشكلة جديدة هى مشكلة الأهالى الذين لا يعرفون حتى الآن مصير أبنائهم، فقد قالت لهم القيادة الإسرائيلية: إنهم فى عداد المفقودين، لم تقل لهم إذا كانوا قد قتلوا أو أسروا، وعندما عاد الأسرى من مصر ثار هؤلاء الأهالى على القيادة والحكومة الإسرائيلية مطالبين بمعرفة مصير ذويهم، وأصبحوا بمثابة مشكلة أخرى زادت من أعباء القيادة والتزاماتها أمام جماهير الشعب.

كلام عاقل جداً

وكان لابد وأن يتكلم الرئيس الإسرائيلى فى ذلك الوقت أفرايم كاتزير، فخرج بعد ٥٠ يوماً من الحرب يقول فى الإذاعة الإسرائيلية بالحرف الواحد: «إن عديداً من الأخطاء السياسة والعسكرية قد وقعت فى هذه الحرب.. وإننا جميعاً نتحمل اللوم فى ذلك.. لقد أردنا أن نعيش فى عالم خيالى لا يمت بصلة إلى عالم الواقع الذى نعيش فيه، وأن محاولات البحث والتحقيق فى أسباب هذه الأخطاء التى وقعت يجب أن لا

ترمى أبداً إلى معاقبة كل منا للآخر، ولكن يجب أن تهدف إلى تعلم الدروس التى قد تحدد مصير الشعب اليهودى.

وعن الصدمة قال الرئيس الإسرائيلى: إن الشعب اليهودى عاقل وأنه شعر فجأة بقوة العرب العسكرية والحاجة إلى عمل مشترك.. الشىء الذى لم نكن قد تعودنا عليه قبل ذلك، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك الألم من جراء الخسائر التى لحقت بنا، ونتيجة لذلك فقد بدأنا نعيد النظر فى أعمالنا ونعيد تقديرها بتعقل ورزانة، ولكن هذه العملية مصحوبة بالكثير من الآلام، وبالأسى غير القليل، لما حدث لنا.

السيدة مائير

وبعد ذلك بحوالى ٢٤ ساعة خرجت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل، لتقول: أن إسرائيل خدرت نفسها طوال السنوات الماضية بفكرة أنهم طالما كانوا لا يرون هناك مبرراً للحرب فإن العرب بدورهم لن يجدوا هذا المبرر. أننا كنا واثقين تماماً أن الحرب لن تحل شيئاً وإننا نبغى السلام، وعندما جاءت تقارير المخابرات حول استعداد العرب للحرب فإن أحسن من فى قومنا قالوا: إن هذا لا يمكن أن يحدث.

ثم أضافت رئيسة وزراء إسرائيل قائلة: إنه لأول مرة فى تاريخ إسرائيل شعر الشعب عند اندلاع هذه الحرب وخلال ساعاتها الأولى أن إسرائيل قد تخسر المعركة، وكان مستقبل إسرائيل بل مستقبل الشعب اليهودى كله يعتمد على نتيجة حرب أكتوبر، وإننى لواثقة إننى لم أقل أبداً من قبل أن استمرار الشعب اليهودى فى البقاء يعتمد علينا (إسرائيل).

وأضافت مائير قائلة: ليس هناك فى إسرائيل كلها شخص واحد يستطيع أن يقول: إنه نفس الشخص الذى كان عليه ليلة يوم كيبور.. إننى شخصياً لا أعتقد أننى سأعود يوماً إلى ما كنت عليه فى الليلة السابقة لحرب كيبور.

إنى ذاهب للبحر

وأهم من هذا كله كان التغيير الهائل الذى طرأ على المقاتل الإسرائيلى وفيما يلى مقتطفات من حديث صحفى مع ضابط مدرعات إسرائيلى اشترك فى حرب أكتوبر، وطوال الحديث نشعر بأن الرجل يتجه إلى مفهومات أخرى كما لو كان قد تعرض لتوه لنوع من «العلاج بالصدمة». وهو فى الحديث عن مشاعره يتجه إلى الأسلوب الأدبى الرفيع الذى يساعد على تكوينه تلك التجارب الأليمة التى يتعرض لها الإنسان.

يقول الضابط الإسرائيلى: إنى ذاهب أنظر إلى البحر، ومازال عندى أمل أن أرى السماء شاسعة زرقاء كما هى. لقد جئت من الصحراء وحيدا مقهورا وأشعر أن كل ماكان قريب منى بالأمس أصبح بعيد عنى الآن ولذلك فإننى ذاهب انظر للبحر.. ربما لمحت شراعا فى الأفق.. ولكن إذا قذفت لى الأمواج بمهمة رسمية فى قلب زجاجة فلن افتحها أبدا.

إنى ذاهب للبحر

سوف أجلس على الرمل، أرتدى معطفا كبيرا.. لاتشفقوا على فأنا أشفق على نفسى أكثر منكم.. ولكن فى استطاعتكم أن تجلسوا بجوارى.. فهناك متسع للجميع على شاطئ البحر. ولا تسألونى من مات؟ ومن بقى على قيد الحياة؟ ومن جرح؟

ومن هزم؟ ومن خسر؟ ومن الذى على حق؟ ومن المخطئ؟.. فلم يعد ذلك يهمنى أبدا.. كلما يعنينى اليوم هو أن تصدقونى لأننى أنا أيضا لم أكن أذكر الحقيقة دائما.. ولكننى سأذكرها الآن:

إنى ذاهب أتأمل البحر فلم أعد أحتاج لشئ سوى البحر.

إن ما قتل فى داخلى لن تستطيعوا أن تردوه إلى أبدا إنى ذاهب أتأمل البحر.

بدأت طائرة النقل الضخمة تستعد للهبوط فى تل أبيب وينظر جنود المظلات منها إلى أسفل، وبحركات متعبة أخذوا يمسحون بأيديهم الدامية على شعورهم المتربة من كثرة الليالى التى قضوها فى حفر الخنادق.

قال أحدهم: يبدو أن مناظرنا جميلة.

وسأل الآخر دون أن يبتسم: من الذى كسب الحرب؟

أما أنا فمازلت أشم رائحة الجثث المحترقة وهناك كلب يأكل فى جثة أحد الجنود.. حمدا لله إنى مازلت على قيد الحياة لكننى فى الوقت نفسه أحس بشعور مبهم كما لو كنت قد اشتركت فى تمثيل فيلم خليع.. ينبغى أن أذهب هذا المساء إلى أهل «يورام» وإلى زوجة «تسفيكا» وإلى أولادى «يواف» فقد مات هؤلاء جميعا.

وفى وقت متأخر من الليل سوف أصرخ أثناء نومى: «أيها الممرض.. أيها الممرض» وللمرة الثانية فى حياتى سوف أذهب لأسجل اسمى فى حزب الشياطين الاحتياطيين أولئك الذين تهددهم الحرب دائما والذين يموتون أحياء.. بكل تأكيد سوف يدهش الأقارب والأصدقاء الذين فى الخلف عندما يرون الابتسامة تقترن بالدموع.. ومع ذلك فإن بدنى لايقشعر حينما يذكر اسم أحد الموتى أمامى.

إنى ذاهب أتأمل البحر:

وسوف أبعث بكارت بوستال (كارت صفراء وعسكرية صغيرة) إلى الذين يقررون بداية ونهاية الحروب.

إنى فى الثامنة عشر.. فى السادسة والعشرين.. فى الواحد والثلاثين.. فى الثانية والخمسين.

إن السادسة والعشرين من أجمل سنوات الحياة وأجمل سنوات الموت أيضا.. فى حياتى لم أشعر بمثل هذا الشعور الا ربما عندما كنت فى التاسعة عشر خلال حرب الأيام الستة حينما أضللنا «تل الحار» وجاء الينا أحد الوزراء ليقول لنا «أننا انتصرنا» ورد عليه الذين بقوا على قيد الحياة: «أنت الذى انتصرت أما نحن فذاهبون لنتأمل البحر».

طوال أشهر عانينا من الكابوس والأحلام المخيفة.. كنا نستيقظ على صراخ: «أيها الممرض».. فى الصحف كانوا يقولون إننا كنا مدهشين.. كما لو كنا نمثل مسرحية كانوا يتكلمون عن النصر.. أما أنا فلم أكن أفهم أى نصر هذا الذى يتكلمون عنه.. فإذا كانوا يعنون السلام فإنه لم يكن بعيدا عنا كما هو الآن.. ولكن يبدو أن الأمر كذلك وإن كل شئ يسير على مايرام وإننى أستطيع أن أنام فى هدوء وأن الموقف ـ على مستوى الامن ـ لم يكن أفضل من ذلك أبدا.

وعندئذ ذهبنا ونحن نغنى لحن «جسر نهر كواى» باحثين عن الزوجة والمسكن والعمل.. وفى كل صباح بعد ليالى الأرق كنا نستيقظ ونعيد على أنفسنا معا أن موقفنا على مستوى الأمن «لم يكن أفضل من ذلك أبدا».. كم من الوقت نستطيع أن نتأمل البحر؟

منذ عام ١٩٦٧ بعيدا عن ذكريات الحرب قامت شركة غربية استهلاكية، ولم تمر إسرائيل بمثل هذا المنحنى الصاعد، كان الأثرياء يزدادون ثراء والفقراء يزدادون فقرا.

كان الجميع يعلمون أن هناك فدائيين فلسطينيين فى الضواحى ولكن كان الجميع يعتمدون على أجهزة الأمن الأعمال مزدهرة والصناعة والمبانى على أحسن مايرام.. كان المقاولون الأغنياء يشترون بالملايين أراضى راح ضحيتها كثير من زملائى... والفن أيضا بدأ يزدهر.. الكتب.. صالونات الفن.. علب الليل.. المطاعم الغربية ومع ذلك جاء يوم خرج فيه شباب الكيبوتز يفكر فى هذا الانتصار ويعلق عليه وقاموا بتأليف كتاب صغير بعنوان «اليوم السابع» شرحوا فيه بكلمات بسيطة الحرب كما يرونها وأنها ليست سوى الموت والدمار:

من أجل السلام يجب أن نحارب..

نحن نحارب من أجل السلام..

الحرب من أجل السلام..

إن هذه الشعارات فى جميع اللغات تتسم بالبلاهة.. يضعون جنبا إلى جنب كلمة ونقيضتها دون حياء.. مثل عبارة «نقاء السلاح».. هل يمكن أن يكون السلاح الذى يقتل إنسانا، نقيا؟

إن السلام كما ترون مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا.

إن الشباب الإسرائيلى لم يبق منه الكثير بعد الحرب الرابعة من أجل السلام ويرغب الآن حقا أن يقبله العرب وأن يتقرب منهم.

يقولون لنا قبل وبعد كل حرب إننا نناضل من أجل السلام والأمن ولكننى أعرف بعضهم ممن قتلوا فى ميادين القتال دون أن يفكروا فى السلام والامن.. كانوا يفكرون فى الزوجة والطفل الذى يستيقظ كل ليلة فى الساعة الرابعة فى الأهل.. فى الأطفال.. فى الصديقة.. فى فيلم السينما الذى يجب ألا يفوته.. فى شجرة البرتقال الخضراء وشذاها.. من كان يحب البحر يفكر فى البحر، والذى يحب الشمس كان يفكر فى الشمس، أما أنا فكنت أفكر فى الموت.

لايكفى أن أحارب من أجل السلام فقط ذلك لأننى نضجت قليلا وقرأت بعض الكتب، وتناقشت مع بعض الزملاء.. وأريد أن أفهم أيضا عن أى سلام تتكلمون على وجه التحديد؟.. أى سلام؟.. وكم سلاما؟ والسلام مع من؟

وماهو الأمن؟.. أريد أن أفهم لأنه كلما نشبت حربا فى أى مكان.. أذهب أنا لأقتل نفسى أما أنتم فتستمرون فى الحديث عن السلام والأمن.

هل لمس أحد منكم السلام والأمن بيديه؟.. أنهم يرددون على مسامعكم بكلمات لايستطيعون أن يشرحوها لكم.. وتذهب أنت لتضحى ربما بحياتك من أجل كلمات لاتفهم حتى معناها.. هناك زملاء لى فى المستشفيات فقدوا أذرعتهم أو أرجلهم أو الاثنين معا.. فما هو ذلك الأمن الذى حصلوا عليه؟.. إن هناك من فقد عقله ويسير الآن متخبطا فى دهاليز المصحات صارخا: «أيها الممرض، أهذا هو السلام والأمن؟

لذلك فإننى أقول لكم الآتى: إننى فى السادسة والعشرين من عمرى وعندى طفلين وليس عندى مسكن.. السلام والأمن أنهما بلا شك شئ رائع.. ولكن حياتى أغلى عندى من كلماتكم.. إننى لست أبله وحينما أحارب أريد أن أعرف بالضبط ما الذى أحارب من أجله؟.. إذا كان هذا من أجل السلام فأعطونى إيضاحا أهو سلام يدوم حتى يبلغ ابنى سن التجنيد ليخوض الحرب من أجل نفس السلام؟.. إذا كان هذا هو «سلامكم» و «أمنكم» فلتذهبوا أنتم وتحاربوا من أجله.. أما «سلامى» و «أمنى» أنا سوف أجدهما فى حياة طويلة بقدر المستطاع وليس فى الموت أو بتر عضو من أعضاء جسدى.. ومع ذلك سوف أقول لكم شيئا: إننى على استعداد للتضحية بالكثير من أجل سلام وأمن حقيقيين.. ولكننى لست مستعدا لكى أموت من أجل كلمات لا أفهمها.

لقد كان أمامنا ٦ سنوات طوال لنتكلم فيها عن السلام والأمن ولكننا بقينا سجناء لكلامنا وتفكيرنا وفلسفتنا الرخيصة.. لقد كنا نحارب دائما من أجل شئ ما: «الحرية» «الاخاء».. «الاستقلال».. «الديموقراطية» «السلام».. «الأمن».. ولكن الأهم من ذلك كله هو الحياة التى أهملناها جانبا تحت أكوام من الشعارات البالية والخيالية من كل معنى.

لقد رأيت شبابا يموت، ولم يصرخ أحدهم وهو يسقط صريعا: «كم هو جميل أن تموت من أجل الوطن.. أو يحيا السلام والامن» ولكننى بدلا من ذلك كنت أسمعهم يبكون منادين أمهاتهم كالأطفال أو كانوا حانقين ومنهم من كان يقول: «لاتحكوا لزوجتى فسوف تؤاخذنى طول حياتى» (كان يعنى طول موتى).. أو يقول: «إننى أموت دون أن اعلم إذا كنت قد حصلتم أخيرا على سلامكم وأمنكم».

فيما بعد، فى فصل الكبار، سوف يقصون علينا غزوات بطل مات فى سجن الأعداء دون أن يفش أسرار الدولة. وسوف تنصحنا المدرسة، بالأدب المعتاد. ألا نفشى الأسرار إذا وقعنا يوما فى الأسر. ومع ذلك فإننى إذا وقعت يوما فى الأسر فسوف أصرخ عاليا: «الأسرار! وهذه هى أتريدون أكثر؟.. هاهى ولكنى أستحلفكم ألا تعذبونى.. فأنا لست بطلا.. أنا على استعداد لتسليم أناس لم يولدوا بعد، ولكن اتركوا لى يدى.. أتريدون أسرارا أخرى؟ بالطبع مازال عندى. أن ما قلته لكم الآن ليس بذى أهمية.. أنا على استعداد حتى إلى تأليف الأسرار.. وذلك لأننا لدينا الملايين من الأسرار.. وأستطيع أن أقول لهم بعضها. فأنا لست بطلا».

منذ نشأتى، كنت أعتقد أن هذه حقيقة رائعة أو أكذوبة رائعة.. أو الاثنين معا، لأننى إذا كنت أحب وطنى حقا فما الذى يدفعنى إلى أن أموت من أجله، وإذا كنت لا أحبه فما الذى يمنعنى من أن أصرح بذلك؟ إن شعارى الآن هو: «كم هو رائع أن أحيا من أجل الوطن».

إن التحرك نحو السلام من جانب إسرائيل لم يأت فى يوم وليلة فقد كان أمامهم ٦ سنوات بعد حرب يونيو ليتحركوا نحو السلام، ولكن شئ من هذا لم يحدث إلا بعد زلزال حرب أكتوبر فهو «سلام بقوة السلاح»، ولنقرأ معا ما قاله ضابط إسرائيلى عائد من عمليات القتال:

«اسمى ايلى» ولكن هذا لايهم حيث أنكم لن تنشروا اسمى.. أنا طالب عمرى الان ٢٦ عاما.. واعترف بأننى أمقت الصحفيين الذين يعيشون على الجثث ويمجدون الحرب بكلمات رنانة وجمل منمقة.

لن أنسى عودتى من معركة رافيد، لقد كنت أحمل ١٤ جريحا فوق عربتى هم قوام من استطاع النجاة من الفرقة التى أعمل بها، وكانت عربتى المصفحة هى المركبة الوحيدة السليمة بين جميع مركبات الوحدة.

وعندما وصلت إلى المستشفى الميدانى انقض علىّ أنا وزملائى الجرحى محرر ومصور من التليفزيون.. وفى فرحة محمومة بدأوا فى تصوير الجرحى.. وعندئذ انتابتنى رغبة قوية فى أن أطلق النار لأقضى على هؤلاء المتطفلين الذين يحومون حول مستشفيات الميدان لينتزعوا التفاصيل المروعة من بقايا البشر العائدين من ميدان القتال.

«بطل».. ماذا تعنى هذه الكلمة.. كل الأبطال الذين كانوا معى ماتوا.. وأنا لست سوى ضابط مدرعات بسيط يريد أن يعيش، ومن هنا كنت أعلم إننى لو توقفت عن التقدم.. والضرب فسوف أصبح الهدف القادم وهكذا فإنه كما ترون هناك فى كل فرقة أولئك الذين يقاتلون وهؤلاء المضطربون المترددون الذين يحاولون الهروب بخلودهم وعادة يكون قد فات الأوان.

أتريدون الحقيقة لقد تعبت ولم أعد أحتمل.. لقد خضت حروب حرب الأيام الستة وحرب الاستنزاف والآن حرب كيبور.. وحينما اندلعت هذه الحرب الأخيرة بدأت أرتجف لقد كنت مقتنعا أن دورى قد حان هذه المرة وأننى لن أستطيع الهروب من هلاك الموت.

فى حرب الأيام الستة كنت أعمل فى كتيبة مدرعة بقيادة «أهرد آلاد» وقد عبرت «جيرادى» معه، ولقد كتبنا كثيرا عن هذا الموضوع بل أننا كتبنا فصلا بأكمله فى كتاب «مدرعات تموز» وقيل وقتذاك إنه لن يكون هناك أبشع من هذه المعركة.

وفى هذه الحرب الأخيرة كنا قد حصلنا على كل مااخترعه الإنسان ليدمر به الإنسان مدرعات دبابات ثقيلة مدافع مضادة للطائرات هاونات أسلحة خفيفة. صواريخ وهناك كثير مما نسيته.

ويرد على خاطرى الآن إننا كنا فى مدرسة الضباط قد درسنا المعركة التى قام بها «موشى بريل» عام ١٩٥٦ خلال حملة سيناء، وقد هزتنا شجاعته كثيرا. أما اليوم فإن ذلك يجعلنا نضحك.. إن كل موقع حصين من مرتفعات الجولان دارت فيه معركة أعنف بعشرات المرات من هذه المعركة التى قادها «موشى بريل».

وفى خلال معارك الاستنزاف وقعت محاصراً فى شمال القنال وعانيت ما لايمكن أن يتصوره إنسان ولم نكن نستطيع أخلاء جثث زملائنا كما إنه لم يكن فى الإمكان إمدادنا بالطعام الذى كنا نتناول منه كمية غير كافية لاتحتوى على الفيتامينات التى يحتاجها الإنسان.. ولذلك فقد بدأ شعر رأسى فى السقوط.. وأصبحت أصلع الرأس علما بأنه ليس هناك صلع فى عائلتى وبالتالى ليس هناك عامل وراثى.

لقد كان يفصلنا عن خنادقنا فى الخلف مائتى متر فقط لم نكن نستطيع الوصول إليها حيث توجد وجبات غذائية كاملة. أما اليوم من الصعب على تحمل ذلك لأننى الوحيد ـ من الوحدة الذى بقى مع قائد الفرقة. أما هو فقد أصابته طائرة «ميج» انقضت عليه وكانت الصدمة عليه عنيفة بالدرجة التى لم يكن معها يريد أن يستعيد مدرعته فتركها وفضل أن يركب معى وقد واصلت حتى أستطيع أن أنقذ من تبقى على قيد الحياة من زملائى. وفى هذه الأثناء وصلت طائرات الفانتوم لنجدتنا

وللسخرية كادت هذه الطائرات أن تؤدى بحياتى وحياة من معى، والسبب فى ذلك إنى كنت قد نزعت الشارة المعدنية التى تميز عربتى المدرعة. نزعتها لأنها كانت تحدث صوتا مزعجا، وهنا أعتقد أحد طيارى الفانتوم إنها مدرعة عربية فانقض عليها وقذفها بصاروخين وقعا على بعد أمتار منا، والذى آلمنى أكثر من هذا كله هو رد قائد الكتيبة حينما قصصت عليه هذه الواقعة وإن الفانتوم لم تصبنى وعندئذ رد على القائد بعدم اكتراث. «أتقول أخطأك.. هذا غير معقول».

وحينما وصلت إلى المستشفى لم أكن قد أفقت بعد من صدمة إبادة فصليتى بأكملها.. ولم أكن أريد الاعتراف بأن صديقى الحميم «يورى» قد مات، لقد كنا من دفعة واحدة ومن نفس السن، وكان شابا جميلا أتذكره عندما قال لى بعد زواجى منذ أربعة أشهر. أسكت عنى ولاتجلب لى الصداع بسيرة الزواج هذا.. وهاهو يورى قد ذهب ولن يتزوج أبدا

إننى أؤكد لكم إن أحدا لايعرف حقيقة الحرب سوانا. إن المعاناة من الغارات ليست هى الحرب.. المسألة هى إما إنك تقع فى الفخ وإما أن تنجو منه.. إن الذى يتردد ثانية واحدة، والذى لايعرف كيف يفكر بسرعة ويتصرف بطريقة أسرع.. فالموت أفضل له.

لقد حكى لى والدى أنه عاش أربعة حروب، فقد كان يقوم بالحراسة فى معسكر صرفند خلال الحرب العالمية الثانية.. وفى أثناء التحرير رحل مع المحاصرين من بن شيمين ورأى أيضا بعض الانفجارات والدانات.. لقد أعطوا حرب التحرير الدامية أهمية كبرى.. واعتبروا معاركها من أعظم معارك التاريخ.. وللسخرية فإن عاما بأكمله من الحرب فى تلك الآونة لم يصل إلى خسائر معركة واحدة من معارك حرب أكتوبر.

إن الحروب تتطور وأنا خائف لقد سمعتهم يقولون إن شباب وأطفال منطقة القناة قد جمعوا صواريخ مضادة للدبابات من طراز «ساجر» أما نحن فلم نمر بذلك أبدا.. وعلى أية حال فإنها مسألة وقت وإننى أعلم جيدا إننى مقتول فى النهاية.. تقولون إننى قد قمت بما فيه الكفاية وينبغى أن أترك مكانى لآخرين ليكملوا الحرب.. إن ما أعلمه جيدا هو إننى سأكون هنا فى الحرب القادمة، ومع ذلك يجب أن تصدقونى

عندما أقول إننى أكره الحرب.. لماذا لأننى قائد مدرعة.. ولأننى طحنت فى ثلاثة حروب وأصبحت لا أخاف كثيرا من الألغام وهذه ميزة لن يجدوها فى أى شئ آخر يرغبون فى تعيينه قائدا لمدرعة.

إننى أذكر أنه فى أثناء إحدى المراحل الأخيرة لخدمة الاحتياط التى قضيناها فى شرق الأردن ـ أن أرسلوا إلينا شابا ليلقى محاضرات عن طبوغرافية هذه المنطقة.. وكم كان هذا الجندى الإسرائيلى متحمسا حتى إنه فى وسط المحاضرة، ومن فرط الحماس، أخذ يحدثنا عن الحرب القادمة وكان يقول: «فى هذه المرة سوف نحتل دمشق» وتمالكت نفسى فى ذلك الوقت حتى لا أصفعه.. والغريب إننى رأيت اليوم بالذات هذا الجندى المتحمس هاوى الحروب الذى كان يلقى علينا محاضراته.. لمحته فى عربة جيب للاستطلاع فى نفس اللحظة التى وصلت فيها إلى المستشفى.. وذكرته بلقائنا الأخير ومحاضرة الطبوغرافيا.. وطلبت منه أن يلقى نظرة على الجرحى الراقدين ثم سألته عن ما إذا كانت الحرب مازالت تثير حماسه مثل الأمس.. وحينئذ زاغ بصره فى الأفق وظهرت عليه علامات الخجل». من مثل هذه المشاعر وهذه التأثيرات تولد الاتجاه نحو السلام.

أما هذه القصة التى ننقلها على لسان أحد المقاتلين الإسرائيليين تروى لنا آثار المفاجأة على المدنيين فى إسرائيل أولئك الذين أرسلوا ذويهم إلى الحرب ظنا منهم إنهم سيعودون إليهم بالمجد وأكاليل الغار ويعيشون باقى حياتهم على ذكرى تلك البطولات... ولكن الحال تغير تماما فى أكتوبر ١٩٧٣ ولم يعد «الأبطال» إلى ذويهم، بل جاء ذويهم إلى الجبهة وخطوط وقف إطلاق النيران يبحثون عن الأبناء المفقودين ويلعنون هذا المجد الزائف الذى ضاع وضاع معه كل شئ... وننتقل إلى كلمات المقاتل الإسرائيلى كما كتبها بالضبط:

وصل عندنا فى الوقت الذى كان فيه الشمس تختفى وراء المبانى، كان رجلا عجوزا ونحيف.. لقد جاء إلينا فى خطوات مترددة وعينيه تنظران إلى نعله البالى.. كان يرتدى بنطلونا مدنيا وسترة وكاسكيت من ذلك الطراز الذى يرتديه العمال الذين جاءوا إلى إسرائيل منذ ٥٠ عاما.. كان رؤيته غريبة فى هذا المكان رجل ظهر فجأة لاتعرف من أين، وجاء ليأخذ معنا الشاى التقليدى بعد وقف إطلاق النيران فى إحدى تلك الأمسيات الهادئة التى أعقبت تلك الحرب الرهيبة.

كنا قد أعتدنا هذا النوع من الزيارات، فقد كان يصل إلينا يومياً شخصاً من هذا الطراز، وكنا نعلم أنه لن يتكلم طوال الدقائق الطويلة، وأنه سيحترق مع الشاى الذى يشربه، وكنا نعلم أيضا إنه سيفترش معنا الأرض الرطبة ويستمع إلينا نتكلم، ولقد كنا نعلم إنه جاء ليبحث عن ابنه المفقود فى الحرب، ولم نكن نلوى عن شئ انتظارا منه أن يبدأ الكلام.. وها هو ذا يضع كوب الشاى على الأرض ويقطع الصمت قائلا: «إنه شاى جيد»... ثم يسكت ليعود هامسا: «هل يعرف أحد منكم «أتزاك».

أما نحن فقد كانت لاتنقصنا الخبرة فى هذه اللعبة البشعة، فأجبنا قائلين. عندنا لم يكن هناك أسرى ولا مفقودين، وليس عندنا فى وحدتنا من يدعى «أتزاك».

كنا نشعر بالحب لمثل هذا الرجل العجوز ونحاول أن نحيى فيه الأمل تدريجيا، ومع أية حال فقد كان هناك عشرات من أمثال «أتزاك» فى كل كتيبة، وكان العجوز يعود قائلا: معى صورة له انظروا.. هذا هو أنا.. أما هذا الصغير فهو أتزاك.

ـ لا.. لانعرفه فهو ليس من كتيبتنا بالقطع.

ـ لاتؤاخذونى فأنا لا أتكلم العبرية جيدا.

ـ لا أهمية لذلك.

ـ لقد جئت من بولندا.. و «أتزاك» هو كل ما أملك فى الدنيا.. والآن لم يعد هناك «أتزاك».. لقد زرت معظم الوحدات وسألت عنه على أمل أن يكون أحدا يعرفه.. لقد كان قائد مدرعة.. ولكنى لا أعلم وحدته.. والآن بدونه ماذا سأفعل أنا فى هذه الحياة.. فى الجيش البولندى كان هناك نظام...

وسألناه: ما أسمك؟

ـ اسمى الياهو.

وكنا نلاحظ إنه يحاول أن يخفى دمعة.. دمعة واحدة تتضمن كل عجز الدنيا.. الناس تصنع الحروب والطائرات والصواريخ، بل إنهم يذهبون إلى القمر... ولكنهم عاجزون عن العثور على «أتزاك».

كان الجو باردا، وأعطاه أحدهم معطفا تركه أحد الجرحى، فشكرنا الرجل الحزين على كل مافعلناه، وابتعد بخطواته الثقيلة متجها إلى مواجهتنا.

ـ ليس من هنا فهذه هى الحدود.. اتجه إلى اليمين.

ـ أنا لن أتجه إلا عندما أجد ابنى «أتزاك».

فى الخندق الذى أقيم فيه، وبالرغم من تعبى وإرهاقى، لم أعد أفكر إلا فى هذا الرجل العجوز «الياهو» الذى جاء إلينا يبحث عن ابنه «أتزاك» المفقود فى الحرب.. إذا ارتفعت كل أصوات الآباء الذين فقدوا أبناءهم فى الحرب إذا ارتفعت تلك الأصوات كالسد المنيع مرددة. لن نتحرك من هنا قبل أن نجد «أتزاك».. فهل سيفهم المسئولون أخيرا أن الحرب حماقة كبرى؟

عدنا إلى تل أبيب فى طائرة.. ينظر أحد الجنود إلى المدينة عندما اقتربنا إليها فيرى الأنوار المبهرة لآلاف من الإعلانات فى أركان المدينة الأربعة، معلنة عن أطعمة أفضل، وفنادق مريحة وغسيل مدهش أو عن فيلم سينمائى.

ويعلم هذا الجندى أنه لن يجد فى تلك «الحفلة» مخبأ يبكى فيه، وخلال لحظات كثيرة يتمنى لو أن الطائرة التى تحمله عادت أدراجها إلى ميدان القتال فهناك يستطيع أن يجلس على هضبة صغيرة بين زملائه الأحياء والأموات ويبكى ويبكي وسط كتل الحديد المتفحم ولكن الطائرة تنزل بين ضجيج المحركات لتنزل منها كتيبة المظلات فوق أسفلت المطار فى مواجهة المدينة الكبيرة.. ولكنهم يتعجبون داخل أنفسهم لماذا لايسرعون إلى ديارهم؟ نحو أسرهم.. نحو اعلانات النيون.. نحو كل هذه الأشياء التى حاربوا من أجلها!

إنهم ليسوا على عجلة من أحدهم.. يقتربون حاملين أمتعتهم على ظهورهم.. يقتربون من عالم الأحياء بخطوات مترددة رتيبة.. يتبادلون السلام فيما بينهم.. وعندئذ تلتقى نظراتهم بطريقة يصعب عليهم التخلص منها.. إن الذكريات التى تبدو فى أعماق هذه العيون لن يستطيعوا أن يحكوها لأحد.. لن يستطيعوا أن يحكوها لزوجاتهم.. ولاحتى أنفسهم.

إن الذى مات فيهم هناك لن يستطيعوا أن يتقاسموه مع أى إنسان آخر.

قتل الخوف من السلام!

سلام بلا حمائم

لم يكن حظ مصر بأقل من حظ إسرائيل فيما قدمته من قرابين لحروب مسعورة ومتتالية:

- حرب ١٩٤٨ (بجانب عدد من الدول العربية)
- حرب ١٩٥٦ (مصر وحدها)
- حرب ١٩٦٧ (مع سوريا والاردن)
- حرب الاستنزاف (مصر وحدها)
- حرب ١٩٧٣ (مع سوريا فقط)

قدمت مصر مايقرب من مائة الف شهيد، والاف الجرحى، وبعد أن كان الجنيه المصرى فى بداية الخمسينات يساوى جنيها استرلينيا وشلنا، تدهور الاقتصاد المصرى بشكل حاد ـ وأساسا بسبب هذه الحروب إلى أن وصل إلى حد الصفر قبل أكتوبر ١٩٧٣.

ومع ذلك كان يمكن أن يستمر هذا الاتجاه ويزداد العناد والتحدى لو لم نكن قد حققنا نصرا فى أكتوبر ١٩٧٣، لأن ماهو اهم بكثير من رغيف الخبز ومصانع الانتاج، هو هذا الكبرياء القومى الذى فقدناه بعد ١٩٦٧ واستعدناه فى ١٩٧٣ .. هو

الإساس الذى لايمكن أن يحقق المجتمع أى انجازات بدونه، وخاصة إذا كان مجتمع يختزن فى اعماقه قدرا هائلا من العراقة والكبرياء الإنسانى.

ومثلما كان السادات رجل نفسه عندما اتخذ قرار الحرب في أكتوبر ١٩٧٣ ، كان السادات ايضا رجل نفسه عندما اتخذ قرار السلام فى نوفمبر ١٩٧٧ .. وكلا القرارين كان أهم أحداث التاريخ المصرى الحديث وكان لهما وقع الزلزال على أشخاص ومجريات المسرح العالمى.

لقد جاءت حرب أكتوبر على عكس إرادة الدولتين العظميين، وعلى خلاف كل التوقعات والحسابات الاستراتيجية وأكدت لدول العالم الثالث إنه يمكنها الاستقلال بارادتها فى هذا الاختيار المصيرى، وانتهت هذه الحرب بنصر مستحيل لم يتوقعه أكثر الاصدقاء تفاؤلا، ولا أكثر الاعداء تشاؤما.. وكان أهم ماخرجنا به من هذه الحرب هو استعادة كبريائنا القومى الذى اهدر فى يونيو ١٩٦٧ ، والذى بدونه لايمكن أن تستمر دولة فى الحياة،.

صقور السلام

من هذا المنطلق فقط عادت إلينا الشخصية المصرية، وعادت إليها اصالتها الحضارية، وعلى عكس مايعتقد الجميع أن الحمائم للسلام، الصقور للحرب، فإن احداث الشرق الأوسط أكدت أن الصقور وحدها فى أركان الحرب والسلام وأن الحمائم هى مجرد زهور زينة لا دور لها فى القرارات المصيرية من حرب أو سلام.

إذا نظرنا إلى حرب عام ١٩٦٧ فإننا سنجد أول نداء للسلام ينطلق من موشيه ديان وزير الدفاع الإسرائيلى وقتذاك، ولم ينطلق بهذا النداء الخطير الا بعد أن اجتاحت جيوش اسرائيل اراضى مصر وسوريا والاردن، وفى اليوم الذى استولت فيه اسرائيل على مدينة القدس.. يومها كان ديان فى اوج ساعات مجده واسرع إلى حائط المبكى بالمدينة المقدسة حيث أذرف دموعا كانت اساسا دموع نشوة وفرح وكتب فوق قطعة من الورق الأمنية التى يطلبها من الله تعالى وكان مكتوبا عليها (اللهم اجعل السلام من نصيب هذه المنطقة من العالم).

كان ديان وقتها فى أوج ساعات مجده، وذروة انتصاراته العسكرية فكان بالقطع قويا وسويا ومن ثم فإنه الاتجاه السوى السليم الذى يطلبه. اتجاه السلام.

عجلة الزمان

ودارت عجلة الزمان ٦ سنوات كاملة وانتقلت مقومات النصر إلى صفوف المصريين وبعد ٦ أيام من انتصارات متوالية اذهلت العدو والصديق.. كان دور السادات أن يقف مزهوا شامخا فى ذروه مجده وانتصاراته العسكرية.. وقف الرجل ايضا قويا، وسويا يطلب السلام.. لم تكن هناك حمائم إذن فى الحرب أو السلام، ولكن صقور الحرب المنتصرة هى نفسها التى كانت تطلب السلام.

وقد يعتقد البعض أن هذا اتجاه غريب من جنرالات الحرب وقادتها ولكن هناك فرق كبير بين جنرالات وقادة الخيانة والسيوف الذين أتوا إلى كتب التاريخ والمتاحف العسكرية وبين جنرالات المعركة الحديثة بأسلحتها الاتية التى اضفت الليكترونيات عليها طابعا سحريا فجعلت منها قوة عنصرية هائلة تستنزف ارواح، ودماء اقتصاد اغنى الدول.

ان الحرب الحديثة بأهوالها وويلاتها جعلت من العسكريين الذين يخوضونها وهذا وجه التناقض ـ اشتد الناس كرها لها، وأكثر الناس رغبة فى السلام.. ولكن فقط عندما لايكون هناك مايخدش الكبرياء الذاتى الذى هو نواة الكبرياء القومى.

ولم يأخذ الإسرائيليون بنداء السادات بالسلام بعد الأيام الستة الأولى من الحرب، وعندما جاءت بعد ذلك معارك ثغرة الدفرسوار فقد جاءت لتؤكد للجانبين ضراوة الحرب الحديثة وضرورة السلام، فقد كانت الخسائر فى هذه المعركة بالذات أكثر من خسائر الحرب كلها.

وكان هذا بمثابة سيناريو عاقل هادف تدبره قوة قدرية معينة لتحقق السلام بين ألد عدوين فوق الكرة الأرضية.

وعندما كانت مصر تحارب لم تكن هناك مشاكل من أى نوع مع اشقائنا العرب وحتى عندما كانت تتوالى عليها الخسائر والهزائم التى كان يمكن أن تقضى تماما

على أى دولة أخرى.. لم تكن هناك أيضا أى مشاكل مع العرب... ولكن مع نداء السلام كانت ـ وللعجب ـ كل أنواع المشاكل.

لقد كان السلام اتجاها مختلفا يخرج بالمنطقة عن اطار الغوغائية التى عاشت فيها عشرات السنين، وجريئا يحتاج إلى رجل لاتوصف شجاعته يقف وحيدا أمام ١٠٠ مليون من بنى امته يعلن عليهم مايراه صوابا رغم إنه يغاير تمام مايدور فى عقولهم.

لو كان الخوف رجلا لقتلته

لم يكن هناك غير هذا الرجل الذى وقف يوما مايقول.. «لو كان الخوف رجلا لقتلته»، كان هذا النمط من الرجال، وهذا النمط من التفكير، هو بالضبط مايحتاجه الرجل الذى سيطير إلى عرين الخصم ويقف أمام الكنيست يذكرهم بحرب أكتوبر وإنه جاء اليهم بهامة تحلق فى السحاب، ولم يكن راكعا أو متوسلا.. فكان سلام أقوياء وعقلاء لايشوبه أى ضعف أو استسلام..

لم يكن سلاما بالوسائل الميكانيكية كما سماه البروفيسير بوفول مؤسس علم البوارلاجى «علم البحث فى أساليب ونتائج الحرب» ويقصد به السلام الذى تنشده منظمة الأمم المتحدة التى تقف بإمكانيات محدودة لتحقيق هذا الهدف السامى، والتى لم يساندها مؤسسوها كما ينبغى.

المنظمة الدولية بلا أسنان

إن الجمعية العامة التى هى أساس منظمة الأمم المتحدة، هى هيئة استشارية وليست تشريعية، وبالتالى فإن توصياتها ليست ملزمة وكثيرا ماضرب بها عرض الحائط علنا وتكرارا كما اعتادت أن تفعل اسرائيل، كذلك فإن قراراتها تأتى أحيانا بعيدة عن المنطق والعدل، وبناء على المصالح والاتصالات الدولية، كما أن حق الفيتو الذى تتمتع به الدول الخمس الكبرى يؤدى أحيانا إلى الارباك بل والظلم أيضا فى مجلس الأمن.

وفوق كل هذا فإن منظمة الأمم المتحدة تفتقر إلى الوسائل المباشرة التى تمكنها من تنفيذ قراراتها إذا ماتطلب الأمر ذلك، كما أن قواتها العسكرية اختيارية فقط، يشترك فيها بصفة عامة عدد من الدول الصغرى بما يترتب على ذلك من نتائج عشوائية ومشاكل لايمكن حسابها، وبالتالى فإنها منظمة «بلا أسنان».

ولعل الصراع العربى الإسرائيلى كان من أبرز المشاكل التى لم تلعب فيها الأمم المتحدة دوراً فعالا، ومن بين المشاكل الأخرى حرب الجزائر سنة ١٩٥٤، والحرب الفيتنامية الأولى مع فرنسا، والثانية ضد الامريكيين، ومشكلة برلين عام ١٩٦٠ ومشكلة كوبا سنة ١٩٦٢، ومشكلة الاردن ولبنان سنة ١٩٥٨، وغزو السوفيت للمجر سنة ١٩٥٦، وغزو السوفيت لتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨، كما أنها لم تلعب أى دور فى الخلافات العالمية الكبيرة مثلا الخلاف بين انجلترا والارجنتين حول جزر فوكلاند، والخلاف العالمى الحالى حول حقوق الصيد فى المياة الاقليمية، ومشكلة قبرص، والكونجو البلجيكى، وجنوب افريقيا... إلخ..

صراعات ومشاكل كثيرة لم تفعل الأمم المتحدة حيالها شيئا ومع ذلك فإن العرب مازالوا يتمسكون بها ويحجمون عن الاقتراب المباشر لحل مشاكلهم رغم المتاهات الهائلة التى دخلوا فيها بسبب تفسير قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢.

لم يكن السادات لينتظر حتى يغير العالم من منظمته الدولية ويجعل منها إداة نشطة وفعالة لحل النزاعات الدولية.. لم يكن لينتظر هذا واستقل طائرته متجها إلى عرين الخصم وخاطب المجتمع الإسرائيلى، ومن ورائه العالم مباشرة، ومن هنا فإن السلام الذى توصلنا إليه كان من نوع خاص لإنه جاء نتيجة اقتناع كامل من الجانبين.. وهاهو السادات يلقى استقبال الابطال فى اسرائيل بين دموع وأفراح كل طوائف الشعب الإسرائيلى، ثم هاهو يعود إلى القاهرة فتخرج عن بكرة ابيها دون تنظيم أو تخطيط، تنقل إليه رسالة معلنة: «إننا معك ولقد قمت بما ينبغى القيام به».. بعدها أصبح الرئيس ضمير الشعب وزعيماً يستشعر رغبات الأغلبية من بنى وطنه ويقوم بتحقيقها.

مصر والاختيار العسكرى

ولذلك فإنه إذا كان البروفسير بوفول يقول فى كتابه الشهير «٨ آلاف معاهدة سلام» إنه خلال الاربعة الاف سنة التى سجلها التاريخ الإنسان تم توقيع معاهدة سلام بمعدل كل ستة أشهر تقريبا وأن أى منها لم تؤد إلى سلام بين الاطراف المباشرة للمعاهدة إذا كان التاريخ يقول لنا ذلك، فإن الحاضر والمستقبل شيئا آخرا، لأن الحاضر

بما يطويه من مخاوف من الحرب الذرية ـ التى اشرفت عليها منطقة الشرق الأوسط ـ بل ومن الحرب التقليدية كما شرحناها فى الأجزاء السابقة من هذا الكتاب وبما وصلت إليه من قدرة هائلة على التدمير تقترب من الاسلحة الذرية المحدودة.. هذا الحاضر يفرض السلام فرضا على العقلاء ولاشك أن المستقبل سيكون أكثر تطلبا لهذه الضرورة الملحة.

وبعد ذلك يظل سؤال هام: هل خرجت مصر من اطار الصراع المسلح وهل فقدت الاختيار العسكرى.

لو فعلت مصر ذلك فمعناه أنها تعيش فى خيال مثالى لايتماشى مع وقائع الحياة التى نعيشها، ولايتوائم مع روح العصر الذى نحياه.

إن استراتيجية السلام التى تتبعها مصر يمكن القول إنها تقوم على المثل الرومانى الشهير. «عندما تعمل للسلام استعد للحرب» وعلى ذلك فإن مصر تواصل تسليحها من الشرق والغرب سعيا لتوفير احدث الاسلحة لقواتنا المسلحة مع تنويع مصادرها بعد الدرس المرير الذى لقنه لنا السوفييت.

إن مصر السلام مازالت تقطع جزءاً كبيراً من قوت ابنائها لتدعيم قواتها بالاسلحة المناسبة والقادرة على ردع أى مغامر فنحن لم ننفصل عن الواقع ونعلم تماما مايجرى حولنا بل إننا من واقع خبراتنا العميقة فى هذا المجال، استطعنا أن نقنع العالم بوجهة نظرنا فى الأحداث ونلفت انظاره إلى المناورات والنفاقات التى غابت عن أذهان الدول الكبرى.

وإذا كان المفكر المسكرى الشهير كلاوزفتز قال مبدأه الذائع «إن الهجوم هو خير وسائل الدفاع» فإن روح العصر وتجربة أكتوبر ٧٣ تؤكد أن حقيقة أخرى مؤداها «إن السلام المتكافىء هو خير وسائل الدفاع» صحيح أن الانجاز الأول حققناه بالصراع المسلح بعد اقتحام قناة السويس بالقوة العسكرية المسلحة، ولكنه صحيح أيضا أن السلام أعاد لنا باقى أراضى سيناء بالدبلوماسية القوية التى ترتكز على إنجاز عسكرى من الطراز الأول أعاد لنا هيبتنا على مستوى العالم ـ وأهم من ذلك أعادت لأنفسنا الثقة والاحترام لم تكن رحلة أو نزهة ولكنها ملحمة طويلة من الصراع العسكرى

والدبلوماسى والفكرى.. صراع لن يتوقف لأن الصراع هو جوهر الحياة.. صراع لايتوقف باختفاء القادة والزعماء الذين قادوه حقبة معينة من الزمان ـ كما حدث بعد استشهاد أنور السادات ـ ولكنه يستمر من خلال أبطال وقادة جدد، يستمر طالما استمرت الحياة.

الشجعان والصقور!

قافلة الشجعان

سر الشجاعة الإنسانية هو من بين تلك الأسرار الغامضة فى الحياة وبشكل عام منذ بداية الوجود الإنسانى وحتى يومنا هذا لا أحد يعرف على وجه الدقة ما الذى يجعل من بعض الناس شجعانا وعمالقة؟ وما هذا الذى ينقص المرتعدين والاقزام؟ فى ذلك يقول لنا علم النفس «إن الشجاعة هى تلك القدرة المميزة التى تجعل الإنسان الفرد قادراً على التغلب على الخوف والرعب الذى يدهم الإنسان العادى ويقعده عن الحركة والعمل» وفى أغلب الأوقات فإن أولئك البشر الذين يظهرون قدراً هائلاً من المناعة والحصانة عند مجابهة المواقف المثيرة للخوف ـ هم أولئك الذين تتميز شخصياتهم بقدر كبير من البساطة، وليسوا بالضرورة أولئك الذين يتخيلهم العامة كشخصيات بطولية!!

وإذا ما تركنا العامة تتصور ما تشاء، طالما كانت بطبيعتها تعزف عن التعمق فى طبيعة الأشياء بحثاً عن الحقائق والإجابات الشافية، فإن الشجاعة لا تعنى أبداً عدم ممارسة الخوف ولكنها تعنى فى المقام الأول إن من يتمتعون بهذه الخاصية هم نوعية خاصة من البشر قادرة على مجابهة كل الأخطار رغم الخوف الذين يشعرون به كسائر البشر. وعلى أية حال فإن ظاهرة الشجاعة هى من الظواهر المركبة إلى الحد الذى يستحيل معه الشرح أو التعريف عن طريق نظرية واحدة بسيطة من نظريات علم النفس. وقد يكون من ضرب المحال أن نتنبأ بسلوك إنسان معين فى حالة الأزمات ووقتها فقط نستطيع أن نرى رد فعل هذا الإنسان، وذلك لأن عوامل كثيرة ستتفاعل عند هذه اللحظة من الزمن.

والكثير من هذه العوامل يكمن فى عقلنا الباطن الذى يقوم أساساً على تجارب الماضى، والقيم الإنسانية وإحتياجات المرء، ونقاط القوة والضعف فى شخصية الإنسان.. وبايجاز تام يمكننا القول إنه فى لحظة الأزمات والمواقف الصعبة تتركز وتتبلور كل مكونات الإنسان الفرد... فتلك هى لحظة الحقيقة التى يكتشف فيها الإنسان ماهيته وطبيعته... وهنا - فى معظم الوقت - تكون المفاجأة الكبرى؟.

وليعذرنى القارىء لهذا المدخل الطويل ولكننى لم أجد غيره مدخلاً للتحدث عن عملية السلام فى الشرق الأوسط والذى وافق بعد سنوات على توقيعها من كل من الزعيم المصرى الراحل انور السادات ورئيس الوزراء الاسرائيلى مناحم بيجين والرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر... المعاهدة التى غيرت - كما يقول الكاتب الامريكى ويليام كوانت - جذور الخريطة الاستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط.

فى هذا اليوم كنت هناك فى واشنطن وداخل البيت الأبيض الامريكى حيث تمت مراسم التوقيع داخل حديقة هذا المقر لرئيس أقوى دولة فى العالم.

واتذكر جيداً هذا الهرج والصراخ الذى كان يدور خارج أسوار البيت الأبيض الامريكى والمظاهرة الرخيصة التى كانت تهتف «بالخيانة» وبيع القضية وتحول الصراخ إلى نوع من عويل النساء العاجزات فى الوقت ذاته، وهنا اتذكر جيداً كيف ابتسم السادات بمرارة وامسك بالقلم ووقع على الاتفاقية التاريخية وهو يدرك تماماً أنه يفتح الهويس لمجرى التاريخ وتياره الذى لا يمكن أن يقف أمامه إنسان، أو مجتمع أو حتى دولة بأكملها.

كنت أقف فى هذه اللحظة داخل حديقة البيت الأبيض الامريكى أشعر تماماً بحسم اللحظة ووطأة تاريخ طويل، وحاضر عنيف ومستقبل رحبَ ممتد، وبعد أن وقع السادات المعاهدة كان يقف بجوارى المهندس عثمان أحمد عثمان وحسن كامل وزير رئاسة الجمهورية فى ذلك الوقت وكلاهما لا يعرفاننى - ولا يعرفاننى حتى يومنا هذا - وظنا أننى أحد الأجانب الذين لن يفهموا ما يقولانه باللغة العربية... وإلى يومنا هذا مازالت ترن فى أذنى كلمات اثنين من أقرب الناس إلى الزعيم الراحل.... قال أحدهما «لا اتذكر أيهما»: «مش ممكن... مش ممكن يكون فيه راجل فى العالم كله

بالشجاعة دى، ورد عليه الوزير الآخر: «ده خرافه... ده مش لحم ودم زينا ده حاجة ثانية خالص.. كنت أقف بجوارهما صامتا طوال هذا الوقت ولم أرد أن أظهر لهما أننى مصرى مثلهما وأفهم وأشعر تماماً بما يقولانه... وربما كانت هذه هى أول قصة أنشرها فى حياتى الصحفية دون أن استأذن صاحبها.. فمعذرة لكليهما مع كامل التقدير.

أردت هنا فقط أن أقول أن المخاوف كانت موجودة فى ذلك اليوم، مثلما كانت موجودة بالقطع يوم أن استقل الرجل طائرته وهبط بها فى مطار بن جوريون... المخاوف لابد وأنها كانت موجودة ولكن كانت هناك أيضاً تلك الشجاعة الإنسانية التى تستطيع وحدها هزيمة المخاوف والإنطلاق إلى آفاق المستقبل.

وقد كان كل هذا يمكن أن يندثر وتندثر معه مصداقيتنا أمام العالم كله - وأسوأ من هذا أمام أنفسنا - إذا ما كان الرئيس الذى جاء بعد السادات لا يتمتع بنفس القدر من الشجاعة فاستطاع أن يلتزم بما تعهدنا به أمام العالم كله وأن يعمل فى صبر وثقة وبهدوء شديد على ترسيخ عملية السلام وإضفاء طابع الاستمرارية - الذى كان يخشى عليه الجميع - وكما قلنا فى بداية هذا المقال عن ارتباط الشجاعة بالبساطة فكم كان الرئيس مبارك بسيطاً ومؤثراً خلال حديثه مع مجموعة من الصحفيين الاسرائيليين، وجاء أحدهم يسألنى كيف استطاع السادات أن يكتشف مبكراً مميزات الرئيس مبارك؟ فأجبت عليه دون تردد: «لأنه اثبت شجاعة هائلة وقدرة على مواجهة الأخطار والمخاوف... وعلى وجه التحديد يوم ١٩ اكتوبر ١٩٧٣ بشجاعة الرجلين معاً... وعدد آخرر من القادة حسمنا حرب أكتوبر فى هذا اليوم لصالحنا.... وبدأت الخريطة القديمة كلها تتهاوى بلا رجعة».

معذرة مرة أخرى فلا يمكن أن نتحدث عن السلام دون أن نتذكر الحرب ومن تجربتنا هنا وهى تجربة غنية حقاً فلم يحدث أن خاضت دولة غمار ستة حروب فى غضون خمسة وعشرين عاماً «بمعدل حرب كل أربعة سنوات» غير مصر... بل إنه فى إحدى هذه الحروب كانت مصر تقف وحدها فى الميدان أمام بريطانيا العظمى وفرنسا الكبرى واسرائيل، ولذلك فإن لدينا الكثير من الخبرات فى هذا المجال ومن أولى هذه الخبرات أن المقاتل الجيد هو أكثر الناس حباً للسلام وأن شجاعته تظهر

واضحة فى كلا المجالين ومن أعجب ما شاهدناه فى هذا الإطار أن أولئك الذين لم يحسنوا الأداء فى الحرب تجدهم أشد الناس كرهاً للسلام... وتجدهم يسعون لحرب جديدة كما لو كانوا يريدون أن يعوضوا إخفاقاً شخصياً ولو على حساب المجتمع والدولة بأكملها... وهم لا يعرفون ولا يدركون أن إعادة سيناريو الأحداث معناه إعادة نفس الأداء وإن خداع النفس هو أسوأ أنواع الخداع.

لذلك كله فقد رأينا أن صقور الحرب هم أنفسهم الذين يصنعون السلام لهم وحدهم يملكون الشجاعة والقدرة على إتخاذ القرار وتحريك الأحداث وفى هذا الإطار رأينا من الجانبين المصرى والاسرائيلى أكبر وأكفأ القادة العسكريين يشتركون بحماس شديد فى عملية السلام بين البلدين بل إن اللجنة العسكرية المشتركة بين مصر واسرائيل تؤدى عملها بحماس ملحوظ وتتعدى كل العقبات بشكل لا يتصوره أحد فى سبيل تحقيق السلام، وعلى الجانب الآخر فقد كانت الاجراءات تتعثر بعض الشيء وتستغرق وقتاً طويلاً مع الدبلوماسيين ورجال الماون من البلدين.

ومع ذلك فلا يمكننا أن ننسى رجالاً لم يعرفوا القتال يوماً ولكن كانت شجاعتهم وقدرتهم على تصور الأمور فى إطارها الصحيح على درجة عالية من الفاعلية والتأثير وفى مقدمة هؤلاء كان ولابد أن نرى الكاتب العملاق نجيب محفوظ فمن يمكن أن يكون أكثر إنسانية من أديب فيلسوف على هذا القدر من العمق فى المعرفة والطبيعة الإنسانية.

ولا يمكن أن ننسى رجلاً من طراز آخر هو المهندس مصطفى خليل الذى ما أن سمع عن قرار السادات بالتوجه إلى قلب اسرائيل حتى أرسل برقية إلى الرئيس المصرى يطلب منه أن يكون معه فى نفس هذه الرحلة التى كانت تعتبر مخاطرة جسيمة فى ذلك الوقت.. لم يكن هناك ما يدعو الرجل لهذا العمل اللهم إلا إحساسه بالمسئولية وبالشجاعة الكافية لقهر الخوف الذى عاش الكثيرون فى احضانه سنوات طويلة.

وهناك الكاتب الصحفى الكبير لطفى الخولى الذى تصدى بشجاعة مسانداً لحركة السلام وصمد بشموخ أمام صغائر البعض وتهديدات من اسماهم بالجالسين على

الرصيف السياسى والحالمين بواقع غير الواقع الذى نعيش فيه فى نهاية القرن العشرين .

وفى الحقل الدبلوماسى هنا كثيرون أيضاً يأتى فى مقدمتهم - فى رأيى السفير سعد مرتضى أول سفير لمصر فى اسرائيل والذى تطوع لشغل هذا المنصب الخطر فى وقت كان فيه المرتجفون يهددون بقتل وسفك دماء كل من يشترك ويساعد فى عملية السلام.

أسماء الشجعان كثيرة والحمد لله فى مصر.. شجعان استطاعوا أن يقهروا المخاوف التى عشنا فى فلكها سنوات طويلة وبذلك استطاعوا أن ينجوا من العجز والشلل الذى يصيب المرتجفين ويقعد حركة التاريخ.

إن عملية السلام نجحت بفضل كل الشجعان الذين ساهموا فيها من هنا وهناك... نعم فقد كان هناك شجعان على الجانب الاسرائيلى كان على رأسهم أيضاً صقور الحرب من أمثال ديان ووايزمان ورابين وابراشا شامير إلخ. وأعضاء حركة السلام الآن ،وكلهم من رجال الاحتياط، وذلك على عكس المرتجفين أيضاً داخل المجتمع الاسرائيلى من أمثال حركة ،جوش امونين، ومعارضى الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة وآخرين على قمة الادارة الاسرائيلية.

وحتى الآن فإننا لم نذكر اشجع الجميع الذى استطاع فعلاً أن يطلق العنان لرياح التاريخ فإمتلأت الاشرعة وتحركت القافلة إلى الأمام... أشجع الجميع هو أكثرهم عقلاً وحكمة وصمتاً.. هو الوحيد الذى كان يخشاه السادات وقرر أن يتفادى مقابلته بعد العودة من الرحلة إلى اسرائيل ولذلك قرر أن يهبط بطائرته فى إحدى القواعد الجوية القريبة من بلده ميت أبو الكوم، ولكن الرئيس مبارك اتصل به لاسلكيا فى الجو وطلب منه ضرورة المجىء إلى القاهرة... القلب النابض لهذا الكيان العملاق الذى كان يخشاه السادات... وعندما وصل الرجل متحلياً بالشجاعة مرة أخرى... فوجىء بأن الشعب المصرى ذلك الكيان العملاق الشجاع خرج عن بكرة أبيه - لأول مرة بمحض إرادته الحرة - فى الشوارع والشرفات يهتف ويصفق ويحسم حركة السلام....

ومرة أخرى نذكر بالعلاقة بين البساطة والشجاعة والبطولة الحقيقية، فالشعب المصرى معروف ببساطته المتناهية.

حتى آخر مليمتر!

نعم... إن مساحة طابا على الخريطة لا تتعدى مليمتراً واحداً، ولكن الأحداث وتطوراتها منذ عملية السلام بين مصر واسرائيل دفعت بإسم طابا دفعاً إلى مسرح الحياة السياسية والمصالح الوطنية العليا. ويهمنا هنا أن نقول إن المصلحة الوطنية هى عبارة جادة وضخمة وعملية قد يصعب تحديدها بكل دقة وموضوعية إذا ما تعرض صاحب القرار - أو خضع - للانفعالات العاطفية والمشاعر الملتهبة الساخنة التى يتميز بها سكان منطقة الشرق الأوسط، ولكن فى جميع الأحوال فإن علم السياسة الحديث يؤكد أن المصلحة الوطنية لأى دولة هى ذات ما تقرره تلك الدولة من خلال عملية صنع القرار السياسى.... ومن هنا فإنها عملية قيادية تعتمد إلى درجة بعيدة على طبيعة وشخصية صانع القرار.

وفى مجال سياسات الدولة بشكل عام، فإن عملية تحديد المصلحة القومية حول أى مسألة كبيرة هى حقاً وبكل صدق عملية صعبة ومعقدة بل وبالغة الحساسية لأنه ينبغى فى هذه الحالة على القادة وصناع القرار أن يوفقوا بين مصالح مختلفة ومتعددة، بل وقد تكون مصالح متضاربة داخل الدولة الواحدة ويزيد من صعوبة هذا الموقف الشائك أن يكون المجتمع صاحب القضية متعدد الميول ويتمتع بكامل حرياته الأساسية فى إطار أنظمة الحكم الديمقراطى. وفى ذلك لا ننسى عبارة قالها أحد السياسيين الامريكيين القدامى تقول: «فى البلدان الديمقراطية ترفض الغالبية العظمى من المواطنين الانتظار إلى ما بعد إنتهاء المباحثات أو ظهور نتائج السياسات التى

تتبعها الدولة، كذلك تطالب تلك الغالبية العظمى بمعرفة كل ما يجرى وتوفير كل الفرص لهم للإعراب عن رأيهم فى جميع المراحل الحساسة والحرجة التى تشملها العملية الدبلوماسية».

هذا عن المجتمع الديمقراطى الذى مارس هذا النمط من نظام الحكم والسياسة لفترات طويلة قد تمتد إلى بداية تاريخ الدولة ذاتها، ولكن إذا ما كان المجتمع يمارس الديمقراطية لأول مرة بعد سنوات طويلة طويلة من الحكم الشمولى والقمع أو الحكم الدكتاتورى أو أى شكل من حكم الفرد الواحد بدون أى مؤسسات تؤازره أو تعارضه، فإنه فى هذه الحالة تصبح العملية السياسية كلها وعمليات تحديد المصالح الوطنية وعملية صنع القرار... كل هذا يصبح على درجة هائلة من التعقيد والصعوبة فالمجتمع الذى حصل على حرياته حديثاً - مثلما يحدث الآن عندنا - يمكن أن يهدر كالشلالات العنيفة سنوات طويلة قبل أن يهدأ ويتمتع باستقرار وراحة النظام الديمقراطى.... هذا النظام الذى أصبح حتمياً فى مصر بعد أن أعلن الرئيس مبارك مراراً تمسكه بالتجربة الديمقراطية رغم كل التجاوزات والممارسات التى لا تصدق من جانب بعض أجنحة المعارضة حتى فى أحرج المواقف التى قد تمس الأمن القومى والمصلحة العليا لمصر.

وأتذكر هنا أن زارنى يوماً صحفى أجنبى وشاهد أمام مكتبى مجموعة من صحف المعارضة وطلب منى أن اترجم له ما نشرته بعض هذه الصحف من مانشيتات كبيرة باللون الأحمر الذى يستهوينا «كما أشار لأول مرة شاعرنا الكبير نزار قبانى»، وبعد أن فرغت من الترجمة بكل أمانة قال لى الزميل الذى يعمل فى دولة عرفت الديمقراطية والحريات طوال تاريخها: «إن هذه الصحف لا يمكن أن تصدر فى بلدى، وإن كل هذه الكتابات ليست من قبيل حرية الصحافة فى شىء ولكنها عملية تحريض بالدرجة الأولى يعاقب عليها القانون بكل حزم وصرامة».

وإذا ما طبقنا تلك المبادىء العامة السالف ذكرها عن المصالح الوطنية على مسألة طابا، فإن صانع القرار خلال هذه الأزمة هو بلا شك الرئيس مبارك الذى أدار هذه العملية منذ عام ١٩٨٢ وحتى إنتهت، وإنعكست على وسائل الادارة والمعالجة وصنع القرار - فيما يختص بأزمة طابا - الطبيعة والصفات الشخصية للرئيس الهادىء الذى

نعرف عنه الصبر إلى أقصى حد، والصمت، والبعد تماماً عن الميول الاستعراضية، وهدوء الاعصاب، وقدرة حقيقية على الانتظار حتى يأتى التيار - كما يقول المثل الصينى - بجثة عدوك يوما ما.

إن أزمة طابا لابد وأن تحتل فصلاً هاماً من فصول تاريخنا القومى وإذا كان التاريخ، كما يقولون، هو تمهيد للمستقبل، فإن المستقبل بذلك لابد وأن يكون نهجاً من إمعان العقل، والاتزان، والعصرية والبعد تماماً عن الانفعالات والتشنجات التى لم تأت إلينا إلا بالخراب والتدهور.

فى هذا الإطار وخلال أزمة طابا خرجت بعض أجنحة المعارضة وبطريقة فجة، كما لو كانت اكتشفت «خيانة عظمى» لتصب إنتقاداتها على الحكومة وسياساتها فيما يختص بعملية السلام...

كانت الأمور أقرب إلى الشماتة، وتصفية الحسابات، ومحاولات التجريح المؤلم أقرب منها إلى الحرص على المصالح القومية والتراب الوطنى، وفى ذلك، وكما تشهد ارشيفات دور الصحف، خرجت علينا بعض صحف المعارضة بقصص ساذجة عن الأوضاع فى طابا أقرب إلى أساطير ألف ليلة وليلة. وبين يوم وليلة أصبحت تلك الرقعة من الأرض التى تطل على ساحل خليج العقبة بمواجهة طولها ٩٦٢ متراً قد أصبحت فجأة هى المفتاح السحرى للماضى والحاضر والمستقبل وهى الأرض العربية من الخليج إلى المحيط، وذلك رغم أنه كان هناك ١٤ موقعاً مختلفاً عليها بين مصر واسرائيل وكان بعض هذه المواقع أكبر وأخطر بكثير من موقع طابا مثل علامة الحدود رقم ٨٥، ٢٣٧١ متراً، وعلامة الحدود رقم ٨٦، ١٧٤٠ متراً، وعلامة الحدود رقم ٨٧، ١٦٥٥ متراً؟؟.

مبالغات ومبالغات لم يكن لها أى فائدة عملية اللهم إلا محاولة البعض فى الجانب الآخر استغلالها للضغط على المفاوض المصرى، ومن أغرب ما حدث فى هذا المضمار أن مراسلى الصحف العربية فى القاهرة وقبل عودة العلاقات بين مصر والعرب كانوا يكبرون ويضخمون من أزمة طابا إرضاء لمن استوظفوهم حتى إن أحدهم كتب لإحدى صحف الخليج عن معارك وهمية نشبت فى طابا وسيناء...

ووصل الحد إلى نشر قصص بهذه الصحف عن معارك جوية بين طائرات القتال المصرية والاسرائيلية! وقصة أخرى عن بناء فندق ثان فى طابا! وذلك ضد كل قواعد الأمانة الصحفية فى محاولة رخيصة لإرضاء المسئولين عن هذه الصحف. وكم كان موقف هؤلاء مخزياً بعد عودة العلاقات بين مصر والدول العربية... وكم كان موقفهم أكثر خزياً بعد الأخذ بإتجاه السلام كحل للمشكلة الفلسطينية.

ويقول علم السياسة الحديث إن البقاء المادى للأمة أو الدولة يأتى على رأس المصالح الوطنية لهذه الدولة، وتأتى فى المرتبة الثانية السيادة على التراب الوطنى وتوفير الأمن لمختلف أراضى الدولة... وتأتى بعد ذلك مصالح وطنية كثيرة ولكن بالطبع فإن هذه المصالح ليست متساوية من حيث الأهمية بل إن بعضها قد يكون غير صحيح أو مبالغاً فيه، لذلك فقد لاحظ المفكرون السياسيون أن هناك إسرافاً - وخاصة بين دول العالم الثالث - فى استخدامات وتعريف «المصالح الحيوية»، ومن هنا فإن تلك المصالح ينبغى أن تقتصر على تلك الأمور التى إن تعرضت لأى مساس فإن الدولة تهب فوراً للقتال والحرب دفاعاً عن بقائها وكيانها. وقد مارسنا هذا الموقف ذاته فى مصر خلال السنوات الأخيرة عندما نهضنا فى عملية هجومية من الدرجة الأولى سبق تخطيطها بعناية فائقة واقتحمنا خلالها قناة السويس وخط بارليف فى إطار عمليات حرب أكتوبر ٧٣... أولاً لاسترداد الأرض المحتلة... وثانياً ،وهو الأهم فى رأيى. لاستعادة هيبة الدولة والكرامة الوطنية، كذلك مارسنا نفس هذا الموقف الجاد والخطير عندما أعلنت مصر على لسان رئيسها إنها لن تسمح أبداً بالعبث بمياه النيل وإن أى عبث فى هذا الشريان الرئيسى للحياة. معناه الحرب فوراً.

ومما لا شك فيه أن هناك علاقة قوية بين قوة الدولة ومصالحها الحيوية، فقد تكون الدولة من القوة بحيث تمد مصالحها الحيوية إلى أرجاء بعيدة فى العالم لا تمتلكها أصلاً، والعكس صحيح تماماً، كذلك قد يحيط سوء الفهم وسوء تقدير النتائج بهذه العملية الحساسة كما يحدث فى بلدان كثيرة بمنطقة الشرق الأوسط والعالم الثالث عندما تعقد إحدى الدول حلفا أو تحاول استعراض قوتها بأن تعلن تلك العبارة الشهيرة أن أى عدوان على دولة معينة هو عدوان علينا، فى ذلك يجدر بأصحاب مثل هذا

القرار أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال الهام: لماذا يزجون ببلادهم إلى حرب دفاعاً عن دولة أخرى قد تكون هي الدولة المعتدية أو دولة صانعة اضطرابات كما حدث بمنطقتنا في الماضي القريب، ومازال يحدث حتى يومنا هذا.

من هذا المنطلق فإن أسلوب إدارة أزمة طابا كان أسلوباً مختلفاً بالمرة .... أسلوباً جديداً تماماً على المنطقة أسلوباً متحضراً أبتعد تماماً عن الانفعالات التي هي في الحقيقة مظهر مؤكد للعجز والضعف البشري.... في البداية اتممنا عملية الإنسحاب النهائي للقوات الاسرائيلية في سيناء وإعتبرنا منطقة طابا و ١٤ منطقة أخرى على الحدود بين البلدين كانت عبارة عن «مناطق مختلف عليها»، ثم لجأنا إلى التحكيم بإصرار من الرئيس مبارك بدلاً من مبدأ التوفيق الذي رفضه الرئيس تماماً خلال إدارته الصامتة الهادئة لتلك الأزمة، وكان أن صدر الحكم لصالحنا مؤكداً حقنا في السيادة على أرض طابا و ١٠ مناطق أخرى من الأراضي المختلف عليها ودخلنا في مفاوضات التعويضات المالية عن الفندق والمنشآت السياحية بالمنطقة وإتفقنا على كل شيء بما في ذلك إمتداد خط الحدود من العلامة «٩١» على استقامته إلى ساحل خليج العقبة، ثم كان ان أعلنت اسرائيل قرارها بالإنسحاب من هذه المنطقة يوم ١٥ مارس ١٩٨٩، وبذلك يكون الموقف وأسلوب الحل الذي إتبع في طابا مختلفا تماما عن أسلوب الحل الأهوج الذي إتبع شمالاً في «ياميت» حيث قامت بلدوزرات إسرائيل بهدم المنشآت وكل شيء حتى لا نستفيد منه.. رغم أن مصر عرضت تعويض إسرائيل بقيمة هذه المنشآت.

وعلى أية حال نعود إلى علم السياسة الحديث الذي يتسم بكثير من البرجمانية التي تعترف بأنه لا يمكن لأي دولة أن تتمسك... بجميع مصالحها الحيوية في جميع الظروف، وأنه عندما تتعارض مصالح دولتين وتتفاقم الأوضاع إلى حد الخطر فإن الحل العاقل هو التوصل إلى حل سلمي وسط لأن القوة التدميرية التي تتميز بها الآن أسلحة القتال الحديثة جعلت من السلام ذاته مصلحة حيوية لأي دولة... مصلحة يجب الحفاظ عليها بكل قوة.

وهنا يجمع جميع المراقبين العسكريين والمعاهد الاستراتيجية الدولية بل وتصريحات القادة المصريين أنفسهم أكثر من مرة ـ على أن مصر وقواتها المسلحة

الآن أقوى بكثير جداً مما كانت عليه فى أكتوبر ٧٣ أو فى أى وقت مضى - ومعنى هذا أننا طوال الفترة التى أدارة خلالها مصر أزمة طابا، لم نكن نتفاوض أبداً من منطلق الضعفاء أو المستسلمين، ولكن من منطلق حضارى واقعى يدرك حقيقة الأوضاع وأبعاد الحرب الحديثة التى للأسف لا يعى حقائقها وأبعادها إلا العسكريون المحترفون وأولئك الدارسون المهتمون بالشئون العسكرية والاستراتيجية.

وفى ذلك فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن الرئيس مبارك هو واحد من أفضل القادة العسكريين الذين أنجبتهم مصر، وتدرج فى حياته العسكرية من رتبة الملازم إلى رتبة الفريق محافظاً على أدائه المتميز طوال هذه الفترة ومختتماً حياته العسكرية بأول نصر عسكرى على اسرائيل، بل وقائداً للقوات التى جابهت عنصر القوة الأول الذى تعتمد عليه اسرائيل. وفى معركة طابا استطاع مبارك أن يحقق الهدف المستحيل كما يقول المفكرون الاستراتيجيون عندما استعاد أجزاء من أرضه وتجنب فى الوقت ذاته الحرب أو مجرد التلويح بها رغم صعوبة المفاوضات، وطول الفترة الزمنية التى استغرقتها... فالحرب كما يقول المفكرون المعاصرون هى أخطر مرض يصيب نظام الدولة، ويزيد من خطورة هذا المرض الذى لازم البشرية منذ نشأتها وحتى يومنا هذا وللأسف لسنوات طويلة فى المستقبل - يزيد من هذه الخطورة - التطور الرهيب للاسلحة التقليدية الحديثة التى تقارب قوة تدميرها قوة الأسلحة الذرية التكتيكية، ومن المفارقات المأساوية فى تاريخ الصراع الإنسانى أن كثيراً من الحروب، بل إن معظم الحروب لم يستطع أن يحقق المصالح الحيوية المنشودة لكل طرف، ولم تكن هذه الحروب فى معظمها - كما يقول لنا التاريخ القديم والحديث - أكثر من طموح عنيد وملح لحاكم أو قائد رأى فى نفسه ما لا يراه غيره!

كذلك ينبغى أن نعى جيداً ما يقوله المفكرون السياسيون والعسكريون حيث أن القوة فى حد ذاتها تعتبر من المصالح الحيوية، وأن جميع الدول تسعى للحفاظ عليها، ولكن فى الوقت ذاته هناك من المسئولين من تستبد بهم مشاعر القوة إلى حد التورط فى إشعال الحروب هنا وهناك. ويقول التاريخ أن أمثال هؤلاء هم قادة ضعفاء الطبيعة وضعفاء فى تكوينهم العقلى والشخصى وأنهم ينتهون عادة نهايات مأساوية بعد أن يجروا مجتمعاتهم إلى سفح الخراب.

ومن ناحية أخرى هناك أيضاً ذلك الطراز من القادة الذين يتكلمون بهدوء وأدب شديدين، لكنهم فى الوقت ذاته يحملون فى أيديهم «عصا قوية» كما قال الرئيس الامريكى الأسبق تيودور روزفلت... وهذا بالضبط هو المفهوم الغربى والعصرى للقوة: أن تكون هادئاً ومهذباً وفى الوقت ذاته تكون يدك الأخرى تحمل سلاحاً قوياً رادعاً.

ومع تطور سبل ووسائل الصراع الإنسانى أصبحت القوة العسكرية ـ كما تقول الدراسات الحديثة ـ ليست وحدها صاحبة الوزن الكبير لأى دولة لأنها فى الحقيقة ليست وحدها هى المكون الأساسى للقوة الوطنية، وبناء على تجربة طابا فإن هناك أيضاً القوة السياسية التى تعكس قدرة الحكومة على التحكم فى الأحداث، وهناك القوة الاقتصادية والتكنولوجية، وهناك ـ كما أظهرت طابا ـ حكمة القادة وصانع القرار وقدرة رئيس الدولة على إجتذاب الأصدقاء لشعبه وبلده، وهناك أكثر من ذلك كله ـ كما أظهرت أزمة طابا ـ حكمة الشعب ووعيه وذكائه، أن هذه الحكمة والذكاء الشعبى المصرى كانا من أكبر أسباب تدارك الأزمة وإمتصاصها بصبر وحكمة وهدوء اتسقت تماماً مع صبر وحكمة وهدوء... مبارك.

رفح.. وسور برلين!

كانت اتفاقية السلام - كما نعلم - قد نصت على إنسحاب القوات الاسرائيلية من سيناء على مرحلتين، وكان خط الإنسحاب المرحلى الأول يمتد من العريش شمالاً على ساحل البحر الأبيض إلى رأس محمد جنوباً على مياه البحر الأحمر، ولتنظيم الإنسحاب حتى هذا الخط تم تقسيم العملية إلى خمس مراحل فرعية للإنسحاب بحيث يتم تنفيذ المرحلة الفرعية الأولى خلال شهرين إعتباراً من تاريخ تبادل وثائق التصديق على معاهدة السلام، أما المرحلة الخامسة فيتم الإنسحاب فيها خلال تسعة أشهر من هذا التاريخ.

ولكن يهمنا هنا فى هذا المجال أن المرحلة الفرعية الأولى لإنسحال القوات الاسرائيلية شملت أساساً منطقة العريش بما فى ذلك مدينة العريش ومطارها فكانت المرحلة الأولى للإنسحاب تشمل أساساً المنطقة الشمالية من سيناء والممتدة غرباً من حيث توقف هجوم قواتنا المسلحة فى أكتوبر ٧٣ شرقى القناة بمحاذاة مدينة الاسماعيلية تقريباً ثم تمتد شرقاً حتى مدينة العريش عاصمة سيناء الشمالية... نعم كانت المرحلة الفرعية الأولى عميقة وأخاذة.

من هنا كان ومازال للعريش مذاق خاص، وأتذكر جيداً ذلك اليوم الذى توجهت فيه مع زملائى الصحفيين من الجرائد والمجلات الأخرى إلى مدينة العريش لحضور المباحثات والترتيبات التى قامت بها اللجنة العسكريةالمشتركة بين البلدين تمهيداً للإنسحاب من هذه المنطقة الهامة... يومها كنا أول مصريين تطأ أقدامهم هذه

المدينة المصرية العريقة بعد أكثر من عشر سنوات تحت الإحتلال.... أتذكر هذا اليوم جيداً لأن أحداً منا لم يستطع أن يسيطر على مشاعره ويعمل بالوصية الأولى فى ممارسة مهنة الصحافة من حيث ضرورة أن يكون الصحفى مراقباً موضوعياً للأحداث لا ينفعل خلالها بسبب أهواء أو مشاعر شخصية، ولا يشترك بالفعل أو بالعمل فى هذه الأحداث.... كان أهل العريش يجلسون أمام حوانيتهم وينظرون إلى الاتوبيس الذى يقلنا بكل عدم المبالاة فقد كان الاتوبيس مازال يحمل الأرقام واللوحات المعدنية الاسرائيلية، ولكن عندما عرف أهل العريش هويتنا وأننا مصريون إنتفضت المدينة بأكملها كما لو كان قد مسها تيار الحياة لأول مرة بعد سبات طويل وقام الجميع يهتفون بصوت واحد، ودون إعداد أو تنظيم: «أهم... أهم.... أهم.... بتوع أكتوبر أهم.... لم نستطع أن نكتفى بدور الصحفى المراقب والموضوعى وإمتلأنا بالحدث وباللحظة حتى آخر مدى للإنفعال الوطنى.

كان يوماً لا ينسى وكانت تجربة فريدة إزدادت حماسة مع الأيام حتى تم الإنسحاب النهائى من العريش فى وقت علت فيه فى السماء الزغاريد البدوية المميزة لأهل المنطقة، بينما كان الاسرائيليون يذرفون الدموع وهم يرون علم نجمة داود يهبط إلى الأبد من فوق ساريته بمدينة العريس المصرية... من هنا فقد كنت أحد شهود العيان الذين شاهدوا ما كانت عليه العرب بالضبط قبل الإنسحاب الاسرائيلى. كانت تماماً كما تركناها منذ سنوات طويلة لم يحدث فيها أى تغيير، مدينة بسيطة بشوارعها الضيقة وأبنيتها الصغيرة... كل ما زاد على المنطقة حتى نكون صرحاء موضوعيين - كان عبارة عن عدد من المستوطنات الزراعية ومعظمها كان تجريبياً، ثم أخيرا على الشريط الساحلى الممتد شرقاً... هناك وعند اجمل منطقة تحتضن رمالها البيضاء عدد هائل من النخيل يطل على مياه صافية زرقاء هى من أنقى أجزاء البحر الأبيض... هناك كانت تلك المستوطنة الشهيرة «ياميت».

هناك تستطيع أن ترى الآن آثار ذلك التصرف الأهوج الذى قامت خلاله جماعة من الاسرائيليين بتدمير مستوطنة «ياميت» فى حركة مسرحية قادها شارون وتورط فيها جيش الدفاع عندما قام بتدمير المستوطنة بمساعدة تلك الجماعة من المتعصبين الذين تصوروا يوماً أن ذلك البناء الجديد سيمتد ويتوسع ليسكنه نصف مليون

اسرائيلى.... مازالت آثار هذا الدمار موجودة إلى الآن تشهد على هذا التصرف غير الحضارى بالمرة. وبالإمكان أن نتصور تجميع هذا الكيان المدمر «فى كوم» أو «تل» واحد ليظل شاهداً عبر التاريخ على التصرف الأحمق لمنطق لم يعد له مكان الآن وإلى جوار ذلك الصرح الأخرق نستطيع أن نبنى ونصنع شيئاً أفضل مما قام به الاسرائيليون... شيئاً أكثر حضارة وفخامة وبهجة يحكى لأجيال المستقبل عن القدرة اللا محدودة للإنسان المصرى على البناء فى أجواء السلام المفعمة بالأمل والرغبة فى الحياة والاستمرار والبقاء. بالإمكان أن نعتبر ما يواجهنا فى هذه المنطقة نوعاً من «التحدى» الذى يرتبط بالمصير والكرامة.... ومعروف عنا أننا نقبل التحدى ونعتبره حافزاً قويا لنا، والتحدى هنا يكمن فى أن تصبح منطقة «ياميت» أفضل مما كانت عليه... وهذا ليس بكثير علينا... ونحن قادرون عليه.

فى هذا الإطار شهدنا فى شمال سيناء تطورات لا يمكن أن يتصورها إنسان.... إعترف بذلك الاسرائيليون أنفسهم الذين حرصوا على المجىء لسيناء ليكتشفوا ما إذا كانت الإبل قد التهمت الزهور، أم لا!!

لقد قابلت حينئذ اللواء منير شاش.. وناقشت معه أموراً عديدة.. وكان طبيعياً أن يكون سؤالى الأول عن «ياميت».. ولماذا تركت هكذا؟ وهو سؤال كان هاماً وقتها، لكننى يجب أن أشير إلى المعجزة التى حققها المصريون فيما بعد حين أعادوا بناء ياميت بسواعد فتيه.. وبأيدى أبناء القوات المسلحة الذين إحترفوا التعمير.

اتذكر الآن ما قاله المحافظ اللواء منير شاش:

يجب أن نعترف بطباعنا بما فيها من محاسن وعيوب فإن مواجهة النفس هى أول الطريق للوصول إلى الحلول والارتقاء بالمسيرة الإنسانية.

فى هذا الإطار أقول بكل صراحة أننا شعب يحب الاستقرار وله مفهوم خاص فى هذا المضمار. فمنذ آلاف السنين ونحن نكاد نلتصق التصاقاً بوادى النيل بل إن امثلتنا الشعبية تقول: «امش سنة ولا تعدى قنا»، لقد سمعنا الكثير عن «ياميت»... كلنا سمعنا عن ياميت ولكن القليل جداً منا من سمع عن «أبو شنار» التى بنيناها أمام ياميت فى إتجاه الشرق و «جوز غانم» التى بنيناها قبل ياميت وكلاهما لا يقل أبداً عن المستوطنة

الاسرائيلية التى بنيت فى نفس المنطقة. كذلك أحب أن أقول أن ياميت تم بناؤها طبقاً للمفهوم والتراث اليهودى الذى يميل للحياة بعيداً فى «الجيتو».... ومن هنا فإننا كنا نرى ياميت وقد بنيت بطريقة دفاعية محضة لا يمكن أن يراها المرء من البحر، كما لا يمكن أن يراها من الطريق البرى.. فهى تحتل موقعاً مختفياً عن الانظار... صحيح أن الموقع جميل وساحر، ولكنه يخالف مفهومنا فى البناء والمعمار. ولا شك أنك تتفق معى فى أننا شعب عريق فى العمارة والبناء، تشهد بذلك آثارنا.... هذا الكيان الهائل الصامت الذى استطاع أن يهزم الزمن ذاته.

ومن ناحية أخرى فإن الكثيرين منا بنفس المنطق سمعوا الكثير عن «ياميت» و «طابا» فى الجنوب، ولكن القليل منا من يعرف أن هناك وضع فى رفح يشبه تماماً الوضع فى برلين الغربية وبرلين الشرقية... فهناك رفح الغربية وهى رفح سيناء، ورفح الشرقية وهى رفح فلسطين، واعتقد أنه كان من الضرورى أولاً بدلا من أن نتعاون فى بناء ياميت أخرى فإنه من الأفضل أن نتعاون فى بناء رفح سيناء التى هى الواجهة الحقيقية لنا على حدودنا الشرقية. ونحن نعمل على تجميل وتطوير هذه الواجهة... هناك فى رفح الآن حى الامام على، وهو حى سكنى كامل أنشأناه ومستشفى مركزى يسع ٥٣ سريرا وقصر ثقافة كامل ومركز إعلام نموذجى، ومصنع البان ينتج ٢٠ طنا يوميا ومحطة كهرباء طاقتها ٦ ميجاوات، بالإضافة إلى وسائل متطورة للزراعة، وطرق مرصوفة ووسائل للمواصلات عملاً بقاعدة ومبدأ أن الحضارة هى المواصلات... وفى هذا الإطار يدور مفهومنا حول «ياميت» ومستقبل سيناء الشمالية..

حتى هذه اللحظة لم تكن مصر قد قامت بوضع الخطة القومية لتعمير سيناء الهادفة لإستيعاب ٣ مليون نسمة وتوفير ٨٠٠ ألف فرصة عمل، لكن الجهود فى ذلك الوقت كانت تنطلق من أجل تحقيق التنمية.. وكما قال لى المحافظ وقتها فقد قامت المحافظة بجهود جبارة فى قطاع الزراعة لاصلاح وإعادة بناء ما دمره الاسرائيليون لاسيما فى مجال الرى من آبار وشبكات المياه بالإضافة إلى حفر آبار جديدة. وتم إنشاء مزرعتين نموذجيتين بالإضافة إلى المساحات الزراعية المستديمة التى تقدر بـ ٦٦٢٠ فداناً وفى هذا الإطار تم ترميم سد الروافعة وصمم سد بمنطقة عين

الجديرات وأنشئت صوبة زراعية لإنتاج مليونى شتلة، واستصلاح ٥ آلاف فدان بوادى المغارة. وفى مجال الثروة الحيوانية وإنتاج الدواجن فقد انشىء مشروع للإنتاج الحيوانى بطاقة ٤٤١ رأساً بالاضافة إلى رعاية ما لدى الأهالى من ثروة حيوانية كما أنشئت محطة تفريخ بطاقة مليونى كتكوت فضلاً عن ١٤٣ عنبراً قطاعا خاصا بلغ إنتاجها ١,٧٠٨,٣٨٥ دجاجة... أما مشروع السمان الذى يعد الأول من نوعه فى الشرق الأوسط فلقد ساهم فى توفير اللحوم البيضاء بالمحافظة ويجرى التفكير فى إمداد معظم الفنادق الكبرى بطائر السمان الذى ننفرد بتربيته.

وباعتبار محافظة شمال سيناء من المحافظات الساحلية التى تقع على ساحل البحر المتوسط، وتضم بحيرة البردويل فقد تم توفير ١٠٢ مليون جنيه لتطهير البحيرة والبواغيز وحمايتها، كما أسهم جهاز التعمير بإنشاء قرى سكنية للصيادين وتركيب ثلاث ثلاجات ومركزين لتجميع الأسماك بالإضافة إلى إفتتاح المرحلة الأولى من ميناء العريش البحرى الذى وفر فرص العمالة وقلل الضغط على بحيرة البردويل مما سيساعد على زيادة ثروتها السمكية فى المستقبل القريب.

ولما كانت سيناء الشمالية لديها مجموعة هائلة من المقومات الطبيعية والبيئية والتاريخية والثقافية فلقد كان من الضرورى قيام «صناعة السياحة» حيث أعد تخطيط هيكلى للساحل الشمالى بالمحافظة من رفح شرقاً حتى بالوظة غرباً، واختيرت فى ضوئه مناطق للسياحة العالمية والمحلية بالإضافة إلى المخططات التفصيلية للقطاعات الشاطئية فى رمانة والمساعيد والعريش ورفح. وشهدت الطاقة الفندقية بشمال سيناء تطوراً كبيراً خلال الفترة من عام ١٩٨٣ حتى الآن حيث كان إجمالى عدد الأسرة ١٨٢٨ إلى عام ٨٣ قفز ليصل إلى أكثر من ٣٠٠٠ سرير خلال العام الماضى وذلك دون حساب مساهمة القطاع المحلى فى مجال الكبائن والشاليهات والشقق المفروشة بالإضافة إلى شاليهات جهاز التعمير. كما وصلت الاشغالات الفندقية إلى نحو ٧٠ ألف زائر فى سنة ١٩٨٦ أما حركة العبور من منفذ رفح البرى فقد شهدت أعداداً كبيرة من السياح المصريين والعرب والأجانب بلغت حوالى ٢٤ ألف سائح خلال نفس العام.

فى مجال التعليم العام والأزهرى، والعالى - والكلام مازال للواء منير شاش - وصل عدد المدارس فى عام ١٩٨٧ إلى ٢١٥ مدرسة فى حين أنه فى عام ١٩٧٩ كان لا يزيد على ٢٩ مدرسة وقفز عدد الطلاب من ١٥٧٠٠ طالب إلى ٤١٧٨٨ خلال نفس الفترة، كما تم إنشاء ١١ معهداً إزهرياً بالإضافة إلى كلية التربية فرع جامعة قناة السويس بالعريش وكليتى العلوم والزراعة لخدمة البيئة السيناوية.

وفى قطاع الصحة نجد أنه بعد أن كان بالعريش مستشفى واحد لكل شمال سيناء به ٥٠ سريرا فقط أصبح هناك ٤ مستشفيات فى بئر العبد والشيخ زويد ورفح والعريش بالإضافة إلى ٢٩ وحدة صحية ريفية وتضاعف عدد الأسرة بالمستشفيات إلى أكثر من خمسة أضعاف.

أما الثورة المعدنية التى تشتهر بها سيناء بإحتوائها على الرخام والاسمنت والجير وأكاسيد الحديد والفحم الحجرى والرمال السوداء والرمال البيضاء والأملاح فكلها خامات تم التخطيط لاستغلالها بإنشاء المصانع والمناجم والمحاجر خلال الخطة الخمسية الحالية والقادمة.

وفى مجال النقل والمواصلات رصف أكثر من ٩٠٠ كيلو متر من الطرق لربط سيناء اقليميا بمحافظات الجمهورية وداخليا بين مناطقها المختلفة ولأول مرة تم إنشاء طريق عرضى مواز للحدود يربط رفح حتى الكنتيلا بطول ١٦٥ كيلو مترا وبتكاليف ٨ ملايين جنيه كمرحلة أولى بالإضافة إلى تخصيص ٣ ملايين جنيه لهذا الطريق خلال خطة المحافظة للعام الماضى... كما تم إنشاء ٤ معديات بالقنطرة والاسماعيلية والفردان، وتجهيز مطار العريش كمطار مدنى للاستخدام الداخلى والدولى بتكلفة بلغت ٤,٢٥٠ مليون جنيه.

لماذا استطرد فى ذكر هذه الأرقام القديمة رغم أنها تضاعفت عدة مرات، ورغم أنه جاء محافظ بعد اللواء منير شاش قام بجهود أخرى جباره؟! الإجابة واضحة، ذلك أن الصورة التى كانت توحى لنا بحجم الإنجاز الذى تحقق الآن، وتؤكد لنا أن مصر كانت ولم تزل تؤمن باستراتيجية التعمير والتنمية.. ولذا فإننى أعود إلى ما قاله المحافظ.

ولعل أكثر المجالات حيوية وأهمية هو «الاسكان» الذى شهد إنشاء ١٠١٥٩ وحدة سكنية على مستوى المحافظة بمراكز العريش وبئر العبد ورفح والشيخ زويد ونخل والسحنة بالإضافة إلى قرية «تلول» للصيادين والتى تشتمل على ٥٠ وحدة سكنية وقرية «البردويل» التى ستتضمن ٥٠ وحدة أخرى روعى فيها أن تتلاءم كل وحدة مع البيئة المعروفة للصيادين مع استقلال كل وحدة عن الأخرى.

وفى مجال الرعاية الاجتماعية تم إنشاء ١٩ داراً للحضانة ومركزين لتنظيم الأسرة و١٣ مشغلا للفتيات و ٣٥ جمعية أهلية للنشاط الاجتماعى ومشروع للأسر المنتجة ومركز للعلاج الطبيعى وآخر للتكوين المهنى وثالث للتأهيل الاجتماعى.

وقبل عام ١٩٧٩ لم يكن الارسال التليفزيونى يصل إلى المنطقة بل كانت شمال سيناء وجنوبها مغطاة بشبكات الدول المجاورة وفى ٢٥ ابريل ١٩٨٢ ثم وصول إرسال القناة الأولى وبعدها بعام غطى إرسال القناة الثانية المنطقة. كما تم إنشاء أول إذاعة محلية فى ٢٥ ابريل عام ٨٤.

وفى ٢٥ مايو ٧٩ كان لدى شمال سيناء بأسرها ٢٠٠ خط تليفونى فى سويتش قديم ومستهلك بالعريش، أما الآن فقد أصبح فى العريش وحدها ٨ آلاف خط وضاحية السلام ٣٠٠ خط والمساعيد ٣٠٠ خط وبئر العبد ٤٠٠ خط والشيخ زويد ٤٠٠ ورفح ٢٤٠ ورمانة ٢٠٠ خط بالإضافة إلى تنفيذ مشروع وسط سيناء فى نخل الذى يعتمد على شبكة من الميكروويف.

فى عام ١٩٧٩ كان لدى الشباب فى شمال سيناء مركز واحد لممارسة هواياتهم الترفيهية فى بئر العبد، أما الآن فقد بلغ عدد مراكز الشباب ٤٢ مركزاً... لم يكن لدى المحافظة أية أندية وأصبح فيها الآن ١٠ أندية ولم يكن موجوداً فيها أية لجان رياضية أو مناطق أو إتحادات وأصبح بها ١٧ بالإضاف إلى إنشاء استاد للمحافظة والمعسكر الدائم بالعريش ومعسكرات أخرى بالشيخ زويد ورمانة ونزل الشباب بمدن المحافظة.

فى عام ٧٩ كان فى العريش فقط محطتان للكهرباء بطاقة واحد ميجاوات. الكهرباء وزاد توليد العريش ورفح والشيخ زويد وبئر العبد ونخل والحسنة والمساعيد بطاقة تزيد على ١٥ ميجاوات.

أيضاً تم إنشاء ميناء العريش البحرى الذى يقع شرق مدينة أبو حنضل بغاطس ٧ أمتار مما يمكنه من استقبال حمولات حتى ٥ آلاف طن.

كما حصلت المحافظة على العديد من المنح والقروض التى قدمتها بعض الهيئات والمنظمات الدولية مثل المنحة المقدمة من فرنسا لدراسة بحيرة البردويل، ومنحة اليونيسيف لإنشاء مشروع مياه الشرب بحفر ١٢ بئراً عميقة بوسط سيناء، ومشروع الخدمات الأساسية للقرى بالتعاون مع المعونة الدولية الامريكية، ومشروع دراسة الصرف الصحى لمدينة العريش، ومشروع إنشاء مشتلين بالتعاون مع هيئة «كير» الامريكية لتوزيع شتلات البطيخ والشمام والطماطم والمنحة البريطانية لمشروع فحم المغارة، ومشروع برنامج الغذاء العالمى الذى تنتفع به ٢٦٣٠ أسرة ومشروع المنحة الفنلندية لإقامة مستشفى بئر العبد والهولندية لإقامة مركز للعلاج الطبيعى... إلخ.

هذه هى ملامح التغيير الجذرى والحقيقى للإنجازات التى تحققت فى سيناء... لقد كان التغيير مطلباً حيوياً وقومياً يستجيب لذلك النداء الكامن فى أعماق كل مصرى بقبول التحدى الذى فرضه الواقع فوق أرض سيناء فكان ذلك الحجم الضخم من المشاريع والمبادرات الفردية والجماعية التى أكدت قدرة الإنسان المصرى على تغيير واقعه إلى الأفضل... إتسعت الرقعة الخضراء فوق أرض سيناء وزادت أعداد الزهور ولم تنتزع زهرة واحدة... أصبح اسم سيناء بين أشهر أسماء الأماكن السياحية والمنتجعات المخصصة للاستجمام وملاذا للباحثين عن الجمال والهدوء مجتمعات عمرانية جديدة وتجمعات سكنية... تنمية حضارية حقيقية لشعب عريق فى الحضارة... رغم كل الظروف.

ولا يمكن أن أختتم هذا الجزء من الكتاب دون أن أشير إلى أن هذه العملية التنموية الضخمة قد إمتدت وتنوعت إتجاهاتها.. وبعد أن طورت مصر مدينة رفح.. ووفرت كل الطاقات لسيناء.. شرعت فى بناء ياميت من جديد.. وهو ما تحقق خلال فترة زمنية وجيزة وفى صمت حتى فوجئنا بالاعلان عن هذا.. فمصر بنت ما خربته إسرائيل.. وسوف تستمر على هذا النهج.

الصقور القدامى!

لقد إستعرضت فى الفصل السابق ماذا فعل السلام فى مصر وكيف جاء بالتنمية.. وفى حين كانت إسرائيل تستفيد منه أيضاً كانت هناك تفاعلات مختلفة قد خلقها السلام هناك.

فى إسرائيل والأراضى المحتلة فإن أحداً سواء كان طفلاً أو شاباً أو هرماً لا يتحدث ليلاً ونهاراً سوى عن الحرب والسلام والمشكلة الفلسطينية، والحكم الذاتى، وأسباب عدم مجىء المصريين إلى اسرائيل.. إنهم هناك يعيشون ويتنفسون هذه المشاكل طوال اليوم تقريباً، حتى إن المرء لابد وأن يشعر بنوع من الاكتئاب إذا ما استمر يستمع إلى هذه الدائرة المفرغة التى يعمل على فراغها أساساً التشدد من أجل الوصول إلى مكاسب أكثر فى وقت يدرك فيه الجميع فى قرارة أنفسهم - عندما يخلون بها بعيداً عن الكاميرات والميكروفونات وأجهزة التسجيل - إنه لا فائدة بغير السلام وأن هذا السلام ينبغى، فى المقام الأول، أن يكون عادلاً، وأنه لكى يكون عادلاً لابد وأن يحل جوهر ذلك الصراع التراجيدى إلا وهو المشكلة الفلسطينية.. هكذا ببساطة، ولكن المشكلة إنه ليس هناك شىء بسيط فى منطقة الشرق الأوسط، وكل شىء أصبح مركباً.

فى هذا الإطار فقد لاحظنا إنقساماً واضحاً داخل اسرائيل على فرعية من هذا الإدراك المنطقى العام.. وحتى وقت مبكر قبل أن ينعقد المؤتمر الدولى للسلام فى الشرق الأوسط كان هناك فى اسرائيل من يرون ضرورة إجراء المباحثات مع المنظمة

لحل المشكلة الفلسطينية بينما يرى الصنف الآخر من اسرائيل تقريباً، أنه لا مفاوضات ولا حوار مع المنظمة، وللأسف فإن هذا الصنف الأخير يتزعمه الحزب الحاكم حالياً: الليكود بزعامة اسحق شامير فيما يمكن أن يكون أحرج فترة فى حياته السياسية.

من أجل استكشاف الاتجاهات داخل اسرائيل إزاء هذه العملية الحيوية فى تاريخ الصراع ومستقبل المنطقة التى نعيش فيها، والتى تؤثر على حياتنا جميعاً قابلنا عدداً كبيراً من المسئولين من مختلف الإنتماءات والاتجاهات.. وكانت أولى هذه المقابلات مع عيزرا وايزمان رئيس البحث العلمى السابق والذى أصبح رئيس إسرائيل فيما بعد والذى كان وزيراً للدفاع قبل ذلك، وقبلها - وهذا هو الأهم - كان قائداً للسلاح الجوى الاسرائيلى ويعتبرونه هناك الأب الروحى لطيارى القتال الاسرائيليين الذين تعتمد عليهم بالدرجة الأولى آلة الحرب الاسرائيلية، فى هذه المقابلة مع «الصقر القديم» كان الحديث وديا للغاية، وكان نفس ما ينادى به الرجل هو نفس ما ينادى به الجانب العربى، وكان حرصه على السلام بين العرب والاسرائيليين واضحاً بشكل لا يمكن أن تخطئه عين أو أذن، فى هذه المقابلة قال لى وايزمان: «أن هناك إنقساماً حالياً فى إسرائيل حول مسألة التفاوض مع ياسر عرفات، وأن المشكلة تتلخص فى ضرورة إقناع الحكومة الاسرائيلية بالتفاوض مع المنظمة. ومن البديهى أنه حتى يمكن أن تكون هناك عملية تفاوض فإنه ينبغى أن يكون هناك طرف آخر يتفاوض معه الإنسان. وفى رأيى بالنسبة للقضية الفلسطينية أن هذا الطرف الآخر هو المنظمة وبالتحديد فإن الرجل الذى ينبغى أن نتفاوض معه هو ياسر عرفات. وأنا أتكلم عنه بصفة خاصة لأنى أعرفه جيداً ولا أعرف الباقين مثل أبو مازن وأبو إياد وغيرهما، وبهذا التكنيك يمكننا أن نصل إلى حل عادل بالنسبة لقطاع غزة والضفة الغربية وفى الوقت ذاته فإننا نكون قد وصلنا إلى حل لمشكلة الانتفاضة التى نتعامل معها بكل حذر، ومع ذلك ثبت أنه من المستحيل منع سقوط ضحايا من هنا وهناك الأمر الذى أصبح يثقل كاهل الضمير الإنسانى داخل اسرائيل قبل خارجها».

واستطرد وايزمان متحدثاً كعادته بأسلوب الطيارين ومعبراً عن أفكاره بيديه قائلاً: «اعذرنى فإننى استخدم فى حديثى دائماً لغة الطيران الذى قضيت فيه معظم حياتى تماماً مثل رئيسكم العظيم حسنى مبارك، ولذلك فإننى استخدم عبارات الطيران دائما،

وهنا أعتقد أن البعض منا فى المنطقة قد أقلع بطائرته وأصبح فى المقدمة، وأن هناك آخرين أقلعوا ويحاولون اللحاق بالتشكيل الأمامى المتقدم. وهناك فى الوقت ذاته آخرون مازالوا فوق الممر على سطح الأرض ولكنهم سيقلعون أيضاً وبمرور الزمن سيلحقون بالموكب فى الإتجاه الصحيح. وأنت تعرف أن نفس الشيء حدث خلال مباحثات السلام مع مصر التى كنت أحد شهودها منذ البداية، وكان هناك فى اسرائيل من لا يثق فى نية الرئيس السادات رحمه الله، وكانوا يعتقدون أنه يناور ويخادع ليشن هجوماً آخر على اسرائيل، ولكن المسألة كما ترى أصبحت مختلفة تماماً حالياً، وأصبح هناك سلام بين الشعبين.. سلام حقيقى.. وأعتقد أنه فى غضون عام تقريباً سيتفاوض الاسرائيليون مع عرفات، لأنه لا يمكن إحلال السلام فى المنطقة بدون حل لمنطقة بدون حل المشكلة الفلسطينية، ولما كنا قد وقعنا على إتفاقية كامب ديفيد التى تنص على ضرورة حل المشكلة الفلسطينية فإننا ينبغى أن نلتزم بهذا الجانب الأخلاقى من الاتفاقية وحل هذه المشكلة أيضاً لتحقيق السلام والتفاوض مع المنظمة مع ضرورة إدراك أن مصر ستلعب دوراً حيوياً فى هذه المفاوضات لأنها أصبحت الآن شريكاً فى عملية السلام وهى فى الوقت ذاته الدولة الوحيدة فى العالم القادرة على التحدث مع الفلسطينيين والعرب والاسرائيليين والأمريكيين والسوفييت وكل دول العالم، كذلك فى رأيى لابد أن تكون الأردن أيضاً ممثلة بشكل ما فى هذه المحادثات التى نتوقع أن تكون صعبة لأنها تتعلق بالضفة وغزة وهى الأراضى المتاخمة لحدودنا مباشرة.

وفى مقابلة مع صقر آخر من «الصقور القدامى» هو شيمون بيريز ذلك الرجل الذى عمل كوزير للدفاع وذلك بعد أن شارك بجهد وافر فى تأسيس صناعة الأسلحة التى أصبحت الآن فى مقدمة الصناعات الاسرائيلية التى تصدر للخارج وتساهم بقدر كبير فى تحقيق التوازن فى ميزان المدفوعات. ثم أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية ورئيساً للوزراء. وزعيماً لحزب العمل.

الذى ينطلق من رؤية أكثر مرونة من حزب الليكود بزعامة شامير. فى هذا اللقاء تحدث بيريز عن عامل «القدر» فى تاريخ الشعب الاسرائيلى وقال إنه كلما كان ينبغى علينا أن نختار أو نتقدم من موقع إلى آخر فإن القرار دائماً كان قدرياً بالنسبة لنا وليس

شيئاً عادياً كما هو مع المجتمعات الأخرى ويبدو أن القدر هو الرفيق الدائم للتاريخ اليهودى، وأعتقد أننا نختلف عن باقى الشعوب من حيث أننا قلة من البشر، ومن هنا فإن الثمن الذى ندفعه باهظ حقاً ويتمثل فى حجم هائل من المسئولية ملقاة على كاهل كل فرد منا فى المجتمع اليهودى. إن على الجميع أن يدركوا الآن أن العالم يمر بتغييرات هائلة تقوم على محورين أساسيين:

الأول: هو أبعاد العلاقات الخارجية عن أى شكل من أشكال الصبغة العسكرية.

والثانى: هو صبغ الاستراتيجية القومية بالصبغة الاقتصادية.

ومن البديهى أن هذين المحورين هما وجهان لعملة واحدة، كما ترى بنفسك، وأننا نعيش فى حقبة من التاريخ الإنسانى يلعب فيها الاقتصاد دوراً بالغ الحيوية، وأصبحت جميع الدول تتأثر بالتغييرات العالمية، بل إن قوة الدول والأمم أصبحت إلى حد بعيد تعتمد على قوتها الاقتصادية والمستوى العلمى والتكنولوجى لشعبها أكثر من القوة العسكرية والمساحة التى تشغلها فوق الأرض بل وحتى تعدادها البشر.. واعتقد أننا مثلنا مثل باقى دول المنطقة عبارة عن جزءمن هذا العالم، لذلك ينبغى أن نلحق بهذا التغيير العالمى الكبير. ولكن هذا التغيير الحيوى يعتمد أساساً على مسألة محورية وأساسية إلا وهى السلام. وأبعاد الصراع العربى الاسرائيلى عن الصبغة العسكرية وإيجاد حل سياسى للمشكلة الفلسطينية وبذلك فقط يتم تحريك منطقة الشرق الأوسط ونقلها من العدوان إلى النمو والرخاء. لذلك كله ينبغى أن تنتهى الحروب كلها من المنطقة وأن يكون هناك مزيد من السلام وتختفى المواجهات العسكرية بين العرب والاسرائيليين.

ولقد قلت فى خطاب عام للشعب الاسرائيلى أن الأراضى لا يمكن أن تصبح أراضى يهودية دون أن تكون هناك غالبية يهودية ملموسة موجودة فوق تلك الأراضى، وعلينا أن نسأل أنفسنا: هل إذا سيطرنا على جميع الأراضى المحتلة فهل تصبح دولتنا يهودية؟ وهل هذا سيجذب المزيد من اليهود للهجرة من الشتات والدياسبوا إلى الأراضى الجديدة؟ لقد قلت علنا ينبغى علينا أن نعرف جيداً أن الأرض وحدها ليست جزءاً من أمتنا ولكنها الأرض والناس وهذا غير محقق حالياً. وقلت

أيضاً أن اسرائيل ينبغى أن تكون دولة جذابة ومتيقظة فى الوقت ذاته حتى يمكن أن نقنع الشعب اليهودى فيما بين لينتجراد وطهران وجوهانسبرج واديس أبابا وريودى جانيرو وسان فرانسيسكو.. نقنعهم جميعاً أن يأتوا إلى هنا ويعشوا حياة مستقرة فى سلام».

وأضاف بيريز بلهجة تنم فعلاً عن رغبة حقيقية فى سلام عادل للجميع قائلاً: «أننا لا نبغى أبداً أن نحكم أو نسيطر على العرب أو الفلسطينيين ولا نريد مطلقاً أن نحكم شعوباً أخرى. وأن تمسكنا الشديد بالديمقراطية كسبيل للحرية يتطلب أساساً أن نتفادى تماماً الرغبة فى السيطرة أو حكم المجتمعات الأخرى. وأننى أشعر فى قرارة نفسى أننا لن نصبح قادرين على تحقيق السلام دون اللجوء إلى حل وسط تاريخى يقوم على إعادة ترتيب الأراضى المحتلة والحدود الراهنة. ليس معنى ذلك أننا سنقدم تنازلات لأى نوع من الارهاب ولكننا سنقدم تنازلات فقط من أجل السلام.. ومن هنا فإننى أقول أننا على استعداد للتفاوض مع وفد أردنى فلسطينى مشترك يمثل معظم الفلسطينيين أو مع وفد فلسطينى يمثل الفلسطينيين الذين يقطنون فى الأراضى المحتلة، الأمر الذى يبدو لى أكثر واقعية وعملية، وينبغى علينا أن نتفاوض مع الفلسطينيين كما هم ومن حقهم أن يختاروا ممثليهم، ومن حقنا كما أعلنت فى خطاب عام قبل ذلك أن نرفض بنادقهم ومدافعهم ولكن ليس أبدا حقوقهم المشروعة. وفى هذا فقد اقترحنا أن نبدأ المفاوضات بدون عنف أو تهديدات من الجانبين وأن تكون كافة الأطراف حرة فى التفاوض أو في الدخول فى مفاوضات حرة، وبذلك فإننى أقول للفلسطينيين من هنا أننا لا نبغى إطلاقاً أن نحكمهم، فهم وحدهم الذين ينبغى أن يحكموا أنفسهم، كما ينبغى لنا أيضاً أن نحكم أنفسنا.. وأن هذا الحق سيتأتى فى الأراضى العربية المحتلة والتى تكتظ بالسكان العرب كذلك فإنه من حق الفلسطينيين أن يقرروا طبيعة علاقاتهم مع العالم العربى وأن يمارسوا حياتهم من خلال مؤسساتهم، وأن تكون لهم هوية خاصة وأن تكون هناك مناطق عبور حرة إلى جميع المواقع الدينية المقدسة ما بين نهر الأردن والبحر المتوسط. وأضاف بيريز قائلاً: أن الفلسطينيين ينبغى أن تتوافر لهم فى المستقبل حرية اختيار الجانب الذى يقيمون معه اتحاداً فيدراليا. وفى ذلك ينبغى علينا أن نقوم بتعليم الحدود الآمنة وتلك المناطق التى

تقع فيما بين البحر المتوسط ونهر الأردن التى ستكون منزوعة السلاح ثم عاد بيريز بعد ذلك ليؤكد أن المستوطنات الراهنة ستظل قائمة وأن القدس ستظل عاصمة لاسرائيل مع السماح بحرية الحركة والمرور فى جميع أجزاء المنطقة وضمان العبور إلى المواقع الدينية المقدسة مع ضمان عدم نشوب أى عنف أو أنشطة حربية أو إرهابية. ثم أكد بعد ذلك أن تعبير الفلسطينيين عن ذاتهم لا ينبغى أن يكون على حساب الأمن الاسرائيلى. ثم أخذ بيريز يتحدث بعد ذلك عن ضرورة لحاق منطقة الشرق الأوسط بالتغييرات العالمية بحيث تصبح الحرب الوحيدة فى المنطقة هى الحرب ضد الفقر والدمار والجهل. وبعد ذلك أشاد بيريز بالرئيس مبارك والدور الذى يلعبه فى ترسيخ عملية السلام خاصة بعد حل مشكلة طابا التى مهدت الطريق لآفاق أرحب من أجل السلام. وحول سؤال عن الاجراءات التى سيقوم بها حزب العمل الذى يتزعمه بيريز فى حالة فشل رئيس الوزراء الاسرائيلى إسحاق شامير فى عرضة مقترحات مقنعة خلال زيارته لواشنطن قال بيريز أن حزب العمل ملتزم بتحقيق السلام فى المنطقة وأننا نأمل أن نرى المنطقة كلها أرضاً للسلام وليست أرضاً للصراع والحرب، ومع ذلك ينبغى علينا أن ندرك جيداً أن السلام من حزبى «العمل» و «الليكود» أهم طبعاً من السلام القادم من حزب واحد. ومن الأفضل أن ننتظر حتى نرى نتائج محادثات شامير فى واشنطن. ولكن فى النهاية نقول أن السلام أهم من الأحزاب كلها.

الصقور الجدد!

للأسف فإن الأذكياء وحدهم هم الذين يستفيدون من تجارب الآخرين، ولولا ذلك لما تكررت الأخطاء الإنسانية منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، فالإنسان الذكى جداً ينظر إلى تجربة غيره ويستفيد منها دون أن يمر بنفس التجربة. أما الإنسان العادى فإنه لابد أن يمر بالتجربة حتى يعى نفس الدرس الذى استخلصه غيره من سنوات، أما الأغبياء فإنهم لا يستفيدون من تجاربهم أو تجارب غيرهم لذلك فهم دائما يتخبطون ويكررون نفس أخطاء الماضى. وفى إطار النزاع فى الشرق الأوسط والصراع العربى/ الاسرائيلى فإن التجربة غنية وهائلة ومليئة بالدروس المستفادة، وأول هذه الدروس التى خرجت بها الأجيال من جانبى النزاع - والتى مارست تجارب الصراع منذ نشأته فى بداية الأربعينات - هو حتمية الحوار والحل السلمى، وأن لب المشكلة هو المشكلة الفلسطينية وإن عرفات هو زعيم فلسطينى معتدل يمكنه أن يساعد إلى حد بعيد جداً فى حسم المرحلة الحالية من عملية السلام.

للأسف فإن البعض من الجانبين لا يعى كل هذه الحقائق، بل إن هناك من المتطرفين على الجانبين - وهم قلة - من لا يعترف بكل هذه الحقائق، ولا بتجربة السلام نفسها، وبالطبع فإن أولئك هم أقل الناس معرفة بحقائق العصر وأقلهم ذكاء كما أشرنا فى مقدمة المقال.

وعلى أية حال فإنه خلال لقاءات متعددة مع كبار المسئولين الاسرائيليين فقد لاحظت أنه حتى من نقصدهم بعبارة «الصقور الجدد» فإنهم جميعاً يعترفون بحتمية

الحوار والحل السلمى، وأن لب المشكلة هو المشكلة الفلسطينية، ولكنهم فى الوقت ذاته يصرون على فرعيتين من هذه الحقائق الأساسية وهما: أن الحوار ينبغى أن يكون مباشراً بدون مظلمة المؤتمر الدولى، وأنه لا حوار مع عرفات والمنظمة، ولكن مع الفلسطينيين المقيمين فى الضفة الغربية وفى قطاع غزة.

فى هذا الإطار التقيت مع موشيه ارينز وزير الخارجية الاسرائيلى الذى أصبح بعد ذلك وزيراً للدفاع فى حكومة نتانياهو.. وقد لا يعلم القارىء العربى أنه مهندس طيران، وأنه الرجل الذى كان يقف وراء مشروع إنتاج طائرة القتال الاسرائيلية (لافى)، وقد لمع اسمه بشكل خاص هنا فى مصر خلال أزمة طابا عندما خرج ليعلن بوضوح قاطع أن اسرائيل ستنفذ إنسحابها من طابا! وتسلمها لمصر يوم ١٥ مارس الماضى، فكان هذا هو أول تصريح حاسم ومحدد بشأن الإنسحاب من هذه الرقعة الأخيرة من الأراضى المصرية.

فى مكتبة بالقدس كان هناك بالطبع نماذج لبعض طائرات القتال، ويندر أن تدخل مكتباً فى اسرائيل دون أن ترى صورة أو نموذجاً لطائرات القتال....... بدا حديثه معى عن العلاقات بين مصر واسرائيل وأعرب عن أمله فى أن تكون هناك علاقات مع الاردنيين والعراقيين والسعوديين وكل العرب الذين هم - من الوجهة النظرية - مازالوا فى حالة حرب مع اسرائيل. قال لى الرجل أن الشعب فى مصر يدرك طبعاً أن هناك آلافاً من الفلسطينيين يعيشون داخل اسرائيل، وأن هناك ملايين من الفلسطينيين فى الأرض المحتلة، ومن هنا فإننا فى اسرائيل لا نحتاج إلى المنظمة للتحدث والتفاوض، بل يمكننا التفاوض مباشرة مع هؤلاء الفلسطينيين الذين يعيشون فى اسرائيل والأرض المحتلة. وطبعاً أنتم تعلمون أن الفلسطينيين يعيشون فى شرق وغرب نهر الأردن، بل إن عدداً ضخماً منهم يعيشون فى الأردن ذاتها، وقد حاولوا فى عام ١٩٧٠ الاستيلاء على الدولة الاردنية وكان هناك من الاسرائيليين من يتصور أنه كان من الأفضل لنا هنا أن ينجح عرفات وأعوانه فى الاستيلاء على الأردن ولكننى لست من هذا الرأى لأن ذلك كان يعنى قلب مختلف الموازين فى المنطقة!!

أننا نريد - والكلام مازال لارينز - ممثلين عن الفلسطينيين الموجودين فى الضفة وغزة ولا نريد أن نتحدث مع ممثلين للمنظمة التى تعمل على تخويف وإرهاب السكان المحليين، بل أن منظمات تابعة لحواتمة وجبريل يقومون بتهديد هؤلاء السكان ويقتلون البعض منهم، ولذلك فإننا مصممون على السير فى طريق التحدث مع الممثلين الحقيقيين لأهالى الأراضى المحتلة، وليس من يعيشون خارجها. ولقد تحدثت مع الرئيس مبارك خلال زيارتى الأخيرة لمصر، وتحدثت عن مكانته الفريدة من حيث كونه زعيماً عربياً كبيراً يتزعم الدولة الوحيدة فى المنطقة التى هى فى حالة سلام مع اسرائيل، وأننى لعلى يقين من أن الرئيس مبارك سيساعد إلى حد هائل فى العمل على إيجاد حل.

وهنا قلت لآرينز الاسرائيلى: ولكن أهالى الأراضى المحتلة يصرون على أن المنظمة برياسة عرفات هى الممثل الشرعى والوحيد لهم فماذا تريدون أكثر من ذلك؟ فأجاب قائلاً: إن أفضل طريقة لمعرفة ذلك هى الانتخابات ليس ذلك فقط لكن الانتخابات ستعمل على اختيار الشخصيات التى ينبغى أن تتفاوض معها اسرائيل، فقلت له: إذن ففى هذه الحالة يمكن أن ينتخب السكان العرب تلك الشخصيات التى تمثل المنظمة وتعبر عن وجهة نظرها.

فقال ارينز: «إن الانتخابات - كما تعلمون جيدا فى مصر - لا يمكن أن تكون ذات معنى إلا إذا كانت حرة. إن أى إنسان يمكن أن يرشح نفسه، وأى إنسان يمكن أن ينجح وهذا هو بالضبط ما نحتاجه فنحن نريد أن نتحدث مع الممثلين الحقيقيين للأراضى المحتلة وسوف نعرف من هم بعد الانتخابات.

قلت: إننا نسمع من رجال مثل عيزرا وايزمان وبيريز ومعظم أعضاء حزب العمل عن وجهات نظر واقعية ومشجعة بالنسبة للسلام مع الفلسطينيين، ولكن عندما يتحدث أعضاء «الليكود» وعلى رأسهم مستر اسحق شامير فإننا لا نسمع غير كلمات «لا ولا ولا» تماماً كما حدث عندما أعلن الرئيس مبارك عن استعداده لزيارة اسرائيل لحل المشكلة الفلسطينية فخرج شامير فى اليوم التالى ليعلن اللاءات الشهيرة. وهنا على الفور قال لى مستر ارينز: هل رأيت صحيفة «جيروزاليم بوست» هذا الصباح - يوم لقائى معه - فقلت له نعم فقال لى أن فى صدر صفحتها الأولى خبرا يقول أن

الرئيس مبارك لم يعلن عن زيارة لاسرائيل فنحن لا نقول «لا» لكل شيء، ولكن نقول «لا» فقط لما لا نرغب فيه، ونقول «نعم» لما نحبه. فقلت له إنكم تعلمون أنني صحفي محترف في أكبر جريدة بالشرق الأوسط، ولذلك فإنني إرتبت في هذا الخبر الذي تتحدثون عنه والمنشور في «جيروزاليم بوست» منذ أن وقعت عيني عليه فهو مطبوع طباعة خاصة وبالأسود في مكان بارز بالصفحة الأولى يريد أن يجذب نظر الجميع إليه، ولا أخفي عنك إني منذ أن رأيته اعتبرته من نوعية تلك الأخبار التي تسربها السلطات عمداً لأحداث رد فعل معين، أو لتأييد وجهة نظر محددة. وهنا ابتسم وزير الخارجية الاسرائيلي قائلاً: حسناً فنحن نستغل الصحف أيضاً، ولكن حقيقة أنا لم أعرف أن الخبر سينشر هذا الصباح ولكنني أؤمن بأنها ستكون فكرة جيدة لو إجتمع الرئيس مبارك مع شامير، وبالفعل كان الرئيس مبارك قد قال لي خلال زيارتي لمصر إنه كان يود أن يأتي، ولكنه يحب أن نكون زيارته مثمرة، ومع ذلك فإنني اعتقد أن من أهم مميزات العلاقات المصرية الاسرائيلية هي أنه يمكننا الاجتماع معاً في أي وقت دون شروط وأنا أفعل ذلك مع نظيري المصري الدكتور عصمت عبد المجيد وأن الاجتماع في حد ذاته يعتبر شيئاً مثمراً.... ومثلاً فإنني عندما إجتمعت مع الرئيس مبارك فقد كان إجتماعاً هاماً جداً ومثمراً وأعطاني فهما أكثر للموقف المصري، وموقف الرئيس مبارك، وعلى أية حال فإننا نقول «نعم» للتحدث مع الفلسطينيين و «لا» للتحدث مع المنظمة، وإنه ينبغي علينا أن نتحرك على مسار ذي ثلاثة محاور.

١ - اختيار ممثلين عن الفلسطينيين في الضفة وغزة.

٢ - ضرورة وجود الأردن على مائدة المحادثات لأننا نرى أنه لا يمكن لمباحثات السلام أن يكون لها أهمية دون اشتراك الأردن.

٣ - أن تحضر هذه المباحثات دولة عربية أخرى على الأقل من تلك الدول التي تعتبر نفسها في حالة حرب مع اسرائيل.

ثم أختتم الوزير الاسرائيلي حديثه قائلاً: إن العرب واليهود ينبغي أن يعيشوا معا سواء أرادوا أو لم يريدوا، وتمنى أن يسلم بذلك المسلمون والمسيحيون واليهود

والاسرائيليون والفلسطينيون فى الضفة.... وكل الفئات والجنسيات الموجودة فى المنطقة، وأن السبيل إلى ذلك يتحقق بالحوار المباشر وليس بالمؤتمر الدولى، وأن الحوار أو المفاوضات ستجرى مع الممثلين الذين ينتخبهم أهالى الأراضى المحتلة مهما كانوا ولكن ليس أبداً مع ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

وكان اللقاء الثانى مع وزير البيئة الاسرائيلى السابق واحد الأعضاء البارزين فى حزب الليكود (رونى مالون) وهو محام وكان يعمل نائباً للأحكام فى جيش الدفاع الاسرائيلى...... لذلك كان سؤالى الأول له عن المحاكمات التى تجرى فى الجيش الاسرائيلى للعسكريين الذين أساءوا التصرف إزاء أحداث الانتفاضة. وهنا علل مالون هذه الظاهرة بالمناخ الديمقراطى وحرية النشر والتعبير وبنوعية نظام الحكم الذى تعيشه اسرائيل وعندما تحدثت عن ضحايا الانتفاضة، وأن هذا من شأنه إعاقة عملية السلام فإنه أشار إلى الضحايا على الجانبين فى مصر واسرائيل خلال السنوات الطويلة من الصراع وإن ذلك لم يمنع من الوصول إلى السلام بين البلدين. وهنا أثرت إنتباهه إلى أن الحرب بين مصر واسرائيل كانت حرباً بين جيشين نظاميين ولكن فى حالة الانتفاضة هى حرب بين جيش نظامى مدجج بأحدث الأسلحة وسكان عزل على الجانب الآخر لا يملكون سلاحاً - وقد وافق الوزير الاسرائيلى بالطبع على هذه الملاحظة ولكنه علل هذه الأوضاع مؤكداً أنه لهذا السبب فإن الذين يتعاملون مع الانتفاضة هم رجال الأمن الاسرائيليون وليسوا رجال جيش الدفاع وأنهم يستخدمون فى ذلك طلقات البلاستيك والطلقات المطاطية وأنهم لم يلجأوا إلى ذلك إلا بعد إهانات لا تحتمل يوجهها إليهم سكان الأرض المحتلة.... وعلى أية حال - كما قلت له - فإن هذه الطلقات يمكن أن تكون قاتلة على مسافات معينة الأمر الذى يعمل على زيادة المأساة الفلسطينية وحتمية الوصول إلى حل عادل لهذه المشكلة التى بدأت تسيطر على الضمير العالمى.

وعندما تطرقنا للحديث عن مفاوضات السلام بين الفلسطينيين والاسرائيليين كان ما قاله (رونى مالون) هو نفس ما قاله ارينز من حيث رفض التحدث مع عرفات ومنظمة التحرير، مؤكداً أن عرفات ورجاله لا يريدون سلاماً حقيقياً مع اسرائيل..... ولم أشأ أن أغادر مكتب الوزير الاسرائيلى قبل أن أقول له ملحوظة عابرة وأعتقد أنها

منطقية وتقوم على أساس أنه حتى لو كانت المنظمة لا تريد السلام مع اسرائيل وأنها تستغل السلام لاحراز مكاسب سهلة كما يقول الاسرائيليون فإن هذا أدعى لإجراء الحوار والمفاوضات معها حتى تكون ملتزمة أمام العالم كله بما تتعهد به فى إتفاق السلام الذى لا يختلف عليه أى من أطراف المشكلة!!!

وكان اللقاء التالى مع عضو آخر بارز من أعضاء «الليكود» هو يوسف بن اهارون الذى يسمونه هناك رئيس أركان اسحق شامير، وهو فى الحقيقة كان يعمل مديراً عاماً لمكتب رئيس الوزراء الاسرائيلى، وهو مصرى الأصل وعاش بداية حياته فى مدينة بور سعيد.... فى الحديث معه ردد بن اهارون نفس الأفكار التى قالها اريتز ومالون، ولكنه فى الوقت ذاته إعترف بأنه ليس متفائلاً بشأن العثور على ممثلين أقوياء لأهالى الضفة وغزة يكونون من غير المؤيدين للمنظمة وإعترف الرجل بأن سيطرة المنظمة على هذه المناطق أقوى من سيطرة اسرائيل عليها. والمعروف أنه فى الخامس عشر من مارس الماضى مثل الجنرال «آمنون شاهاج» مدير المخابرات الحربية الاسرائيلية أمام مجلس الوزراء الاسرائيلى فى جلسة خاصة قرر خلالها أن تقارير المخابرات الاسرائيلية تؤكد أنه من الصعوبة - إن لم يكن من المحال - إجراء مباحثات مع الفلسطينيين دون وجود المنظمة.

وأكد «شاهاج» إنه بدون هذه المباحثات فإنه من المرجح أن تستمر الانتفاضة على مستواها الحالى لعدة سنوات أخرى. وفى هذا الإطار كانت استنتاجات بن اهارون مماثلة لتلك النتائج التى توصلت إليها المخابرات الحربية/ الاسرائيلية والتى آثارت أزمة داخل اسرائيل منذ أيام عندما أنكر شامير أن هناك شيئاً من هذا القبيل ثم عاد وإعترف بوجود هذا التقرير من المخابرات الاسرائيلية الأمر الذى خرجت معه صحف المعارضة الاسرائيلية فى اليوم التالى تتهم رئيس الوزراء بالكذب. ومع ذلك فقد كان «بن اهارون» مصرا فى حديث معى على عدم التحدث مع عرفات وقدم تبريراً غريباً عندما قال لى أن عرفات أعلن منذ أيام أن السلام مع اسرائيل لن يكون سلاماً استسلامياً ولكنه سيكون من نوع سلام صلاح الدين. والحقيقة أننى لم أفهم ما يعنيه المسئول الاسرائيلى، ولكننى شعرت أنهم فسروا هذه العبارة تفسيرا خاطئاً، فافهمته شيئاً عن طبيعة علاقة صلاح الدين بريتشار قلب الأسد أحد زعماء الحملة

الصليبية وهى علاقة كان يسودها رغبة حقيقية فى السلام، وإنتهت بصلح «الرملة» الشهير فى بعض المدن الساحلية على ساحل الشام وفلسطين مع السماح للصليبيين بالحج إلى بيت المقدس.

وهكذا كما قلنا من قبل يصبح كل شيء معقداً ومركبا فى منطقة الشرق الأوسط ويعود كل طرف إلى التاريخ البعيد..... ومن هنا سمعنا عن تسميات «يهودا والسامرا»، ويبدو أن الجانب الاسرائيلى فسر هذا التصريح الذى أدلى به عرفات بالمعنى الآخر الذى يحمله، والذى جاء بعد ذلك بكثير فى عام ١٢٩١م عندما قام السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بطرد الصليبيين نهائياً من الشام ومن السواحل.... كل شيء معقد ومركب فى تاريخ طويل من الصراع، والكراهية عملت على بناء حاجز نفسى رهيب بين شعوب المنطقة.... وبين ديانات أنزلها الله تعالى أساساً للهدى والحب والحياة.

السلام الذى أرادته إسرائيل.. على مقاسها!

السلام السخيف

استطاع أحد الأساتذة، ويدعى البروفسير بوثول، أن يحصر عدد معاهدات السلام بين مختلف الدول والمجتمعات منذ بداية تسجيل التاريخ الإنسانى، وتوصل الرجل إلى أنه خلال الأربعة الآلاف سنة التى سجلها التاريخ كانت هناك ثمانية آلاف معاهدة للسلام بين مختلف الدول، أى أن عمليات السلام كانت تتم بمعدل معاهدة واحدة كل ستة أشهر.. والأخطر من ذلك أن توصل الرجل إلى حقيقة غريبة تؤكد أن أيا من هذه المعاهدات لم تؤد إلى سلام حقيقى بين الأطراف المباشرة التى وقعت على المعاهدة، بإرادتها، أو على عكس إرادتها.

يقول البروفسير بوثول مؤسس «علم البحث فى أساليب ونتائج الحرب» إن هناك مايسمى «بالسلام الميكانيكى» ويعنى به السلام الذى تنشده منظمة الأمم المتحدة التى تقف بإمكانيات محدودة تحاول بها تحقيق أحلام وأمال السلام، التى تداعب البشرية منذ فجر التاريخ، ولأن أساس منظمة الأمم المتحدة هو الجمعية العامة، ولأن هذه الجمعية عبارة عن هيئة استشارية وليست تشريعية، فإن توصياتها بالتالى ليست ملزمة وكثيرا مايضرب بها عرض الحائط تكرارا ومرارا وعلانية، ولعل أوضح مثال على ذلك هو ردود فعل إسرائيل مع كل ماأعلنته الجمعية العامة من قرارات وتوصيات، ويكفينا فى ذلك المتاهات الهائلة التى دخلنا فيها بسبب هذا القرار الغامض والخبيث، المسمى بالقرار رقم ٢٤٢ وتفسيراته الملتوية عن عمد مسبق!!

من ناحية أخرى فإن قرارات الجمعية العامة تأتى أحيانا بعيدة عن المنطق والعدل، وتتماشى فى الغالب مع المصالح الدولية، وذلك فى الوقت الذى يؤدى فيه حق الفيتو، الذى تتمتع به الدول الخمس الكبرى، إلى الإرباك والظلم فى معظم الأحيان، الذى يتم علنا فى ساحة مجلس الأمن، وإذا أضفنا إلى كل ذلك افتقار منظمة الأمم المتحدة للوسائل المباشرة التى تمكنها من تنفيذ قراراتها إذا ماتطلب الأمر ذلك، وأن قواتها العسكرية غير دائمة ويشترك فيها بصفة عامة عدد من الدول الصغرى، بما يترتب على ذلك من نتائج عشوائية، ومشاكل لايمكن حسابها أو توقعها. إذا أضفنا كل ذلك فسوف نصل إلى الحقيقة الواضحة التى تؤكد أن هذه المنظمة الدولية لاتستطيع أن تفرض أو تحسم.

ولعل الصراع العربى الإسرائيلى كان من أبرز المشاكل التى لم تلعب فيها الأمم المتحدة دورا فعالاً، ونفس الشئ بالنسبة لحرب الجزائر فى عام ١٩٥٤، وحرب فيتنام الأولى مع فرنسا، ثم حرب فيتنام مع الولايات المتحدة، ومشكلة برلين عام ١٩٦٠، ومشكلة كوبا عام ١٩٦٢، ومشكلة الأردن ولبنان عام ١٩٥٨، وغزو السوفيت للمجر عام ١٩٥٦، وغزو السوفيت لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، كما أن المنظمة لم تلعب دورا فى الخلافات العالمية الكبيرة مثل الخلاف بين انجلترا والأرجنتين حول جزر فوكلاند، مما أدى بعد ذلك إلى نشوب الحرب بين الدولتين وكذلك مشكلة قبرص، والكونغو البلجيكى وحقوق الصيد فى المياه الإقليمية والتى بسبب عدم حسمها نرى حاليا أزمة بين كندا وأوربا بعد احتجاز كندا لسفينة صيد أسبانية.. وصراعات ومشاكل أخرى عديدة لم تستطع المنظمة أن تفعل فيها شيئا يذكر وعلى قمتها تلك المهزلة الإنسانية فيما يسمى بمشكلة البوسنة!

(صحيح أن الأمم المتحدة لعبت دوراً فيما بعد فى العراق بعد حرب الخليج الثانية.. لكن هذا إستثناء يؤكد القاعدة.. لأنه إستثناء جاء فى عصر التغيير الذى ألم بالأمم المتحدة فى زمن القطب الواحد حين صارت المنظمة الدولية لعبه فى يد الولايات المتحدة بعد إنهيار الأتحاد السوفيتى ونهاية الحرب الباردة. بل إن ماجرى فى كوسوفا فى عام ١٩٩٩ تحت قيادة قوات حلف الأطلنطى كان يؤكد الضعف الذى عانته الأمم الماحدة بعد أن أخذ الحلف منها زمام المبادرة فى تحريك الأحداث

الدولية، والسيطرة عليها.

من هنا كان السلام الذى حققته مصر مع إسرائيل سلاما مختلفا بمعنى أنه لم يكن «سلاما ميكانيكيا» رتيبا وعقيما كما تحدثنا من قبل، ولكنه سلام إرادة وحيوية وشجاعة نادرة جسدها زعيم مصرى اسمه أنور السادات، استطاع أن ينتزع أعجاب العالم كله ويحقق ما لم تستطع أن تحققه المنظمة الدولية أو الدول الكبرى، أو المجتمع العالمى بأكمله.

ومنذ البداية أرادت مصر أن يكون السلام بينها وبين إسرائيل «سلاما متكافئا» لأن هذا النوع وحده من السلام هو القادر على البقاء والإستمرار، ولن ينتهى أبدا إلى ماأنتهت إليه تجارب السلام السابقة والتى كان السبب الأول فى تبددها وأندثارها هو عدم التكافؤ بين الأطراف، الأمر الذى حول وثائق ومعاهدات السلام تلك إلى هدنة مؤقتة تنتهى بمجرد استكمال أطرافها لأستعداداتهم العسكرية، وكان النموذج الواضح فى هذا الإطار هو معاهدة فرساى التى أجحفت حقوق ألمانيا، وكان هذا الأجحاف هو بعينه الشرارة التى أشعلت نيران الحرب العالمية الثانية.

أردناه سلاماً متكافئاً ليحمل بين طياته عناصر البقاء والأستمرار، ولأننا فعلا كنا نريد سلاماً حقيقياً بعد أن أكتشفنا - كما يكتشف العالم كله الآن - أن الحرب الحديثة لم تعد مغامرة أو مجالا للتنافس بين الشعوب، ولكنها - إذا لم تكن لأسباب قهرية وعادلة - تصبح مجرد نزوة طيش، أو نوعا من الرفاهية لاتستطيع أى دولة أن توفر نفقاته... كان هذا هو «اتجاهنا الرئيسى»، ولكنهم بعد الفرحة و«الفورة» التى صاحبت الحلم المستحيل، كان لهم اتجاه آخر!

شيئاً فشيئاً حولوه إلى نوع من «السلام السخيف» كما لو كانت استراتيجيتهم الجديدة قررت الأبتعاد تماماً عن مبدأ «التكافؤ» الذى خططناه منذ البداية:

جاءت السخافة الأولى ممثلة فى مستوطنة ياميت التى بنوها على شاطئ البحر شرقى العريش وكانوا يخططون أن تصبح ميناء فى المستقبل وكانت البيوت والمنشأت هناك فاخرة حتى أن السكن اقتصر على الصفوة من المجتمع الإسرائيلى دون غيرهم، وكان الموقع الذى أختاروه - ومازال - تحفة طبيعية برماله الفضية البيضاء ومياهه

الصافية، والنخيل الكثيف الذى يملأ المكان، وعرضنا الشراء والتعويض ولكنهم لم يوافقو لأنهم فيما يبدوا كانوا يستخسرون أن تصبح هذه المدينة الصغيرة فى أيدينا لدرجة أن المستوطنين هناك كانوا يبكون أمام كل من يأتى لزيارتهم

وعلى أية حال انتهت هذه «السخافة الأولى» بمسرحية مبتذلة قادها الجنرال إريل شارون ولم يسدل الستار إلا بعد أن قامت البلدوزورات الإسرائيلية بهدم جميع المبانى والمنشأت فى هذه المنطقة، ومازال الحطام مكوما حتى يومنا هذا فى هذه البقعة التى تعتبر من أجمل بقاع العالم.. لم يكلفوا خاطرهم حتى بإزالة الأنقاض والحطام ويعيدوا لنا الأرض كما تسلموها.. غطرسة، والتواء، ومشاعر نفسية مضطربة يظنونها تميزا وتفوقا!

ثم رفعت مصر الستار من جديد على ياميت حين أعادت بنائها فى مابعد ذلك بسنوات.. فى خطوة أدهشت العالم.

■ وجاءت السخافة الثانية على أيدى رئيس الوزراء الأسبق مناحم بيجين الذى طلب الرئيس السادات فجأة وألح عليه أن يجتمعا معا فى منطقة شرم الشيخ لأمر هام جدا جدا؟ وكان أن توجه السادات إلى شرم الشيخ، وأجتمع مع رئيس الوزراء الإسرائيلى، ومضى الوقت دون أن يسمع كلمة واحدة تستحق أن توصف بأنها هامة أو غير عادية، وأنتهى الأجتماع وأقفل السادات عائدا إلى القاهرة، ليكتشف بعد ذلك أن المقاتلات الإسرائيلية أقلعت من إحدى القواعد الجوية بسيناء والتى كانت مازالت بأيديهم، أقلعت المقاتلات بعد لحظات من اجتماع السادات وبيجين، متجهة لضرب المفاعل النووى العراقى.. وكانت الرسالة المسمومة واضحة للجميع.. فقد أراد بيجين أن يوحى للعرب أنه اتفق مع السادات على ضرب المفاعل العراقى.. رسالة سم وسخف وسياسات شريرة.. ابتلعها الزعيم المصرى بكبرياء الصمت، لأنه كان لايسمح لأى أحداث جانبية بأن تجعله يحيد عن الهدف الأساسى، وكان هدفه الأساسى كأى فلاح مصرى، هو الأرض

■ وجاءت السخافة الثالثة فى مارس عام ١٩٧٨ ممثلة هذه المرة فى غزو عسكرى إسرائيلى كامل لجنوب لبنان الذى مازال يعانى حتى يومنا هذا.

■ ثم جاءت السخافة الرابعة بعد استشهاد السادات، وتولى الرئيس مبارك للحكم، وهنا انفجرت مشاعر القلق المزمن من جانب الإسرائيليين جميعا فقد كانوا يعلمون جيداً أن مبارك من قلائل العسكريين المحترفين فى العالم العربى، وأنه خاض أول حرب منتصرة ضد إسرائيل وأستطاع أن يتصدى لسلاحهم الجوى، الذى هو «قدس الأقداس» عندهم، وموضع فخرهم وزهوهم جميعا، كذلك كانت ملامح مبارك - ومازالت - قوية، ولم يكن قد أفصح عن نفسه قبل توليه الرئاسة، فخاف الإسرائيليون على مصير السلام، وكانت هذه المخاوف نفسها قد ظهرت عند البعض حتى قبل استشهاد السادات، فكانوا يسألون: ماذا يمكن أن يحدث بعد السادات وكيف نضمن استمرار السلام؟.. حشروا أنوفهم بشكل سخيف فى شئوننا الداخلية بسبب قلقهم المزمن والمتناقض فى الوقت ذاته، وبعد سنوات اكتشفوا أن الرجل الوحيد القادر على تحويل حلم السلام، إلى حقيقة واقعة وملموسة.. هذا الرجل اسمه حسنى مبارك.

■ لم يكن هذا ليجعلنا ننجو ونتجنب مسلسل السخافات الذى يهب علينا من أتجاه الشرق، فجاءت السخافة الخامسة ممثلة فيما عرف بمشكلة طابا.. أرض مصرية منذ قيام الدولة المصرية على إيدى أجدادنا القدامى، ومع ذلك ساد «المزاج السخيف» وتمكن من كل الإسرائيليين فى أخر محاولة للأخلال بمعادلة «السلام المتكافئ» وتحويله إلى سلام قهرى يفرضه الجانب المنتصر!! ووقف مبارك بصبر ودبلوماسية وهدوء سيسجله التاريخ، وأستطاع أن يعيد البقعة الأخيرة من الأراضى المصرية، ويقيم للمرة الأولى فى التاريخ حدودا ثابتة وراسخة مع الجيران الجدد!

■ وفى إطار التدخل فى الشئون الداخلية، جاءت السخافة السادسة حول لإجتماع الثلاثى الذى كان قد عقد فى الأسكندرية بين مبارك وفهد والأسد.. أجتماع لم يحضره غير القادة الثلاثة وخرج بيان رسمى عما دار به، ومع ذلك أصروا بسخافة أن الإجتماع كان موجها إليهم ولمنع عملية التطبيع فى العلاقات بينهم وبين بعض الدول العربية.. كيف عرفوا ذلك؟ وكيف توصلوا إلى مايجرى داخل هذا الأجتماع المغلق؟... مجرد سخافة.

■ ثم جاءت بعد ذلك السخافة السابعة - ولانقول الأخيرة - ممثلة فى رفض التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية، وبالله عليكم وعلى جميع سكان هذا الكوكب المنافق، كيف يمكن لدولة أن تتحدث عن السلام وتنشده وفى الوقت نفسه

ترفض التوقيع على مثل هذه المعاهدة؟ إن إستراتيجية السلام التى اتبعناها منذ البداية لم تقم على خيال و«أوتوبيا» رومانسية، فنحن نعلم جيدا ونعى جيدا المثل الرومانى الذى يقول: «عندما تعمل للسلام استعد للحرب» لذلك لم تقم مصر بتسريح جيشها، ولم تبخل عليه من قوتها اليومى لشراء مايكفل له القوة من الأسلحة الحديثة.. وفى ذلك لم يكن الهدف هو إقامة استعراضات سنوية - وجدير بالذكر أن مبارك ألغى هذه الأستعراضات منذ توليه الحكم - ولكن كان الهدف دائما هو حماية السلام، وحماية الأمن القومى، وتوفير القدرة عليب مجابهة زى تحد... ولكن ميول الاستهتار والسخف الإسرائيلى، ترى عكس ذلك، وتريد قوة نووية، وتفوقا شاملا على كل من الدول العربية، وفى نفس الوقت تقول أنها تريد سلاما.. فأى سلام هذا بالله عليكم.. لعنكم الله جميعا.

إن هذه المناورات لم تخل علينا منذ البداية، ولم نبتلع سخافاتهم الواحدة تلو الأخرى، من قبيل الضعف أو الأستكانة، ولكننا ابتلعناها من قبيل الأحساس بالمسئولية، والإحساس بأننا كبار ولسنا أقزاما، ومنذ البداية فقد كنا نحن الذين صنعنا السلام وأقمناه، ونحن الذين صبرنا عليه حتى كبر وشد عوده.. وعلى الجانب الآخر أن يكبر بدوره ويكف عن مناورات القلق والميكافيللية التى يعتقدون أنها سياسة عبقرية.. عليهم أن يفعلوا ذلك، أو يتوقعوا ظهور «شمشون» جديد ليهد المعبد على رءوس الجميع □

كامب 'ديتون'.. وكامب 'ديفيد

توقفت الحرب القذرة فى البوسنة، بعد أربع سنوات تقريبا من كل ماعرفته الإنسانية من إنحطاط ووحشية وخداع وإستغلال.. توقفت الحرب الهمجية بعد أن حصدت أرواح أكثر من خمسة وثلاثين ألف رجل وطفل وإمرأة.. أغلبهم، أن لم يكن جميعهم، لقوا حتفهم خلال مذابح حقيرة بعيدا جدا عن ميدان القتال وشرف الاستشهاد «وقدسية» السلاح.. إن كانت لاتزال هناك أى «قدسية» تذكر لأى سلاح، بعد كل الذى شاهدناه بسببه من مآس، وبصفة خاصة خلال هذا القرن الأهوج من الزمان.

لقد شهد قصر الإليزية بالعاصمة الفرنسية مراسم توقيع اتفاق السلام بين الأطراف الثلاثة المتصارعة: البوسنة وصربيا وكرواتيا، وبينما كان الزعماء الثلاثة يوقعون اتفاقية السلام، كان يقف خلفهم الرئيس الأمريكى كلينتون والرئيس الفرنسى جاك شيراك، ورئيس وزراء روسيا ورئيس وزراء انجلترا، ومستشار ألمانيا، ورئيس وزراء أسبانيا.. صحيح أنهم صفقوا وتبادلوا التهانى بعد انتهاء مراسم التوقيع داخل القاعة الفخمة بقصر الاليزية، ولكنه صحيح أيضا أنهم سيكون لهم موقف آخر مختلف تماما إذا ماتم انتهاك هذا الاتفاق!

لقد لعبت الولايات المتحدة الأمريكية دورا أساسيا فى تحقيق أتفاق «كامب ديتون للسلام» بين الأطراف المتصارعة فى البوسنة، وأستطاعت واشنطن أخيرا أن تحقق المهمة المستحيلة لتضيف إلى رصيدها إنجازا آخر يؤكد قوة الولايات المتحدة ومدى

تأثيرها على المسرح العالمى، وقد جاء ذلك فى نفس الوقت الذى لم تنس فيه التزاماتها فى بؤرة الصراع الأكبر فى منطقة الشرق الأوسط والذى بدأ ينفرج. سواء أراد البعض أم لم يرد. بعد اتفاق كامب ديفيد الشهير بين مصر وإسرائيل.

.. مرة أخرى أثبتت الولايات المتحدة العجز الأوروبى، وقد جاء هذه المرة فى صراع كان يدور فى قلب القارة الأوروبية نفسها، وإذا كانت تفاصيل السلام بين مصر وإسرائيل قد دارت فى كامب ديفيد، فان اتفاق السلام فى البلقان قد دارت تفاصيله فى كامب ديتون بولاية أوهايو، وهى عبارة عن قاعدة جوية أمريكية ضخمة تضم أقوى ماتملكه الولايات المتحدة من طائرات قتال حديثة، وجرت مراسم عشاء بين الأطراف المتصارعة فى البلقان فى إحدى حظائر هذه القاعدة وكانت موائد العشاء مرصوصة بين طائرات ف - ١٨ وف ١٥ و ف - ١٦ وطائرات الشبح التى لها ليس نظير فى العالم كله.. وكانت الرسالة واضحة للجميع.

وربما كان عمق الكراهية والأحقاد بين أطراف الصراع فى البلقان أعمق بكثير من عمق الكراهية والأحقاد بين الأطراف العربية الإسرائيلية، ومع ذلك حققت الدبلوماسية الأمريكية نجاحا فى تحقيق اتفاق السلام رغم الشواهد التاريخية والراهنة التى تعكس بوضوح كراهية واحتقار المسلمين للصرب، وكراهية واحتقار الصرب لمسلمى البوسنة، أضف إلى ذلك كراهية واحتقار الكروات لكلا المسلمين والصرب.. كما لو كانت دائرة شريرة تنذر باندلاع الخطر فى أى لحظة فى المستقبل، ومع ذلك صمم الأمريكيون على قبول التحدى لتأكيد سطوتهم ونفوذهم العالمى داخل بقعة من الأرض فى قلب القارة الأوروبية تفتقر إلى أى سلعة استراتيجية تحتاج إليها أمريكا أو الحضارة الأوروبية بشكل عام كما هو الحال بالنسبة لحرب الخليج أو أى حرب فى الشرق الأوسط.

● وإذا تركنا المثاليات جانبا وهبطنا إلى أرض الواقع، فإن هذا الواقع يقول لنا أن إرسال واشنطن لقوات بهذا الحجم إلى أراضى البوسنة، يأتى فى المقام الأول لإنقاذ حلف الأطلنطى أكثر منه لإنقاذ البوسنة، وفى ذلك فإن التفسير التاريخى لهذه الخطوة يعتمد أساسا على حقيقة أن حلف الأطلنطى

يمثل التزاما أمريكيا «بالأمن الجماعى» التزمت به الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، وكان الهدف الأول من قيام هذا الحلف هو الوقوف أمام النزعة التوسعية السوفيتية التى تبناها ستالين بعد الحرب العالمية الثانية، وبدأ بمقتضاها فى التهام دول أوروبا الشرقية الواحدة تلو الأخرى والجميع رأى بعد ذلك كيف دخل الحلف إلى البلقان من جديد ليفرض سطوته بعد أن تغيرت خريطة العالم.. أكثر وأكثر.

ولقد استنبط الأمريكيون درسا أساسيا بعد الحربين العالميتين قوامه ان مصير الولايات المتحدة يرتبط بشكل وثيق مع المصير الأوروبى، وانه فى كل مرة حاولت فيها واشنطن ان تناى بنفسها عن الصراع الدائر فى أوربا. كما حدث فى الحربين العالميتين الأولى والثانية. كانت تجد نفسها مضطرة فى النهاية لخوض هذه الحروب بعد ان تكتشف فى كل مرة ان الأمن والاستقرار الأمريكيين يعتمد الى درجة بعيدة على الأمن والاستقرار الأوروبى.

من هنا كانت فكرة قيام حلف الأطلنطى بعد الحرب الثانية، ولكن بعد نشوب مشكلة البلقان فى قلب أوروبا، وقلب نطاق مهام الأطلنطى الذى قام أساسا لمجابهة الأتحاد السوفيتى بأكمله وليس جزءا ضئيلا منه بحجم البوسنة!. فان هيبة هذا الحلف، الذى قدمت له الولايات المتحدة الكثير طوال خمسين عاما تقريبا، كانت هيبة هذا الحلف فى مهب الرياح بما لذلك من أثار سلبية على الأمن الأوروبى، وبالتالى الأمن الأمريكى، وذلك فى أطار المهمة الأفتراضية الأولى للأطلنطى الا وهى ردع واحتواء أى عدوان روسى، وهكذا بات واضحا للأمريكيين ان عدم تدخلهم فى مشكلة البوسنة، دبلوماسيا وعسكريا، معناه ببساطة تامة نهاية الحلف الأطلنطى وكل ما يتبع ذلك من ترتيبات امنية شغلوا أنفسهم بترتيبها طوال السنوات الماضية.

وفى ذلك فانه طوال المحادثات والمجهودات الدبلوماسية الأمريكية لم تكن هناك أى أعتراضات من جانب الأمريكيين، ولكن عندما وصلت الأمور الى مرحلة أرسال قوات عسكرية «٢٠الف رجل» ثارت ثائرة الأمريكيين بشكل عام، وبدأ شبح فيتنام يطل من جديد على الشعب الأمريكى، ووصل الأمر الى حد مناداة البعض بالعودة الى «قوقعة الانعزالية» رغم ما يمكن ان توفره من شعور زائف بالأمان، ولكنه فى

رأيهم أفضل بكثير من ارسال الشباب الأمريكى للموت فى أوحال البوسنة والغرق فى حمامات الدماء هناك من جراء تهديدات جنرالات الجنون من الصرب أمثال الجنرال راتكو ميلاديتش، وتهديدات المتطرفين الاسلاميين الذين يعملون مستقلين فى أراضى البوسنة دون قيادة أو ضوابط تحكمهم، ومن الميليشيات المحلية التى ما زالت منتشرة فى كثير من مدن البوسنة، ومن المليونى مواطن المشردين فى أرجاء البلاد دون مأوى، ومن ستة ملايين لغم مزروعة حاليا فى أراضى البوسنة دون خرائط أو وثائق تحدد مواقعها.. ومن أخطار أخرى كثيرة تراكمت على مر سنوات طويلة، تعود الى بداية هذا القرن، الذى امتلأ بكل أنواع المتناقضات والتى بدأنا الأن. فى نهاية القرن نفسه. نحصد ثمارها الأليمة.

● من بين هذه المتناقضات داخل المجتمع الأمريكى نفسه، انه بخلاف «عقدة فيتنام» ومنذ ألغاء نظام التجنيد الأجبارى والاعتماد على نظام التطوع لتكوين الجيش الأمريكى ومختلف أفرع القوات المسلحة هناك، فانه كان من المفزض ان تتلاشى حساسيات أرسال الجنود للقتال فى الخارج على أساس انهم تطوعوا بمحض أرادتهم، واختاروا هذا النوع من العمل كسبيل للحياة، ولكن الذى حدث هو انه منذ هذا التاريخ أصبح المجتمع الأمريكى شديد الحساسية والتردد فى أرسال قواته المسلحة للقتال فى أى مكان فى العالم، كما لو كانوا (على حد وصف صحيفة الواشنطن بوست) مجموعة من التحف الرقيقة النادرة التى لا ينبغى أبدا خروجها من المتحف، ولا ينبغى أبدا المخاطرة بهم فى أى مقامرة من أى نوع. وهذه مشكلة جادة فرضت نفسها على مسرح الحياة الأمريكية خلال الآونة الأخيرة، وقد نعود لها بالتفصيل فى مناسبة أخرى.

على انه مجرد توقيع الاتفاق بالأحرف الأولى فى الشهر الماضى، وبدات الحياة تعود الى طبيعتها فى أراضى البوسنة خاصة فى سراييفو، وبدأ الأمريكيون فى أعداد المطارات هناك لاستقبال الاف من طائرات الشحن الأمريكية التى ستصل تباعا خلال الأشهر القادمة لنقل المعدات والمؤن وستين الفا من الرجال من بينهم عشرون ألف جندى أمريكى وأربعون الفا أخرون من قوات حلف الأطلنطى لن تقتصر مهمتهم على الفصل بين القوات المتحاربة، اذ أن روح الاتفاق تقوم على تصور بناء عملية

سلميةومصالحة بين الأطراف، تتوقف خلالها تماما عملية التطهير العرقي وتسمح لما يقرب من مليونى مواطن تم تشريدهم بسبب العمليات الحربية، إما بالعودة الى ديارهم أو تعويضهم عن الأضرار التى لحقت بهم، كما يقضى الاتفاق على القبض على جميع مجرمى الحرب الذين قتلوا الأبرياء واغتصبوا النساء، وتقديمهم الى محكمة دولية خاصة فى لاهاى، كذلك فانه فى الوقت الذى ينص فيه الاتفاق على سلطة الحكم الذاتى للمسلمين الكروات والصرب البوسنيين، فانه فى الوقت ذاته يعترف بدولة البوسنة كدولة مستقلة ذات سيادة فى أطار حدودها الدولية، ولقد كان من أبلغ ما قيل بعد الاتفاق ما أعلنه الرئيس على عزت بيجوفيتش رئيس البوسنة من ان «هذا الأتفاق مثل الدواء المر الذى يجب علينا ان نتجرعه من أجل الشفاء».. أما وزير خارجيتنا عمرو موسى الذى حضر مراسم الاحتفال فقد أعلن بكل شجاعة وصراحة «ان الاتفاق هو شهادة وفاة ليوجوسلافيا السابقة ونهاية لفكرة صربيا الكبرى أو أى دولة كبرى تريد الهيمنة على الآخرين»..

●ولأننا نعيش فى عالم متشابك ومتداخل، فقد احسست وقتها كما لو أن عمرو موسى يقول «ان اتفاق طابا بين الفلسطينيين والاسرائيليين معناه نهاية اسرائيل الكبرى».. وليس «أن تفاق البلقان معناه نهاية صربيا الكبرى».. ولأنه كما نعرف من خلال تجربتنا الرائدة فى عملية السلام بمنطقة الشرق الأوسط ان السلام. للعجب. أصبح له شهداء وضحايا استطاعوا النجاة من جحيم الحرب والمعارك، ولقوا حتفهم أو استشهدوا عندما تبنوا اتجاه السلام فى عالم أصبح فيه الطريق الصحيح والطبيعى غير عادى وغير مألوف بالنسبة لضعاف العقول، الذى شوشت الأحقاد والدعاية الجاهلة على أسلوب تفكيرهم، فلنا ان نتخيل ماذا يمكن ان يحدث خلال المستقبل فى منطقة البلقان التى امتزجت فيها الكراهية والأحقاد بشكل عميق ابان فترةالكبت الأيديولوجى الذى استمر سنوات طويلة، وبشكل غير مسبوق فى أى منطقة أخرى فى العالم.

ومع ذلك، ولأنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح، فان السلام قادم لا محالة على كل ربوع وأرجاء الأرض، ربما قريبا جدا وربما بعد قرن آخر من الزمان، ولكن المهم أن البشرية بدأت تعمل بجدية فى هذا الاتجاه بعد أن أيقنت تماما انه لا سبيل لاستمرار الحياة بدون السلام والاستقرار، ولكن لأن معظم الأباء والأجداد قد اخطاوا

الطريق، ولأن «خطايا الآباء تقع على كاهل الأبناء» كما يقول الأنجيل، فان علينا جميعا ان نكفر عن خطايانا السابقة، وندفع الثمن الباهظ خلال فترة الانتقال الحرجة والصعبة، من طريق الخطأ، والكذب، والخداع، الى طريق الصواب والحق والمستقبل.. وفى ذلك فإن الأقدار لن تفرق أبدا بين دولة صغيرة فى الحجم البوسنة، ودولة كبرى مثل الولايات المتحدة.. فالأقدار لا تفرق فى عدالتها وتتناسى الرحمة والشفقة عندما تنزل العقاب...

وداعا للحرب.. وليس للسلاح!

نعرف جميعا ان الروائى العالمى إرنست همنجواى، خرج بقصته الشهيرة: «وداعا للسلاح» وذلك بعد تجربة شخصية مريرة خاض خلالها بعض معارك الحرب العالمية الأولى التى دارت فى ايطاليا، تجربة أثرت فى كيانه كله واتجاهاته الفكرية، وصلت إلى منتهاها. كما نعرف جميعا. بانتحار الأديب العالمى الشهير، عندما وضع «سلاحه» (بندقية صيد) عند نقطة التقاء الرقبة بأسفل الرأس، وضغط على الزناد، فودع الحياة بأسرها.. وداعا تعانق فيه «السلاح» مع الإنسان الخلاق، وتجاربه المريرة.

إذن فهى التجربة الشخصية والمباشرة التى تجعل الناس يفهمون حقيقة الأمور، فتؤثر فيهم ويؤثرون فى غيرهم، وفى حالة الحرب فإن أحد لن يفهم شيئا، ولكنه بالقطع سيشاهد أمام عينه مآسى وفظائع، وأحزاناً، ومخاوف.. يشترك المنتصر والمهزوم فى متابعة فصولها، والإحساس بها إلى آخر أيام العمر، بل أن البعض يقول: إن ثمة «رابطة مقدسة للسلاح» تربط بين أى طرفين محاربين نتيجة المشاعر الإنسانية المتماثلة، والتى تنبع من مؤثر واحد يحتوى الجميع برا وبحرا وجوا فيما يسمى بالحرب.

ومن هنا كانت الحقيقة الغريبة غير المنطقية، وغير المتوقعة على الإطلاق والتى تتمثل فى أن العسكريين المحترفين هم أكثر الناس مقتا وكراهية للحرب، فهم وحدهم الذين يعرفون. إن لم يكن قد مارسوا. ويلات الحرب وجنون الأسلحة الصماء التى ينطلق الموت من فوهاتها، ومن هنا أيضا كان صقور الحرب هم أنفسهم أبطال السلام،

وذلك بشرط أن تكون الحرب حقيقية يخوض الجانبان غمارها حتى النهاية، ولا يهم فى ذلك: من المنتصر؟ ومن المهزوم؟ لأن التجربة تصبح واحدة للجميع، أما إذا كانت الحرب نزهة من جانب واحد تنتهى بالأمجاد وأكاليل الغار، فإنها تتحول فى هذه الحالة إلى دعوة للمزيد من المعارك والحروب.

ولذلك فانه عندما وقف الرئيس الراحل أنور السادات ليعلن فى إحدى خطبة بسذاجة مقصودة وغير بريئة. لأنه بدأ فى عملية الخداع الاستراتيجى لإسرائيل قبل سنوات من نشوب حرب التحرير. وقف السادات يعلن انه مستعد لإعادة فتح قناة السويس للملاحة الدولية من أجل صالح المجتمع الدولى فى كل أرجاء العالم وأن على إسرائيل من أجل ذلك أن تنسحب إلى خط العريش. رأس محمد.. عندما أعلن السادات ذلك ضحك مناحم بيجين، ومعه كل قادة النصر السهل فى يونيو ٦٧، بل وصل الأمر إلى حد الإستهزاء عندما وقف بيجين يعلن أنه لو كان السادات يريد أن يأخذ أرضه مقابل فتح قناة السويس، فالأفضل له ان ياتى لياخذ «شيئا آخر»، ونطق اسم هذا «الشىء الآخر» باللغة البولندية التى هى لغة بلده الأصلى قبل ان يأتى الى فلسطين!

أما عندما اقتحم السادات قناة السويس بقواته العسكرية وذاقت إسرائيل لأول مرة ويلات الحرب ومرارتها، فقد كان مناحم بيجين نفسه هو الذى أخلى سيناء إلى ما وراء خط العريش. رأس محمد بكثير جدا وحتى آخر ملليمتر من أراضينا وعمل على اقرار السلام مع مصر، ولم يتفوه بأى ألفاظ «باللغة البولندية» ولكنه قال بوضوح قبل وفاته انه سيموت وسيذهب إلى قبره، ومعه وثيقة كامب ديفيد!!

إذن فالحرب لابد ان تكون متكافئة ليصل طرفاها إلى حقيقتها وجوهرها وانها باهظة على النواحى الإنسانية بحيث أصبحت فوق طاقة أى إنسان، إلا فى حالة واحدة وهى ان يكون هذا الإنسان مهددا فى شرفه وشرف وطنه، أو فى حقوقه الشرعية، أو فى حريته وحرية بلاده.. من هنا يأتى الدافع المعنوى: هذا السلاح السرى والطاقة السحرية التى جعلت فيتنام تتصدى بشجاعة وإصرار لجحافل الجيوش الأمريكية، وجعلت أفغانستان على الناحية الأخرى تتصدى لجحافل جيوش الاتحاد السوفيتى السابق، وتجعل، حتى يومنا هذا، الشيشان تتصدى لجحافل الجيوش الروسية.

ولقد نقلت لنا شبكة «إن بي سي» الأمريكية منظرا فريدا كان هو الدافع لفكرة هذا المقال، فقد رأينا عددا من الأمهات الروسيات داخل العاصمة جروزني يجلس في أحدى المكاتب ويتفحصن صور الجنود الروس الأسرى، ليتعرفن على أبنائهن، ثم جاء أحد هؤلاء الأبناء في ملابسه العسكرية ودخل المكتب، فإذا به يجد أمه أمام عينيه، والتي ما أن رأته حتى صاحت بالبكاء والصراخ، ولم يتمالك هذا الجندي العملاق بملابسه العسكرية الكاملة إلا ان يبكي هو الآخر محتضنا أمه، وسند رأسه على صدرها كالطفل الرضيع، وانخرط الجميع في حالة بكاء هستيري، ولكنه طبيعي وإنساني، وفي نفس اللحظة كان المسئول الشيشاني عن هذه العملية يجلس خلف مكتبه راضيا ومبتسما.. فبلاده لم تعتد على أحد، وإنما تكتفي بالدفاع عن نفسها وعن حريتها، وفي ذلك يتحمل أبناؤها ويلات الآلة الحربية الروسية الضخمة بينما لا تملك أيديهم غير أسلحة بسيطة. ومع ذلك فإنهم يتحملون ويحاربون بعزيمة وقوة مردها الأول الدوافع المشروعة وما يتولد عنها من طاقة سحريةيسمونها بالروح المعنوية، التي لم تتوصل إلى إنتاجها حتى الأن أي ترسانة عسكرية.. لا في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا في روسيا، ولا في أي دولة في العالم.

وبعد ان خرجت أمريكا من فيتنام خاضت عدة تجارب عسكرية كلها باءت بالفشل، ففي ليبيا كانت نتائج الهجوم الجوي الأمريكي، رغم طائرات القتال الحديثة والصواريخ والقنابل الذكية المتقدمة، كانت هذه النتائج ضئيلة ومتواضعة إذا ما قورنت عمليا وفنيا بالامكانات التي تم حشدها لهذا الهجوم الجوي، أما بالنسبة لعملية تحرير الرهائن لأمريكيين في طهران فقد كانت فشلا ذريعا لا يستطيع أي حاسب اليكتروني ان يتنبأ به.. وكانت العملية الوحيدة الناجحة هي عملية «عاصفة الصحراء» أو حرب الخليج وذلك لسبب أساسي يكمن في التأييد الدولي والتحالف الدولي الذي وقف مع القوات الأمريكية، وايضا لأن الجانب الآخر (الجيش العراقي) لم يكن عنده قضية يدافع عنها، ولم يكن لديه «دوافع» تكفي من أجلها، فاختفت من بين صفوفه هذه الطاقة السحرية التي تكلمنا عنها، والتي تجعل من الدمار والموت والفناء أكثر رحمة من الحياة الذليلة والعيش بدون شرف وكبرياء، ولذلك شاهدنا ما سماهم صدام حسين والته الاعلامية، «بالنشامى» فيما هو أشبه بالكوميديا التراجيدية التي تغلب فيها الأحزان والأسى، يستسلمون لخصمهم فرارا من جحيم زعيمهم!

وكما كانت فيتنام بالنسبة لأمريكا، كانت أفغانستان بالنسبة للاتحاد السوفيتى السابق، وكما ساعد هذا الاتحاد السوفيتى الفيتناميين الشماليين ضد قوات العم «سام» ساعدت واشنطن أفغانستان بكل ما يمكن بل انها زودت الأفغان بأسلحة متقدمة ضنت بها على حلفائها من بينها صواريخ ستنجر المضادة للطائرات والتى أصبحت الأن فى حوزة «إرهابى ما بعد الحرب الأفغانية»، وكما كانت ليبيا وطهران بالنسبة لأمريكا، أصبحت الأن الشيشان بالنسبة لروسيا، ومع ذلك علينا ان نتعقل وندرك حقائق الأمور وان نتوقع انه إذا ما استمرت روسيا فى اتجاهاتها لقمع الشيشان عسكريا فإنها ستنجح أخيرا فى ذلك بسبب التفوق الذى لا يقارن، ولكنها ستتحمل خسائر فادحة بسبب روح واداء الرجال فى الشيشان.

ولما كان كثير من المراقبين يعتقدون ان عصر قهر الشعوب قد ولى وانتهى، ويؤيد ذلك التجارب الإنسانية وشواهد التاريخ، فإن مجال الصراع والتنافس بين المجتمعات الإنسانية ينحصر الآن فى مجالات الانتاج والتطور، ومجالات الفنون والحضارة، وينحصر أيضا وبشكل ملموس مباشر فى ملاعب كرة القدم، وملاعب التنس والأسكواش، وحمامات السباحة، وميادين الرماية، والقفز بالمظلات، والألعاب الهوائية والطائرات الشراعية، لذلك لا ينبعى ان يعجب المرء من تحول أسلحة الماضى مثل السيف والرمح والقوس والسهم، والبندقية، والطبنجة وحتى المظلات والطائرات.. كلها تحولت إلى أنواع من الرياضة لامتصاص روح التنافس بين الأفراد والمجتمعات ورغبتها فى التفوق، والجنوح بها إلى اتجاهات صحية بعيدا عن الدمار والموت الذى كانت تحدثه فى الماضى، ويقينى ان هواة تسلق الجبال حاليا هم أشد لياقة وقوة من أى جندى فى أى قوات خاصة لءى دولة فى العالم وأن الواحد منهم يشعر بدرجة أكبر من «حلاوة» الانتصار، عندما يقهر قمة جبل شاهق، ويقف وحده فوق الجبل المهزوم!

ولذلك فإنه عندما يتجانس المجتمع الإنسانى، وتتحد صفوفه، ويتحلى بالنظام فإنه يصبح قوات هائلة مسلحة بالأجهزة والمعدات والعلم والتكنولوجيا، هدفها الأوحد هو العمل والإنتاج فى منظومة بشرية هائلة تعود ثمارها على الجميع، وعلى الوطن الذى

يستطيع ان يتنافس ويباهى بذاته وبإنتاجه بين باقى دول العالم.. تماما كما يحدث حاليا فى اليابان والمانيا والصين ومجموعة نمور أسيا. أما إذا انقسمت المجتمعات على نفسها ووجه أفرادها صراعهم وتنافسهم إلى بعضهم البعض، فلن نرى غير مجتمعات إنسانية معاقة تجابه التصحر والجفاف والمجاعة..والتخلف المشين.

وليس معنى هذا الكلام اننا أصبحنا نعيش فى عالم مثالى يعمل من اجل «الخبز والزبد» وينسى «المدفع» لأننا مازلنا حتى الأن ولسنوات طويلة فى المستقبل نحتاج لضمانات القوة العسكرية لحماية مكاسب أى مجتمع والدفاع عنها، ولردع أى نوايا أو اتجاهات عدوانية، ولكن كما قلنا من قبل فإن الحرب ستصبح الملاذ الأخير ومن أجل حقوق أساسية ومشروعه.. وليست ابدا من أجل عربدة او بلطجة دولية، فالتجربة أصبحت رهيبة، والثمن أصبح غاليا جدا بالنسبة للدول العظمى فى صراعها مع صغرى الدول.

ومن اجل ذلك يظل السلاح مطلبا أساسيا للجميع، ولكن لأننا عشنا فى غفلة تامة لحقبات طويلة، فإننا لم ندرك، ولم نعبا بطبيعة سباق التسلح وغايته.. فمنذ استخدام الإنسان الأول جسما صلبا استطاع به أن يقتل خصمه.. منذ هذا التاريخ والإنسان يسعى للحصول على «السلاح الأسمى أو النهائى».. هذا السلاح القوى الذى يردع الجميع، والذى يعمل بمجرد الحصول عليه على تخويف الآخرين وإرهابهم إلى الأبد، وقد كان هذا السلاح كما نعرف الأن، هو السلاح النووى الذى حسم المشوار الطويل فى سباق التسلح.

وكان هذا السلاح بعينه هو السبب الأساسى فى عدم نشوب حرب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى الذى انهار أخيرا لأسباب تتعلق بالاقتصاد والإنتاج والادارة والعقيدة.. وعندما تم حسم سباق التسلح، بدأت الدول التى تعيش فى غفلة تفيق من سباتها وتسعى بدورها للحصول على هذا السلاح النهائى، ولكن الذين حسموا السباق يعملون حاليا جاهدين وبفاعلية كبيرة على احتكار هذا السلاح لأنفسهم، وعدم شيوعه بين الجميع، وكانت إسرائيل من بين الدول التى نجحت فى الحصول على هذا السلاح فخلفت لنا مشكلة جديدة وخطيرة فى المنطقة ستستنفد جزءا كبيرا من طاقاتنا فى المستقبل.

وحتى بعد تأكد حصول إسرائيل على هذا السلاح، فقد كان الجميع مازالو فى غفلتهم المريحة، فيما عدا «مصر مبارك». ورغم اتفاقية السلام بينها وبين إسرائيل.. تنبهت مصر وأخرجت هذه القضية إلى دائرة الضوء والاهتمام، وأصر الرئيس مبارك على رفض التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية دون توقيع إسرائيل على نفس المعاهدة، لأننا نستطيع ان نتصور شكل المنطقة فى المستقبل، إذا ما كانت إسرائيل وحدها تملك هذا السلاح النهائى.. وفى هذا الاطار يتحدد جزء كبير من شكل الصراع الاقليمى فى المستقبل، فالصراع هو جوهر الحياة، وليت أشقاءنا فى هذه المنطقة المنكوبة دائما بخلافاتها المزمنة، والتى لا مبرر لها، ليتهم يقفون معنا من البداية، بدلا من اللحاق بالأحداث بعد ان يتم حسمها، تماما كما فعل البعض فى مرحلة الصراع العسكرى، وكما فعل الجميع مع بداية مرحلة السلام.. وهكذا لن نستطيع أبدا أن نقول «وداعا للسلاح» □

الآرهاب يحاول حصار السلام!

"شالوم".. و"دماء"!

أدلي مواطن أمريكي من كاليفورنيا بأعمق وأطرف تعليق عن حقيقة مايجرى فى عالمنا والأوضاع التى وصلنا إليها، فقد قال الرجل البسيط إنه مادام كان الكون الذى نعيش فيه يضم بلايين النجوم والكواكب، فإنه لابد أن تكون هناك كواكب أخرى نشأت فوقها الحياة، وأن سكان هذه الكواكب اقتربوا وطافوا حول الكوكب الذى نعيش فيه.. ثم ابتعدوا على الفور، وقد يكون السبب وراء ذلك هو أن هناك رسالة مافى الفضاء الكونى تدعو الجميع إلى زيارة الكواكب الأخرى والعيش فى أى واحد منها، باستثناء كوكب واحد ينبغى على الجميع عدم الاقتراب منه إذ أن الجنس الذى يعيش فيه جنس شرير بطبعه، يتبارى كل واحد منهم للقضاء على الأخر وسفك دمه، فهم يكرهون بعضهم البعض، ويكرهون كل المخلوقات الأخرى، ومن ثم فأنكم إذا اقتربتم من كوكبهم فإن هؤلاء الأشرار سيقضون عليكم لا محالة، ولذلك لاتقتربوا تحت أى ظرف من الظروف من هذا الكوكب الشرير المسمى بـ «الكرة الأرضية»

تعليق بسيط وطريف، وشديد العمق، يصور الأوضاع الراهنة تصويرا بليغا، ولننظر بأنفسنا لأحداث أيام رأينا خلالها سفاح العراق الذى جوع شعبه، وفتك بجيشه، وبدد ثروات وطنه، رأيناه فى النهاية يسفك دماء عائلة بأكملها بلا ذنب سوى أن اثنين من أفراد هذه العائلة صاهراه بعد أن تزوجا ابنتيه - ودعونا من قصص الخيانة وأساطير

الأسرار العسكرية فليست هناك خيانة لحاكم نسف بلاده نسفا، وليست هناك أى أسرار عسكرية يمكن أن تخفى على وسائل الأستطلاع الحديثة وأجهزة جمع المعلومات وإذا كان الجنون لدى هذا الحاكم قد وصل إلى هذا الحد، فأى جنون هذا الذى دفع «الأب» إلى ترميل ابنتيه، ودفع «الجد إلى تيتيم أحفاده !!

وفى نفس هذة الفترة التى لا تتعدى أيام معدودة، قام رجال الجيش الجمهورى الأيرلندى بتدبير عدة انفجارات فى قلب العاصمة لندن، عملت على نسف عملية السلام التاريخية، والتى طال انتظارها عقودا طويلة من الزمن، بين بريطانيا وأيرلندا، وعندما بدأ الأمل يلوح فى الأفق أندلعت فجأة هذه الأنفجارات لتقتل من قتلت من أبرياء لاناقة لهم ولاجمل فى هذا الصراع، الذى نسى معظم الناس هناك أسبابه ونسفت فى الوقت ذاته بارقة الأمل التى طال انتظارها والجهود والتضحيات التى بذلت من أجلها.

وهو ما إنتهى فيما بعد حين تم توقيع إتفاق سلام فى ايرلندا.. غير أننى أعود إلى تلك الأيام وفى نفس هذه الفترة التى لاتتعدى عشرة أيام، تكرر نفس السيناريو بمدينتى القدس وعسقلان، خلال هجومين انتحاريين قاما بهما أثنان من أعضاء منظمة حماس، وسالت دماء الضحايا هنا وهناك، فى فصل جديد من مهزلة رفض السلام الذى أصبح حقيقة واقعة ودامغة، بعد أن أقرته مصر، والأردن، وفلسطين، ومازالت سوريا حتى الآن فى سعيها وجهودها ليصبح بعد ذلك السلام شاملا لكل الأطراف العربية التى خاضت أعنف، وأمقت، وأطول حرب شهدها العالم أجمع.

وكم كان الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات عظيما وشجاعا ـ عندما خرج مباشرة بعد هاتين العمليتين معلنا أنها عمليات إرهابية تفتك بأرواح الأبرياء من المدنيين وأنها موجهة ضد عملية السلام، وبالتالى لاتخدم أى هدف.

أما مصر فقد خرج رئيسها بكل ثبات واتزان، خرج على الفور، وبكل ثقة يتصل هاتفيا بالرئيس الإسرائيلى عيزرا فايتسمان يبلغه تعازيه وتعازى الشعب المصرى لأسر الضحايا، ويطالب بضبط النفس وعدم اثارة المشاعر تدعيما لعملية السلام واستمراريتها وعدم الأنحراف عن المسيرة والهدف الأساسى، بسبب شطحات حفنة من المغامرين هنا وهناك.

ولكن الغريب حقا أن تثور جماعات من إسرائيل، ويتساءل البعض هناك عن جدوى عملية السلام مادام يتضمن المسرح. وربما كان من الأفضل أن نقول «السيرك» ـ «الشرق أوسطى» مثل هذه العمليات الدموية، ويصل الشطط بالبعض هناك إلى حد التساؤل عن التنازلات، والثمن الذى يقدمه الإسرائيليون من أجل السلام، وإلى أى مدى يستمرون فيه على هذا الطريق؟ وفى رأيى أنه ليس هناك ماهو أكثر غباء من هذه الفرضية، وهذا الشكل من الحوار، لأن الذين يثورون هناك، ويطرحون مثل هذه الأسئلة الغبية، لمجرد أن منظمة غير حكومية ترفض عملية السلام، وتوجه نشاطها لمحاربة هذا الهدف الذى أرتضاه الشعب العربى بشكل عام، وحكومات ومؤسسات ثلاث من دول ماكان يسمى بـ«دول المواجهة» ماذا كان يمكن أن يقول هؤلاء لو أن شعوب وحكومات الدول العربية كلها هى التى ترفض عملية السلام، وتعمل على عرقلة مسيرته، وتجند كل مصادرها من أجل تحقيق هذا الهدف؟

وبعيدا عن العواطف والأنفعالات، فإنه واضح للجميع أن مثل هذه العمليات لاتسفر فى معظم الأحيان عن خسائر فادحة، وفى أسوأ الحالات فإنها تؤدى إلى مصرع عدد محدود من الضحايا ـ فى حالة الهجومين الانتحاريين فى القدس وعسقلان، بلغ عدد الضحايا خمسة وعشرين إسرائيليا بجانب الأنتحاريين اللذين قاما بتنفيذ العمليتين ـ أما بالنسبة للبديل الآخر، وهو الحرب، فإنه بديل مخيف والتقديرات مخيفة ومفزعة للجميع.. ومع ذلك فقد كان شيمون بيريز رئيس وزراء إسرائيل السابق حاسما وقاطعا عندما أعلن بأسلوب بلاغى: «إن الاغتيال والقتل لن يصرع عملية السلام» والأغرب من هذا كله، هو توقيت عملية القدس وعسقلان، فقد جاءت هاتان العمليتان فى وقت كانت فيه انظار كل العالم تتركز على منظمة الجيش الجمهورى الأيرلندى وانتهاكاتها للإتفاق الذى تعهدت به مع بريطانيا، كان العالم كله يلوم «الشين فين» (الجناح السياسى فى الجيش الجمهورى الأيرلندى) وبزغت حملة إعلامية دولية تهاجم «الشين فين» وتنتقد سلوك الجيش الجمهورى وتدمغه بالإرهاب.. فى هذا الوقت بالذات، وكما لو كان هناك من يرغب عمدا فى تحويل الأنظار عما جرى فى لندن، اندلعت انفجارات القدس وعسقلان فحولت الأنظار إلى العرب، والإسلام، والشرق الأوسط.

ولم تكن هذه هى أول مرة يحدث فيها هذا التحويل السريع لأنظار وأهتمامات الرأى العام العالمى، والذى يراجع تواريخ العمليات الإرهابية فى الشمال، سيجد أنه بعد العمليات الهامة التى أحدثت هزة فى الرأى العام العالمى، هناك دائما من يخرج

لنا فجأة بعملية أو أخرى فى الشرق الأوسط تغطى تماما على ماحدث هناك وتلتفت الأنظار إلى «السيرك العالمي المفضل» فى هذه المنطقة من العالم.

وهناك رأى يقول أن منظمات العنف فى مختلف أنحاء العالم، تواظب على المراقبة والتعلم من بعضها البعض، ومنذ فترة كان الأتجاه هو التفاوض والتطبيع، وكانت «الشين فين» تتخذ من إسرائيل وجنوب إفريقيا نموذجا يحتذى به، كما أشار إلى ذلك مرارا جيرى أدامز المسئول فى هذا الجناح السياسى، وعلى الجانب الآخر كانت منظمة الجيش الجمهورى الأيرلندى بدورها نموذجا يحتذى بالنسبة لمنظمات أخرى فى أركان بعيدة من العالم، وفى ذلك رأينا زعيم الجناح السياسى لمنظمة إيتاهيرى يتحدث بدوره عن التفاوض على أسس مطابقة تماما للنموذج الأيرلندى.. قد يكون السبب وراء ذلك هو أنهم يتعلمون من بعضهم البعض، ولكن هذا لايغفل احتمال وجود تنسيق من «نوع ما» بين هذه المنظمات، رغم اختلاف هويتها، وقضاياها، ودوافعها، ولكن الشئ الوحيد المؤكد الذى يربط بينهم جميعا هو اللجوء إلى العنف كوسيلة للحل.

وفى ذلك نرى النموذج المقابل من الغباء، لأن هذه المنظمات مهما أوتيت من قوة، ومهما لجأت إلى العنف لن تستطيع أبدا أن تفرض رأيها على الأغلبية الساحقة هنا وهناك، ولن تستطيع أن تؤثر على تطور الأحداث بالشكل الذى تراه وتتمناه فهذا ضد طبيعة الأمور وضد طبيعة الأحداث، والذى سيحدث هو أن الغالبية فى كل مكان ستتعاون للتخلص من هذه المناوءات التى تعرقل تحقيق الهدف الذى ارتضاه الجميع، وفى هذا الإطار رأينا مسئول الأمن فى السلطة الفلسطينية يحاور الرأى العام الإسرائيلى من خلال الكاتب الصحفى ايهو يارى، وكان حوارا جريئا ومتزنا وبناء، أعلن خلاله المسئول الفلسطينى أن السلطة الفلسطينية، هى المسئولة عن تحقيق الأمن وأنها مصممة على هذا الهدف، وفى ذلك فإنها ستعمل على القضاء على كل أشكال الإرهاب داخل الأراضى الفلسطينية، وأن السلطة الفلسطينية مصممة على تنفيذ جميع تعهداتها التى التزمت بها فى عملية السلام، وأن السلام أصبح قناعة لدى أكثر من

تسعين فى المائة من الشعب الفلسطينى، وأنه مطلب قومى ضرورى لكل من الفلسطينيين والإسرائيليين.

ولم ينس المسئول فى حواره ان يرفض أى وصاية من جانب السلطات الإسرائيلية مشيرا إلى أن مثل هذه الوصاية من شأنها أن تثير المشاعر الفلسطينية، كما لم ينس التنديد علانية بعملية اغتيال أبو عياش، وعندما تعرض المحاور إلى قضية القدس والمرحلة القادمة من المفاوضات، التزم المسئول الفلسطينى بإتزانه، وثباته وحواره العقلانى مؤكدا أن الفلسطينيين والجانب العربى لن يرضوا أبدا بالسيادة الإسرائيلية على القدس الشرقية، مشيرا أنه لامانع لديهم من أن تكون القدس مدينة مفتوحة للجميع يسمح فيها بحرية العبادة، وحرية التنقل للجميع.

وأعتقد أن الرأى العام الإسرائيلى كله تابع هذا الحوار باهتمام شديد، وأن السلطة الفلسطينية الجديدة كسبت الكثير من أسلوب مسئولها الأمنى فى الرد على تساؤلات الرأى العام الإسرائيلى، وقد وصل الحوار إلى ذروة العقلانية والروح الجديدة التى تحكم العلاقات بين الفلسطينيين والإسرائيليين، عندما وجه المحاور سؤالا إلى المسئول الفلسطينى عن الأنتخابات الإسرائيلية الجديدة وعن الجانب الذى يرغب الفلسطينيون فى فوزه فى هذه الأنتخابات؟ كان رد مسئول السلطة الفلسطينية حصيفا ومعبرا عن الضوابط المدروسة جيدا فى إطار الروح الجديدة للعلاقات بين البلدين، عندما قال مؤكدا: إننا لانتدخل أبدا فيما يجرى داخل إسرائيل وفيما يختاره الشعب الإسرائيلى، وعندما عاد المحاور ليضغط على هذه النقطة مرة أخرى قائلا: ولكن حزب العمل هو الذى صنع السلام مع الفلسطينيين؟ رد عليه المسئول الفلسطينى بلباقة: لقد كان رابين رجلا عظيما.. كذلك رئيس الوزراء الحالى شيمون بيريز.. ولكن لاتنس أن حزب الليكود هو الذى صنع السلام مع الشقيقة الكبرى مصر.

بهذه الروح، وبمثل هذه الحوارات يمكن أن نقضى على كل العقبات والمناوءات غير المسئولة التى تعترض عملية السلام، أما أن يثور البعض هنا وهناك كلما وقع

حادث أو آخر، ويصلب الغفل بالبعض إلى حد المطالبة بوقف المسيرة بأكملها، فهذا هو الغباء بعينه، وهذا هو بالضبط ماتريده الاقليات العنيفة الرافضة.. هنا وهناك....
وعلينا جميعا أن نزداد نضجا وفهما للواقع الذى نحياه □

... وهذا أيضا إرهاب!

كل النواقص التاريخية والاجتماعية والنفسية، تجسدت الآن فى شكل السلام الذى قام فى منطقة الشرق الأوسط، والذى أطلقت عليه صفات ونعات لا حصر لها، فتارة قالوا أنه «سلام بارد»، وتارة أخرى قالوا أنه «سلام الجبناء» ثم بقدرة قادر قال هؤلاء أنفسهم أنه «سلام الشجعان»، وبينما قالت الأغلبية أنه «سلام الأقوياء» الذى جاء بعد أول انتصار عسكرى فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى - خرج البعض ليقول أنه «الاستسلام بعينه».. صفات عديدة ذيلت كلمة السلام فى منطقتنا، تماشيا مع التطورات السياسية البندولية فى المنطقة - وهى تطورات غير متوقعة وغير محسوبة وغير منطقية بالمرة - وأيضا تماشيا مع «المزاج الشخصى» و«المزاج العام» - وكلاهما متقلب لم يثبت يوما على وتيرة عقل أو علم أو حكمة الأيام، وهكذا كان على الرأى العالم أن يستمر فى الحيرة والتخبط، كما لو كان هذا هو «القدر الإقليمى المكتوب».. منذ فجر حضارة إنسانية هائلة تبددت وأندثرت بسبب الخلافات المزمنة التى ابتلينا بها.

وثم جاءت الأحداث بتعبير جديد يفرض نفسه على نوع هذا السلام الشرق أوسطى العجيب، فقد بات واضحا بعد حوادث الأغتيال فى الحرم الإبراهيمى، ولشخص رئيس الوزراء الإسرائيلى، السابق إسحق رابين، والذى وقف قاتله إيجال عامير أثناء محاكمته يهرج قائلا أنه قتله: «من أجل توراة إسرائيل!».. وبعد حوادث انفجارات «القنابل البشرية» فى القدس وتل أبيب وعسقلان، ومن جانب آخر بعد الكشف المفاجئ

عن جانب آخر بعد الكشف المفاجئ عن أسرار الأسلحة النووية الإسرائيلية، ثم بعد التسرب الإشعاعى من مفاعل ديمونة.. كل هذه الأحداث تدخل فى نطاق الإرهاب، ومن ثم يمكن أن نصف السلام بين العرب وإسرائيل وصفا جديدا يقول أنه «سلام إرهابى» بالدرجة الأولى وذلك رغم التباين الشديد بين «السلام» و«الإرهاب»، ولكنه - مرة أخرى - المناخ العام فى منطقة من العالم تتجمع فيها كل المفارقات، وينبت فى أرضها «السم» و«الترياق» جنبا إلى جنب!

لايمكن أبدا أن تجتمع صفة الإرهاب مع السلام، ولكن هذا حدث عندنا ويحدث حاليا، فمنذ توقيع إتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل، كان ولابد أنْ تكون هناك توجهات جديدة للبلدين، توجهات تقوم أساسا على مبادئ السلام، وتختلف تماما عن توجهات الحرب التى كانت هى السائدة طوال ثلاثين عاما شهدت خمس حروب بين مصر وإسرائيل، ولكن بعد اتفاق السلام بين البلدين كانت أن ارتادت مصر توجهات السلام من حيث البناء والتعمير والتصنيع والتنمية، حتى أن عيزرا فايتسمان الرئيس الإسرائيلى الحالى لمس ذلك بنفسه أثناء زياراته المتكررة لمصر عندما كان وزيرا للدفاع، وقال أن مصر تستغل عملية السلام بمهارة، وأنه فى كل مرة يأتى إليها للزيارة يجد جديدا وأن وجه الحياة بأكملها يتغير فى مصر من أجل التنمية، ومن أجل صالح المواطن المصرى الذى عانى طويلا من خمس حروب فى غضون نحو ربع قرن فقط

والذى لاحظه فايتسمان وأبدى إعجابه به، لم تكن إسرائيل تقوم بمثله فى نفس هذا الوقت، وفى هذه المرحلة أبدت مصر تفهما وسعة أفق مفادهما يقوم على ذريعة إسرائيل بأنها مازالت فى حالة حرب مع باقى الدول العربية، وخاصة بعد مؤتمر بغداد الذى رفض الحل السلمى وأبدى تأييده المطلق للحل العسكرى الذى لم يحدث إلى يومنا هذا! ومع ذلك، وبعد انضمام الدول العربية واحدة تلو الأخرى إلى المسيرة السلمية واعترافهم بسلامة ورجاحة الأتجاه المصرى، بعد هذا، فإن استمرار إسرائيل فى «توجهات الحرب» يصبح أمرا غير مفهوم بالمرة.

وقد وصل غموض هذا الموقف إلى ذروته عندما تكشفت فجأة الأسرار النووية لإسرائيل، ورغم أن هذا الأتجاه يدخل فى نطاق استراتيجية الدولة، فإنه مع تحقق السلام بين العرب وإسرائيل، أنتقل هذا الأتجاه الاستراتيجى إلى إطار «الإرهاب»، إذ أنه يرمى فى النهاية إلى تخويف (أو إرهاب) الجانب العربى من التفكير فى شن أى عمليات عسكرية ضد إسرائيل لأنها تستطيع وحدها، وفى لحظة واحدة، أن تهيل المعبد بأكمله على رؤوس الجميع، وهذا لايتماشى أبدا مع التوجهات السلمية التى كان ولابد أن يلتزم بها كل الأطراف، ذلك إذا أردنا أن نقول أن نوايا الجميع كانت حسنة.

وإذا كان الجانب الإسرائيلى قد بدأ - وهذا ماحدث بالفعل - تطوير الأسلحة النووية منذ فترة طويلة تعود إلى حقبة الخمسينات عندما كان العرب لايكفون عن تهديد إسرائيل بالفناء، وإلقائها فى البحر، ليس فقط إسرائيل بل وأيضا من يقفون وراء إسرائيل، إذا كان الأمر كذلك فقد كان هذا يتم فى سرية تامة ولم يسمع مخلوق واحد عنها طوال جولات الحرب وصولات المعارك الكلامية، وكان يمكن وبسهولة تامة أن يستمز الأشمر على ما كان عليه ولكن أن تأتى إسرائيل فى ظل عملية السلام وتعلن فجأة عن امتلاكها للسلاح النووى بأسلوب غير مباشر عندما تسربت هذه الأنباء على لسان مواطنين إسرائيليين، علما بأنه ليس هناك مايحدث صدفة فوق أرض إسرائيل - عندما يحدث ذلك فإن الهدف لابد أن يكون هو الرغبة فى إرهاب وردع وتخويف الجانب العربى من حصول إسرائيل على السلاح المطلق، وبمعنى آخر فإنهم يؤكدون عدم ثقتهم فى الألتزامات العربية بالسلام، ويريدون للاتفاق أن يكون قهريا، وليس أبدا - كما كان فى الحقيقة - اتجاها حضاريا وحلا عصريا يتماشى والأتجاه العالمى السائد.

وهنا كان لابد أن نسمع صوت مصر وهى الدولة الرائدة فى عملية السلام، وجاء هذا الصوت ممثلا فى مبادرة مبارك التى طالبت بأن تكون منطقة الشرق الأوسط منطقة خالية من كل أسلحة الدمار الشامل، ولابد هنا أن تلاحظ كلمة «كل» هذه لأن أسلحة الدمار الشامل لاتقتصر على الأسلحة النووية وحدها، ولكنها تشمل أيضا الأسلحة الكيماوية والأسلحة البيولوجية، وكل هذا يمكن أن يؤدى إلى نفس النتيجة، وهى نتيجة معروفة تؤدى إلى دمار الجميع والعودة من جديد إلى «المربع رقم واحد» كما يقول المجتمع الدولى.

كـذلك فإنه حـتى فى حـالة عدم اسـتخـدام هذه الأسلحـة النووية أو أسلحـة الدمـار الشامل بأنواعـها، فإن وسائل إنتاج هذه الأسلحة ووسائل تخزينها هى بدورها على نفس القدر من الخطورة، ومما يزيد من ثقل مبادرة مبارك فى هذا الصدد، وقع كما رأينا حادث المفاعل النووى السوفيتى «تشير نوبيل» رغم احتياطات الأمن التى كان يشتهر بها الأتحاد السوفيتى السابق، ورغم كون السوفيت هم القطب الثانى فى العالم، ومع ذلك وقع الحـادث المشئـوم وحدث التـسرب الذى أودى بكل مظاهر الحيـاة على امتداد آلاف الكيلومترات. ومازالت أثارة تمتد حتى يومنا هذا، وسوف تمتد سنوات طويلة فى المستـقبل، ويكفى أن ننظر إلى آلاف الأطـفال المشـوهين الذين تمتلئ بهم مستشفيات الأتحاد السوفيتى السابق بعد أن لحقت بهم تشوهات خلقية بشعة من جراء تسرب اشعاعى وقع قبل أن يخرجوهم إلى الحياة فى هذا المكان التعس من العالم.

إن المجـتـمـع الأوروبى يطالب حـاليـا بإغـلاق المفـاعـلات النووية التى تعـمل بالتكنولوجيا السوفيتية، بعد أن ثبت أنها تكنولوجيا متخلفة، تعرض حياة البشر لخطر داهم، كذلك لاينبغى أن ننسى أيضا حـادث تسرب مفاعل «ثرى مايلز ايلاند» الذى أدى إلى الذعـر فى الولايات المتحـدة، والآن جـاء الدور على التكنولوجـيـا الفرنسيـة ممثلة فى مفاعل ديمونة.. إنها تكنولوجيا خطرة شرقا وغربا وعلى الإنسانية أن تجد حلا لهذا الخطر الداهم الذى يقيم بيننا.

من هنا كانت مبادرة مبارك تضع فى اعتبارها هذا الأحتمال المزعج ومايمكن أن أكتوبر ١٩٧٣!!.. نقول ذلك حتى لايقفز أقطاب الإرهاب الفكرى والإرهاب السياسى عندنا، ويتسللوا لممارسة هوايتهم المفضلة فى مهاجمة عملية السلام، وشخص الزعيم القائد أنور السادات الذى تسلمنا فى عـهده أول صفقة من المقاتلات القاذفة الهجومية من طراز «فانتوم فـ ـ ٤».

وحتى لانخرج عن موضوعنا الأساسى، نريد أن نقول إن هذا الخيار الاستراتيجى والنووى الإسـرائيلى، يدخل فى مـثل هذه الظروف فى إطار السـيـاسـات الإرهابيـة، فالإرهاب لايقتصر على عمليات الاغتيال والتفجيرات البدائية هنا وهناك، إلا لو أردنا أن نعتبر العجز والإحباط إرهابا، بينما امتلاك أو التلويح «بالسلاح المطلق» وتفجيرات الدمار، أو فى أضعف الحالات التسرب الشعاعى المهلك للجميع، هو اتجاه إيجابى

يخدم دعائم السلام! وكما نقول إن عمليات الإغتيال وترويع المدنيين لن يوقف عجلة السلام، نقول أيضا أن امتلاك السلاح النووى ومايتبعه من آثار جانبية، مثل حادث التسرب الإشعاعى لمفاعل ديمونة، لن يخدم أبدا قضية ومبادئ واتجاه السلام، ومن هذا المنظور أن تتناول لجان مؤتمر شرم الشيخ لطناع السلام أيضا قضية إخلاء المنطقة من جميع أسلحة الدمار الشامل.. فهذا أيضا نوع من الإرهاب!!

يؤدى إليه من أخطار على جميع الدول العربية المحيطة بإسرائيل، التى تكاد المسافات بينها تتلاشى تماما سواء مع مصر أو الأردن أو الضفة أو سوريا أو لبنان أو حتى السعودية، وقد كان أن تحقق هذا الأحتمال المزعج بعد إعلان إسرائيل عن حدوث تسرب اشعاعى من مفاعل ديمونة النووى الذى كتب علينا أن نعانى منه جميعا بسبب سياسة وتوجهات عسكرية حمقاء فى ظل عملية السلام، وقد يجوز بعد هذا الحادث أن تعيد إسرائيل حساباتها فى هذا الصدد، وأن يتحرك المجتمع الدولى ليفعل شيئا من أجل درء الخطر على الجميع بما فى ذلك إسرائيل.

وحتى لايتصور البعض عندنا أن مصر بتوجهاتها نحو العمران والبناء والتنمية، أهملت أو تناست قدراتها العسكرية والقتالية، فإننى أقول إن هذا لم يحدث بالمرة، ولكن الذى حدث هو أننا لم نسخر كل مواردنا من أجل الحرب ومن أجل المعركة القادمة كما كنا نفعل من قبل، وفى الوقت ذاته فإنه بسبب سياسة الاعتدال التى اتبعتها مصر فى عهد مبارك حصلت قواتنا لأول مرة فى العصر الحديث على زسلحة هجومية من الطراز الأول، وهناك مراقبون وخبراء عديدون يؤكدون أن قوة مصر العسكرية حاليا هى أضعاف ماكانت عليه فى أى وقت خلال النصف الثانى من القرن العشرين، بما فى ذلك ماكنا عليه قبل حرب ١٩٧٣ التى انتصرنا فيها على إسرائيل. □

شرم الشيخ.. ومابعدها!

ليس من طبيعة الأمور أن ينجز إنسان واحد - مهما كانت قدراته وإمكاناته - التحولات التاريخية الكبرى فى تاريخ الأمم والشعوب، فهى مهام صعبة يتناوب الكثيرون فى تحقيق فصولها، فنجد مثلا أن كارل ماركس هو الذى ابتدع النظرية الشيوعية ولكن لينين كان هو الذى جعلها حقيقة واقعة، وبالنسبة لعملية السلام فى الشرق الأوسط، كان الزعيم الراحل أنور السادات هو صاحب الرؤية ورجل الخطوة الأولى، ثم جاء الرئيس مبارك ليجسد الحلم ويجعله حقيقة واقعة بين مصر وإسرائيل، ثم ساعد بعد ذلك ليجعله حقيقة ملموسة على مستوى المنطقة بأكملها، ثم خلال مؤتمر شرم الشيخ جعله حقيقة قوية دامغة يساندها ويوثقها كل أقطاب العالم وكل أعضاء المجتمع الدولى.

وكما قال جون ميجور رئيس وزراء بريطانيا خلال المؤتمر: عقارب الساعة لن تعود أبدا إلى الوراء.

بذلك دخلت شرم الشيخ من أوسع أبواب التاريخ لتستمر ذكراها مع القرن القادم والألفية القادمة، فبدون هذا التعاون الدولى للإصرار على السلام ودحر الإرهاب كان يمكن أن تتعثرالمسيرة الإنسانية بأكملها، ولانقول المسيرة السلمية وحدها، سواء فى الشرق الأوسط أو فى الشرق الأقصى، حيث تحتشد الآن الصواريخ وحاملات الطائرات حول تايوان أو فى أى مكان آخر فى العالم.

ولانتذكر هنا مؤتمرا أو محفلا دوليا حظيت مصر فيه بقلب الصدارة، وانعكست خلاله المكانة الحقيقية لمصر والمصريين، كما حدث خلال مؤتمر شرم الشيخ،

فالاختيار كان مصريا، والموقع مصريا، والترتيبات والإعداد، والإدارة.. إلخ، كلها كانت مصرية، بينما الوجود والمشاركة كانت دولية ضمت أقطاب العالم، ومختلف فروعه ومحاوره.. مكانة وصلت إليها عن طريق السلام ومناصرة السلام، لكنها أقوى بكثير وأكثر مناعة من أى مكانة حاولنا الوصول إليها عن طريق المعارك والحروب.

إن أهمية مؤتمر شرم الشيخ إنطلقت أساسا من حقيقة أنها حسمت إلى الأبد اختيار السلام، ولم تعد المسألة اتفاقيات كامب ديفيد، أو اتفاق أوسلو، أو أى اتفاق بين إسرائيل وأى جانب عربى، فكل هذه تفاصيل استمتع المتسفسطون طويلا بالتسكع عند كل ركن وكل منحنى وكل حادث عابر طرأ عليها، ولكن المسألة بعد مؤتمر شرم الشيخ أصبحت اختيار واحدا وطريقا واحدا هو طريق السلام.

ولأن الإرهاب على كلا الجانبين اختار أن يعترض المسيرة السلمية ويعرقل تقدمها - ولاعجب فى هذا فالإرهاب لامكان له فى ظل الأمن والأستقرار - فقد جاء مؤتمر شرم الشيخ ليؤكد تكاتف جميع دول العالم لقبول التحدى وتسخير إمكانات دول العالم لمحاربة هذا العدو الجديد. من هنا كان - ومازال - لايمكن الفصل بين استمرار عملية السلام ومكافحة الإرهاب، فقد أصبح من الواضح أنه لايمكن الحصول على هذا الهدف دون القضاء على تلك الظاهرة، وإذا كان رؤساء الدول والوفود التى اشتركت فى مؤتمر شرم الشيخ، قد اختارت وأكدت مناصرة السلام، فإنه لم يكن اختيارا فوقيا، لكنه انعكاس لإرادة الشعوب التى يمثلها هؤلاء الرؤساء وهذه الوفود، وفى ذلك لاينبغى أبدا لأى أنسان عاقل أو أية جهة أو تنظيم أن تقلل بأى شكل من الأشكال من هذا المجتمع الدولى التى تتمثل الآن فى محورين متوازيين: مناصرة السلام ومكافحة الإرهاب.

ولقد كان اختيار مدينة شرم الشيخ بالذات من بين جميع المدن المصرية، اختيارا ذكيا وموفقا، لأن هذا المنتجع العالمى على شاطئ البحر الأحمر هو بكل المقاييس ثمرة من ثمرات السلاح بين مصر وإسرائيل، فقبل عملية السلام لم يكن أحد يسمع عن هذا المكان اللهم إلا بعض وحدات المدفعية الساحلية، ووحدات البحرية، أما الآن فقد أصبح المكان على قمة الخريطة السياحية لشعوب العالم، وهناك من دول أوروبا من ينظم رحلات يومية من صقيع أوروبا إلى رائعة شرم الشيخ مباشرة دون المرور

بالقاهرة أو أى مكان آخر.. وأصبح اسم المكان على لسان الجميع كمنتجع سياحى عالمى، ولو كنت من إدارة الفندق الذى نزل فيه الرؤساء والوفود خلال مؤتمرهم لأبقيت على قاعة الاجتماعات كما هى لأنها بلا شك ستصبح مزارا سياحيا، وقاعة تاريخية للأجيال القادمة، تماما مثلما تمتلئ فنادق القاهرة القديمة بذكريات الحرب العالمية الثانية وقادتها الذين كانوا يجتمعون عندنا، وبصفة خاصة فى «مينا هاوس» عند سفح الأهرامات ومازالت لهذه الأماكن - وسوف يزداد فى المستقبل - قيمتها ورونقها وعبقها التاريخى.

وإذا كانت قمة شرم الشيخ قد أكدت مواصلة تحقيق السلام ومكافحة الإرهاب، فإن هناك إرهاباً موازياً لا يلجأ للكلاشينكوف وأحزمة المتفجرات، ومع ذلك فهو أكثر خطورة من كل العمليات التى قام بها الإرهابيون لعرقلة مسيرة السلام، ونقصد بذلك الإرهاب الفكرى والإرهاب السياسى عندنا وعندهم، فهناك على الطرفين العربى والإسرائيلى من لا يزال يعيش فى عنتريات الماضى، متصوراً بسذاجة شديدة أن الصراع الذى دام أكثر من خمسين عاماً، لا يمكن إلا أن يحسم نهائياً فى ميدان المعركة وبطلقات المدافع.. نفس الفكر الغبى الذى أدى إلى مهزلة «أم المعارك» وجعل من «النشامى» أضحوكة أمام الجميع.

ولقد عانى المجتمع الإسرائيلى من هذا النمط فى التفكير الذى جاء فى أعقاب الانتصارات السهلة فى يونيو ١٩٦٧، فتصور البعض هناك أن أى حرب يمكن أن تنتهى إلى نفس النتيجة وتحقق ما حققته من مكاسب وانتصارات، وقد طمأنهم إلى ذلك التفوق النوعى الهائل فى الأسلحة التى يمتلكونها والنتائج المتشابهة التى توصلت إليها كل المعاهد الاستراتيجية فى العالم، والتى كانت تؤكد انتصار إسرائيل الساحق فى أى حرب تنشب فى الشرق الأوسط.. بسبب هذه القناعات وهذا النمط من التفكير دفع المجتمع الإسرائيلى الثمن باهظاً عندما نشبت الحرب فى أكتوبر٧٣.

والتاريخ يقدم لنا دروساً عديدة وقاطعة، ولكن يبدو أن أحداً لا يتعلم، ولا يرغب فى أن يتعلم، ويغير من الأفكار الثابتة والجامدة التى ملأت رأسه، فطوال خمسمائة عام فيما قبل القرن الحالى كانت فرنسا وإنجلترا تعتقدان أن العداوة بينهما هى شئ طبيعى مثلها فى ذلك مثل قانون الجاذبية، أو قانون الطفو، وبعد خمسمائة عام من

هذه العداوات الدفينة اتحدت فرنسا وإنجلترا فى بداية القرن الحالى لتقفا أمام عدو مشترك، حاول اقتحام نفوذهما العالمى، وكان هذا العدو كما نعرف هو ألمانيا، وعندما لم تستطيعا وحدهما الوقوف أمام المانيا خلال الحرب الثانية، كان أن بحثتا على الحلفاء من كل مكان بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى (العدو الأكبر)، ولكن ـ مرة أخرى ـ لأن أحداً لا يتعلم شيئاً من دروس التاريخ وعبره، فمنذ عام ١٩٤٥ بعد انتهاء الحرب الثانية ظهرت مرة أخرى هذه العداوة بشكل أعمق وأكثر بغضاً بين الحليفين الأساسيين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، ثم دارت العجلة مرة أخرى لتتبدد هذه العداوة وتقيم كل دول الاتحاد السوفيتى علاقات قوية مع واشنطن التى وجهت مساعداتها بشكل خاص إلى موسكو وباقى دول الكتلة الشرقية. فى ذلك يقول لنا التاريخ: إن العداوات لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، وإن الحروب لم تكن أبداً حلاً نهائياً وحاسماً لجميع الصراعات التى يشهدها العالم.. ومع ذلك لا يريد البعض عندنا وعندهم أن يصدق أو يتعلم.

إن الإرهاب الفكرى يتمثل على الجانب العربى فى أولئك الذين يهاجمون بضراوة وانتظام كل من يساند عملية السلام، ومن بين هؤلاء نجد جنرالات سابقين أخفقوا فى الحرب بطريقة أو أخرى ويتطلعون إلى فرصة أخرى يعالجون بها إخفاقاتهم السابقة غير مبالين بجر المجتمع والدولة بأكملها إلى حرب لا يعرف غير الله وحده مداها، ونجد أيضاً مسئولين سابقين فى عصر ما قبل النكسة لا يعترفون أبداً بأن سياساتهم الخاطئة أدت بشكل أو آخر إلى أفدح هزيمة منى بها العالم العربى على مر تاريخه الطويل، ونجد على الجانب الآخر دراويش حقبة الستينات والشعارات الجوفاء التى كانت تفطر عداوة وبغضاً وتطالب بالإبادة وإلقاء إسرائيل فى البحر، ونجد كذلك أولئك الذين يشعرون بعداء بغيض لشخصية الزعيم الراحل أنور السادات ولا يقبلون أى إنجاز جاء من ناحيته بما فى ذلك الانفتاح الاقتصادى وحتى حرب أكتوبر نفسها التى حاولوا تصويرها على أنها مسرحية مدبرة، وأن السادات لم يستغل نجاح قواتنا فى العبور ولم يصدر تعليماته باستغلال النجاح والتقدم إلى ما وراء المضايق وما وراء الحدود!! كل هؤلاء تحولوا فى عصر الحريات إلى كتاب ومنتجين ومؤلفين يبثون سمومهم يومياً لمحاربة السلام لا لشئ إلا لأنهم يكرهون السادات ويشعرون بحنين غريب إلى ما قبل حقبته!

أما الإرهاب السياسى فقد جاء مع ظهور الديمقراطية وتعدد الأحزاب وبدأ البعض يهاجمون السلام كنوع من المعارضة ويختلقون قصصاً سوداء لتخريب العلاقات وعرقلة العملية السلمية بأى شكل من الأشكال دون أى إدراك لأبعاد البديل الآخر وهو الحرب، ودون أى إدراك لطبيعة الحرب وما يمكن أن تجلبه من وبال على أى مجتمع خاصة المجتمعات النامية.

ولأن الديمقراطية كانت موجودة دائماً فى إسرائيل فإن الإرهاب السياسى هناك يتخذ طابعاً أكثر تعقيداً وخطورة، وكانت عملية السلام دائماً هى الورقة المفضلة فى تنافس الأحزاب للوصول إلى السلطة، ومن هنا نرى تلك المزايدات على قضايا الأمن والاستقرار والاستيطان الذى أصبح الآن يشكل تهديداً حقيقياً لاستمرار العملية السلمية بعد أن صدق المستوطنون اليهود الوعود الكاذبة وغير المنطقية التى يروجها الإرهابيون السياسيون هناك.

لقد اقترحت، فى هذا السياق وقتها وفى أحد مقالاتى أنه سيكون من المفيد أن تقوم لجنة متابعة مقررات قمة صانعى السلام ببحث هذا النوع من الإرهاب الفكرى والإرهاب السياسى، وإذا كان لها أن تختار نموذجاً مثالياً فى هذا الإطار فعليها أن تفحص وتبحث فى تصريحات «إلياهو بن اليسار» الذى لم يترك فرصة واحدة، إلا واغتنمها لضرب العملية السلمية، والتحريض على العداوة بين الشعوب العربية وإسرائيل وعودة العقارب إلى الوراء، مع أن الحزب الذى ينتمى إليه (الليكود) كان هو صانع السلام الأكبر بين مصر وإسرائيل، ولكنها الانتخابات الوشيكة والديمقراطية والرغبة الملحة فى الوصول إلى مقاعد السلطة بأى شكل وبأى ثمن، كما لو كان مقعد السلطة أهم من المصالح القومية العليا للدولة!

والذين يتساءلون عن أسباب تعثر عمليات التطبيع، فإن السبب الوحيد وراء ذلك هو المناخ المفتعل الذى يخلقه هذا النوع من الإرهاب الفكرى والسياسى، فى ظل هذا المناخ لا يمكن لرجل الشارع أن يتجرأ بأن يقول أو يفعل ما يريد، ويكتفى بأنه قال كلمته عندما خرجت الأغلبية فى مصر وإسرائيل وفى الأردن وفى الضفة الغربية وغزة، فى كل هذه البلاد تعلن تأييدها ورغبتها فى تحقيق السلام لأجيال مختلفة لم تر فى حياتها غير الحرب والخراب والدمار، إن المحطة التى وصل إليها السلام حالياً

بما فى ذلك من ارتباطات محلية وإقليمية ودولية تجعله فى أعلى قائمة قضايا الأمن القومى لجميع دول المنطقة.. ومن هذا المنطلق فلابد من الكف عن العبث.. سواء كان عبثاً إرهابياً مسلحاً، أو عبثاً فكرياً أو سياسياً.

إنهم يلحقون بمن سبقوا الزمن !

الرجل الذى إنتصر

حيا وميتا!

من حق اى إنسان سوى وطبيعى فى مصر وفى العالم العربى أن يشعر فى مناسبات عديدة - بحضور الزعيم أنور السادات بل وبوجود هذا الراحل العظيم حياً بيننا عندما كنا نتحدث عن «السلام»، و «المؤتمر الدولى» وقيام الدولة الفلسطينية» و«حق الجميع فى حدود أمته» «ولا صلح منفردا أو سلاما جزئيا».... فكلها عبارات كان الرجل أول من استخدمها وظل يناضل من أجلها حتى لقى ربه... بعيدا عن الدنيا والناس والأحقاد....

ولأن أفكاره كانت جد جديدة، ولأن مناورته التاريخية من الحرب إلى السلام كانت جد حادة: من لهيب ودمار الصراع المسلح إلى ربوع السلام وقدسية الإنسان... «الإنسان الذى خلقه الله، كما يقول غاندى قديس السلام، لكى يسعى على قدميه يبنى الحياة ويعبد الله تعالى»... نعم... كانت الأفكار جديدة تماما والمناورة حادة ومع ذلك كانت أستجابة الشعب المصرى تلقائية وحضارية وتحول الرئيس فى قلوب الناس إلى زعيم وطنى استشعر أعماق وجدان شعب من أعرق الشعوب.

ولكن كان هناك فى الوقت ذاته معارضة حادة لهذا الأتجاه نبعت أساساً من خارج مصر على المستويين الأقليمى والعالمى. وكان لأولئك وهؤلاء أتباع فى الداخل بدأوا يحاولون التشكيك والتغرير، وكم كان موقف هؤلاء مخزياً عندما تطورت الأمور فى

النهاية وبعد موت السادات بحوالى سبعة أعوام لتثبت حكمته وبعد نظرة ليس فقط فى استراتيجية الحل السلمى للصراع العربى الإسرائيلى ولكن أيضاً فى سياسة الأنفتاح التى طبقت فى الأتحاد السوفيتى بعد أن فكت وإنهار فى الصين الشعبية التى بدأت تعرف كل أنماط الحياة فى الغرب «وطائرات البوينج الأمريكية وترقص على أنغام الروك أندرول..» ناهيك عن أستراتيجية تنويع مصادر السلاح ـ طالما كان الحديث هنا عن السلام ـ والتى أبتدعها أيضاً الزعيم أنور السادات وتبنتها دول كثيرة أقليميا وعالمياً.

نقول كم كان مخزياً سلوك هؤلاء عندما تحولوا فجأة بعد التطورات الأخيرة إلى حمائم سلام من أودع أسراب هذا الحمام وأنصعه بياضاً. وأصبحوا يشيدون فجأة بانجازات وأفاق السلام ويحذرون من «أعدائه» الذين يتربصون لنا فى الظلام... وكان منظرهم مخزياً فعلاً وكان أكثرهم خزياً هذا الذى قال يوماً ـ بعد رحلة القدس ومبادرة السلام ـ أن السادات «ديته طلقة ثمنها قروش زهيدة»...!! نقول كم هو مخز ورخيص هذا التحول الذى لا يعرف مبادئ حتى لو كانت خاطئة لأنه لم يأت من أجل المصالح القومية للوطن الذى نعيش فيه، ولكنه جاء بعد تحول أستراتيجية قوى خارجية ـ على المستويين الأقليمى والعالمى ـ قوى يرتبطون بها بكل أشكال الأرتباط النفعى، فتحولوا فجأة يدافعون عن ذات الأتجاه الذى هاجموه بالأمس القريب.

وكان أكثرهم حماقة أولئك الذين يعملون بتخطيط يعتقدون وهما أنه تخطيط عبقرى وبعيد عن أعين الجميع ـ فحاولوا بدأب سلب السادات من مجد أكتوبر زاعمين سخفا أن خطة الهجوم تم أعدادها فى عهد عبدالناصر وأن السادات جاء وفتح الخزينة وأخرج خطة العبور ونفذها... هكذا وبسهولة أقرب إلى «العبط»!! ثم بعد ذلك بدأوا ـ مثلهم مثل الشخصية الكاريكاتورية الرائعة «عبده حريقة» التى أبتدعها الفنان والزميل القدير مصطفى حسين تجسيداً للمستعدين لكل المواقف ـ بدأوا ينشرون زعماً جديداً مؤداه أن رجال يونيو ١٩٦٧ هم أنفسهم رجال أكتوبر ٧٣ وعلى الفور ـ وبدون توجيهات من هنا أو هناك تصدت لهم الأقلام الوطنية الشريفة وأظهرت لهم مفاسد القيادات القديمة وجهلها مقابل أستقامة وأنضباط وحرفية قيادات أكتوبر وعلمها الذى وصل إلى أدق التفاصيل عسكرياً ومدنياً... هذه الظاهرة الجديدة فى حياتنا التى

بدأت بأول نصر عسكرى على إسرائيل واستمرت بتولى مبارك - أحد الأعمدة الأساسية لهذا النصر - زمام السلطة بإجماع شعبى ساحق وحقيقى بعد استشهاد السادات رحمه الله.

وبعد الأحداث المتنوعة والقرار العاقل المتحضر لمنظمة التحرير الفلسطينية بنيد الإرهاب وقبول السلام «والمؤتمر الدولى» وقيام الدولة الفلسطينية و«حق الجميع فى حدود أمنة». ثم وصول الأمر إلى مرحلة عوده القيادات الفلسطينية من الخارج إلى أرض تديرها السلطة الفلسطينية فى غزة وأريحا.. بل ووصل الأمر إلى حد إعلان الرغبه فى إعلان الدولة حسب ما تم الاتفاق عليه فى إتفاق أو سلو.. وهى الخطوة التى أجلتها السلطة الفلسطينية فى مايو ١٩٩٩ حتى يحين الظرف السياسى الملائم.

لم يكن هناك من حاول تجريح السادات أو التاليب فى جراح الماضى، بل أننى أكاد أجزم أن عرفات نفسه وكل من معه وكل عربى تابع على التليفزيون كلمة عرفات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة التى انعقدت فى جنيف.. كل هؤلاء شعروا حتماً بوطأة الموقف عندما وقف السادات وحده فى عام ١٩٧٧ يلقى خطابه التاريخى فى عرين إسرائيل: فى قلب الكنيست أمام كل الصقور والحمائم والأساطير التى ضخمها خيال أصيب بالخلل فى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، وظل مشوشاً ومريضاً حتى السادس من أكتوبر ١٩٧٣.

ومع ذلك خرج من عندنا من يحاول تصوير أن السلام الحالى غير السلام الذى بدأه السادات!!. ولأن الرئيس مبارك هو الرجل القوى حالياً فإنهم يقولون أن مبارك يختلف عن السادات وأسبغوا عليه مديحاً وإطراء هو فى غير حاجة إليه بالمرة لأنه كما يعرف الجميع يؤمن بالعمل وحده ويمقت اللغو الأجوف خاصة من هؤلاء الذين وصلت بهم «الحالة» إلى حد تصور أن هناك «سلاما» فى صراع واحد غير «سلام» فى نفس الصراع!! أقلام هؤلاء الذين يهينون ذكاءنا بالقول أن مبارك ليس السادات. فالكل يعرف أن كل إنسان «نسيج وحده» وأنه ليس هناك إنسان على مر التاريخ مثل إنسان آخر.. وهذه هى إحدى حكم الخالق وصورة من صور إعجاز الله سبحانه وتعالى ... بل إننا سمعنا جميعاً الرئيس مبارك فى بداية حكمه عندما أعلن بوضوح: «لست عبدالناصر، ولست السادات .. إن إسمى حسنى مبارك..» فما الجديد الذى

حملته إلينا تلك الأقلام بما خطته من مساحات أهدرت بسبب أحقاد وكراهية مريضة يحتار المرء فى تفسيرها بعد أن مات بطل العمل ومضى عليه تحت الثرى أكثر من ثمانية عشر عاماً كاملة لم تهدأ خلالها غيرة وأحقاد تلك الحفنة الغريبة من البشر.

ويقال إن الذى يحاول أن «يهين» ذكاء الآخرين» هو إنسان محدود الذكاء جداً، وقد ثبت صحة هذه النظرية فى تلك الظاهرة التى نتحدث عنها هنا لأن الجميع يعرفون أنه لو كان السادات رائداً لعملية السلام التاريخية فى المنطقة فإن الذى «صلب عود» هذا السلام وأعطاه القوة والصلابة والأستمرارية التى دفعته وأبقت عليه حتى يومنا هذا - هو ذاته الرئيس حسنى مبارك الذى كان أبرز قادة حرب أكتوبر ٧٣.. فكيف غابت عنهم تلك الحقيقة البسيطة.

وأغرب من هذا كله أن الأخوة العرب يتفهمون الآن جيدا مواقفنا وكل جوانب الأستراتيجية التى أتبعناها بل أننى أذكر أن الصحفى الكويتى اللامع أحمد الجار الله رئيس تحرير صحيفة السياسة الكويتية كتب منذ سنوات أن مشكلة السادات أنه سبق عصره سنوات طويلة. وأن الجميع قد يفهمون هذا الرجل جيدا بعد عقد أو عقدين.... وحمدا لله تعالى أن الأمر لم يستغرق كل هذه السنوات وأن التطورات التى تشهده المنطقة العربية حالياً تؤكد حدوث نضج فكرى عام من المحيط إلى الخليج، وأصبح الجميع يشعرون بضرورة التكاتف والتكتل، والجميع يشيدون بدور مصر العربى الذى لا يستطيع أن ينكره عاقل فلماذا يخرج من عندنا فى نفس هذا الوقت من يتحدث بلغة مختلفة تعمل بالدرجة الأولى على أشاعة التفتت والتشرذم السياسى وبالتالى غياب الهدف الذى نسعى إليه جميعاً.... لماذا؟ ما الذى يخاف منه هؤلاء؟ وماذا يحاولون منع تحقيقه؟

أن قصة مصر السادات مع السلام يمكن أن يستقرئها المرء من ثلاثة خطابات هامة ألقاها الزعيم الراحل أنور السادات خلال فترة حكمة وهى خطابات دخلت الآن فى جوف التاريخ وأستقرت بعيداً عن أهواء المناضلين من أجل سلطة ضاعت أو من أجل سلطة منتظرة. كان الخطاب الأول فى ٤ فبراير عام ١٩٧١ وأعلن فيه السادات أستعداده لتوقيع أتفاق سلام مع إسرائيل فيما أعتبر أول أعلان يصدر من مسئول عربى منذ بداية الصراع العربى الإسرائيلى... وقتها ضحك العالم كله وفى مقدمته

إسرائيل من هذا الرجل الريفى البسيط الذى يعرض سلاما على «إسرائيل العظيمة» وهو فى موقع ضعف وبلاده محتلة بقوات جيش الدفاع الإسرائيلى الذى خرج فى يونيو ١٩٦٧ خروج المارد من القمقم وأذهل العالم كله بأنتصاراته الساحقة على مصر وسوريا والأردن فى وقت واحد.. ضحك العالم كله من السادات عام ١٩٧١.

وأبتلع الرجل هذه السخرية وهذا التجاهل من جانب العدو والصديق والمحايد عامين كاملين وثمانية أشهر ويومين شن بعدها حرب التحرير فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وفى قمة هذا الأنتصار ووسط ذلك الفيض من الكبرياء والحماسة الوطنية والقومية التى يمكن أن تذهب بعقل أى إنسان وقف الزعيم الراحل أنور السادات يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ - وقبل بدء مغامرة الثغرة المعروفة - يمد يده بالسلام ... سلام وسط ذروة الإحساس بالزهو والمجد والقوة العسكرية وفى وقت كانت ترتفع فيه إلى عنان السماء أول البيارق لأول نصر عسكرى على إسرائيل منذ نشأة الصراع العربى الإسرائيلى.

فى هذا اليوم وقف الزعيم الراحل أنور السادات بملابسه العسكرية فى مجلس الشعب ليعلن وبالحرف الواحد:

وربما أضيف لكى يسمعوا فى إسرائيل إننا لسنا دعاة إبادة كما يزعمون ... إننا لسنا دعاة إبادة كما يزعمون ، بتلك العبارة كان السادات يهدم صرحاً عاتياً قام عليه الأعلام الإسرائيلى سنوات طويلة استطاع خلالها أن يكسب عطف العالم كله مع «إسرائيل الصغيرة» التى يحاول جيرانها من «البرابرة العرب» أن يلقوها فى البحر بلا رجعة!!

ومن هنا فقد عاد السادات بذكاء شديد فى هذا الخطاب التاريخى ليؤكد «إننا لم نحارب لكى نعتدى على أرض غيرنا وإنما حاربنا ونحارب وسوف نواصل الحرب لهدفين اثنين:

● **الأول:** إعادة أراضينا المحتلة بعد عام ١٩٦٧.

● **الثانى:** إيجاد السبيل لإستعادة وإحترام الحقوق المشروعة لشعب فلسطين.

ولأن السادات فهم جيدا وأيقن أن الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة الوحيدة القادرة على الضغط على إسرائيل فى أتجاه حل هذا الصراع سلميا فقد وجه رسالة إلى الرئيس الأمريكى نيكسون من خلال مشروعة للسلام الذى تضمن خمس نقاط رئيسية.. وفى ذلك قال وبالحرف الواحد:

● **أولاً**: إننا قاتلنا وسوف نقاتل لتحرير أراضينا التى أمسك بها الاحتلال الإسرائيلى سنة ٦٧ ولإيجاد السبيل لإستعادة وإحترام الحقوق المشروعة لشعب فلسطين....

● **ثانياً**: أننا على إستعداد لقبول وقف إطلاق النار على أساس انسحاب القوات الإسرائيلية من كل الأراضى المحتلة فورا وتحت إشراف دولى إلى خطوط ما قبل ٥ يونيه ٦٧.

● **ثالثاً**: إننا على أستعداد فور إتمام الانسحاب من كل هذه الأراضى أن نحضر مؤتمر سلام دولياً فى الأمم المتحدة وسوف أحاول جهدى أن أقنع به رفاقى من القادة العرب المسئولين مباشرة عن إدارة صراعنا مع العدو، كما أننى سوف أحاول جهدى أن الأقنع به مثلى الشعب الفلسطينى، وذلك لكى نشارك معا ومع مجتمع الدول فى وضع قواعد وضوابط لسلام فى المنطقة يقوم على احترام الحقوق المشروعة لكل شعوب المنطقة.

● **رابعاً**: إننا على استعداد هذه الساعة بل هذه الدقيقة أن نبدأ فى تطهير قناة السويس وفتحها أمام الملاحة العالمية لكى تعود إلى أداء دورها فى رخاء العالم وإزدهاره ولقد أصدرت الأمر بالفعل إلى رئيس هيئة قناة السويس بالبدء فى هذه العملية غداة اتمام تحرير الضفة الشرقية للقناة وقد بدأت بالفعل مقدمات الاستعداد لهذه المهمة.

● **خامساً**: إننا لسنا على استعداد فى هذا كله لقبول وعود مبهمة أو عبارات مطاطة تقبل كل تفسير وكل تأويل وتستنزف الوقت فيما لا جدوى فيه وتعيد قضيتنا إلى جمود لم نعد نقبل به مهما كانت الأسباب لدى غيرنا.

لقد قال السادات هذا فى وقت مبكر، ثم بدأ بعد ذلك إستثمار نصره العسكرى فى تحقيق السلام الذى هاجموه وهو حى.. وظلوا يهاجمونه بعد موته حتى جاء السلام إلى من كانوا يهاجمونه فراحوا يقولون أن السادات كان على حق.. وكان ذلك هو الانتصار الأعظم الذى حققه بعد ان فارق الحياة.

«غليون» السلام!

«غليون السلام» له قصة وشهرة كبيرة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، فعندما جاء المهاجرون البيض من كل أركان الدنيا لاستيطان الأرض التى اكتشفوها حديثا، وفوجئوا بوجود السكان الأصليين من الهنود الحمر، كان الصراع الدامى الذى استمر سنوات طويلة بين السكان الجدد والسكان القدامى.

ومثل أى صراع فإنه لم يكن يستمر إلى الأبد، فكان السلام بين حين والحين، وكانت الهدنة بين البيض وهذه القبيلة أو تلك وخلال إتفاقيات السلام كان الطرفان يجلسان ويصر الهنود على أن يدخن الجمع من غليون بدائى يمر بالتناوب على الجميع.. وخلال عملية التدخين يبدأ الجميع فى الشعور بالاسترخاء ويبدأ الضحك وتبادل النكات، وتصبح «قعقعة السلاح» تاريخا قديما... وغير منطقى بالمرة.

وكما نعلم فإنه بعد حرب أكتوبر ٧٣، بدأ العرب والإسرائيليون يدخنون بدورهم «غليون السلام» بعد أن فقدت الحروب والعدوات معناها وجدواها، لأنها أساساً فقدت قدرتها على تقديم أى حل لمشكلة مزمنة طال عليها الأمد بشكل تجاوز كل الحدود، وكانت مصر أول من طرق هذا الأتجاه، ونعلم جميعا المهاترات التى صاحبت ذلك، ونعلم أيضاً أن الجميع سلك بعد ذلك نفس الطريق. وقد جلس السوريون مع الإسرائيليين فى كامب واى بولاية ميرلاند الأمريكية، يدخنون. إن جاز لنا التعبير. «غليون السلام» مع الإسرائيليين تماما تماما فعلنا فى «كامب ديفيد» فى نهاية السبعينات!

وفى ذلك فإن السوريين لديهم حاليا ميزة كبرى افتقدتها مصر فى مباحثات السلام مع إسرائيل، فقد كان الأمر بالنسبة لنا تحولاً سريعاً وحاداً ومفاجئاً فيما هو أشبه بالصدمة منه إلى المناورة، أما السوريون فقد أمضوا سنوات طويلة قبل هذا التحول المفاجئ، مهدت لهم طريق وعملت على تهيئة «الرأى العام» والمزاج الشعبى ، لتقبل الاتجاه الذى أكدت كل الأحداث العالمية أنه الاتجاه المستقبلى الوحيد، وكشاهد بارز على ذلك هو اتفاق «كامب ديفيد» الذى أقر اتجاه الحل لمشكلة البلقان حيث كانت العداوات أعمق وأكثر شراسة وتعقيد وفى هذا الإطار فإن هناك رأيا يقول أن الشعوب تحتاج من خمسة عشر إلى عشرين عاماً لتنبذ عداواتها القديمة وتبدأ صفحة جديدة، وفى التحول ذلك فإن الرأى العام السورى توافرت له هذه الرفاهية، قبل أن يبدأ التحول الاستراتيجى الكبير.

لقد أعلن ويليام بيرى وزير الدفاع الأمريكى الأسبق خلال زيارة لإسرائيل، أهم، ما قيل عن مباحثات السلام بين سوريا واستهل ذلك عندما قال: إنه إذا سارت المباحثات بين دمشق وتل أبيب كما كانت، وكما نامل أن تكون فإنه إذا رأى البلدان ضرورة وجود قوات أمريكية تنتشر فى مرتفعات الجولان لحفظ السلام، فإن بلاده على استعداد لنشر هذه القوات، كذلك فإنه رغم التحفظات الشديدة من جميع الجوانب على حقيقة ما يجرى فى مباحثات جزيرة «واى» فقد قالت الولايات المتحدة أن الهدف النهائى لواشنطن فى عام ١٩٩٦ هو مساعدة سوريا وإسرائيل على التوصل إلى اتفاق سلام شامل، ينهى جميع الخلافات القائمة بين البلدان والتى استمرت خمسين عاماً ووصفت، مصادر أمريكية هذه المباحثات بأنها مثمرة بينما أعلن رئيس الوفد الإسرائيلى فى المباحثات إنها تتناول. ولأول مرة - عملية السلام، وأن الجانبين يقومان بتوضيح معالم الطريق الذى يسير عليه «قطار السلام».

كذلك لم ينس وزير الدفاع الأمريكى فى تصريحه وقتها أن يؤكد الفجوة فى نوعية الأسلحة التى تملكها إسرائيل عندما أعلن أن بلاده ستقدم مساعدات مالية لإسرائيل لتطوير الصاروخ الإسرائيلى المضاد للصواريخ من طراز أرو ستشمل حالياً ٢٠٠ مليون دولار، و ٥٠٠ مليون دولار أخرى على مدى السنوات الخمس التالية لتغطية من تكاليف برنامج التطوير المشترك لهذا الصاروخ والذى لا تساعدنا معلوماتنا

لمعرفة الصواريخ المعادية التى ستنطلق من المنطقة حتى يعترضها هذا النظام الدفاعي المتقدم، والذى لا مثيل له إلا فى الولايات المتحدة نفسها وفى الإتحاد السوفيتي السابق!

العربى المتشكك فى عملية السلام، عندما أثبت بالدليل القاطع أن هناك فى قلب إسرائيل من يخشون السلام أيضاً ويرون فيه إضراراً مباشراً بمصالح إسرائيل، وبمعنى آخر فإنه يمكن أن يكون لصالح العرب.

أما بالنسبة لتصريحات وزير الدفاع الأمريكي الأسبق ولبليام بيرى، فقد يجوز لنا الحكم بانها جاءت تعبر عن أحد الأخطاء الأساسية والكلاسيكية فى السياسة الأمريكية والغربية بشكل عام والتى تقوم على فكرة أن دعم القوة العسكرية لاسرائيل سيدفع العرب الى قبول السلام.. أى سلام، وفى ذلك خطأ استراتيجى كبير فى العلاقات بين الغرب والعرب، ودليل أخر على الفجوة الهائلة بين أسلوب التفكير هنا وأسلوب التفكير هناك، فالقوة العسكرية لم تكن أبدا وسيلة لحل مشكلة الصراع العربى. الاسرائيلى، ودليل ذلك أن اسرائيل كانت على الدوام متفوقة عسكريا على العرب، ومع ذلك تكررت الحروب والمعارك فى ظل هذا التفوق الواضح لنوعية الأسلحة التى تملكها اسرائيل، وكانت أخر هذه الحروب هى أكتوبر ٧٣ التى دخلناها ونحن على يقين من أن اسرائيل تمتلك أحدث أسلحة فى العالم بريا وبحريا وجويا، وان الفارق بين الأسلحة والقوات على الجانبين كانت فى صالح اسرائيل، ومع ذلك دخلنا الحرب وصممنا على القتال رغم هذا التفوق النوعى الاسرائيلى.. فى ذلك لم تستطع العقلية الغربية ان تهضم هذا النهج من التفكير، لأنهم هناك يعتبرونه تفكيرا غير عقلانى ويتنافى مع المنطق تماما، وحتى عندما لجانا الى أسلوب السلام فانهم لم يتوقعوا ذلك أيضا، ولم يفهموا أبدا كيف يلجأ الجانب العربى الى اتجاه السلام بعد أول نصر عسكرى فى تاريخ الصراع؟ ان المنطق عندهم يقول ان فرص السلام أقوى عندما يكون أحد جانبى الصراع متفوقا بشكل واضح، وفى هذه الحالة فانه على الجانب الضعيف أن يقبل أى فرص للسلام، وكذلك فان المنطق عندهم يقول ان الانتصار العسكرى يكون بمثابة دعوة لحروب أخرى وعدوان مستمر.. ولكن لا هذا ولا ذاك حدث خلال تجربة الصراع العربى - الاسرائيلى، بل أن العكس تماما هو الذى حدث.. هى الفجوة

الفكرية بين العالم الغربى والعالم العربى.. فجوة عملت على الدوام على احداث سوء فهم وسوء تقدير لما يجرى من أحدث فى منطقة الشرق الأوسط.

● وقد يجوز لنا فى هذا المقام أن نشير الى خطا كلاسيكى أخر فى السياسة الأمريكية والغربية بشكل عام تجاه أحداث الشرق الأوسط، ويقوم هذا الخطا على فكرة أن اسرائيل هى التى ستساعد على حماية مصالح الغرب فى المنطقة، وقد استمر هذا الاعتقاد سنوات طويلة، ومازال مستمرا حتى يومنا هذا، مع أن أحداث حرب الخليج الثانية بددت هذا المفهوم تماما عندما تعرضت المصالح الغربية للأخطار بسبب الغزو العراقى للكويت، وفى ذلك كانت الدول العربية وفى مقدمتها مصر هى التى ساعدت على اعادة الاستقرار فى المنطقة وعودة الأوضاع الى ما كانت عليه، وكانت السخرية أن تطلب الولايات المتحدة من اسرائيل عدم التدخل بالمرة فى هذا الصراع، بل انها دفعت لها فى صورة مساعدات عددا من بطاريات الصواريخ باتريوت حتى تضمن سكوتها وعدم تدخلها فى الصراع الدائر فى المنطقة، رغم انها تعرضت لهجوم متكرر بالصواريخ سكود العراقية، ولو كانت اسرائيل تدخلت فى هذا الصراع وردت بأى أسلوب على الاستفزاز الواضح والمتعمد من جانب صدام حسين، لكانت الأوضاع والأمور كلها انقلبت رأسا على عقب، وربما وصلت الى انسحاب - أو على الأقل حياد - القوات العربية الضالعة فى تشكيل التحالف الدولى.. ربما كان هذا هو أحد الدروس الأساسية من تجربة حرب الخليج الثانية، ورغم وضوح الدرس فان الخطأالكلاسيكى القديم مازال سائدا فى عقول كثيرين!!

وعلى أية حال فقد كانت هذه ملاحظة جانبية لاعلاقة لها بالموضوع الذى نتناوله اليوم، ولكنها تؤكد حقيقة عدم تفهم الغرب لحقيقة الأوضاع فى الشرق الأوسط وطبيعة الأمور فى هذه المنطقة من العالم، مع ذلك فانه لو كانت تصريحات وزير الدفاع الأمريكى قد جانبتها الحصافة، وجاءت فى غير محلها ولا يمكن أبدا أن تخدم السلام الذى ينشده الجميع، فانه على الجانب الأخر كانت تصريحات وزير الخارجية الأمريكية وارين كريستوفر، السابق أكثر حصافة وموضوعية عندما أعلن بوضوح «ان السلام لايمكن أن يستمر إلا اذا نتجت عنه فوائد ملموسة فى حياة شعوب المنطقة التى عانت عشرات السنين من النزاع وفقدان الثقة».. قد تكون هذه هى اللغة ونوع

الخطاب الذى يمكن أن يكون مقبولا من جميع الأطراف، خاصة انه لايتضمن أى اشارة من قريب أو بعيد الى القوة العسكرية وانظمة التسليح الحديثة، التى لا يمكن أن تؤدى إلا للاستفزاز والتوتر، الذى لايؤدى بدوره إلا لمزيد من سخونة الموقف، وخلق مناخ لايخدم بالمرة عملية السلام.

ان أهم التطورات بالمنطقة فيما يختص بعملية السلام هى ان الجميع سواء وقعوا أو لم يوقعوا ـ أصبحوا على قناعة تامة بان السلام هو السبيل الوحيد المتاح وانه لابديل عنه، كذلك أدرك الجميع الحاجة الماسة للاستقرار وانه لاسبيل لذلك بدون السلام، وفضلا عن هذا وذاك فان الفجوة الاقتصادية الهائلة التى يتميز بها عالم اليوم جعلت الجميع يدرك صورة المعركة الأساسية التى تدور أساسا حول البناء والتنمية، وفى ذلك كان النموذج اليابانى فى أقصى الشرق، والنموذج الألمانى فى قلب أوروبا، هما أبلغ دليل خاصة ان كلا البلدين كانا نموذجا للمجتمعات المتشبعة بالنزعاة العسكرية، ورائدان فى الحل العسكرى الى الحد الذى جعل العالم كله فى حالة حرب شاملة خرجت منها اليابان وألمانيا دمارا كاملا، وكان عليهما البدء من جديد من درجات كثيرة تحت الصفر.. ومع ذلك، ورغم ذلك كله، دخلنا نحن هنا نفس التجربة حتى أخر طلقة، والأن وبعد حوالى نصف قرن كامل من التجارب التى هزت تفكير العالم كله وغيرت من المفاهيم التى سادت طوال التاريخ.. بدأ الجميع عندنا يدرك حقيقة الأمور، وهذا هو أهم ما فى الموضوع.. ونافذة الأمل بالنسبة لكل شعوب المنطقة.... حقائق أدركها كل المحاربين ـ بمن فيهم الهنود الحمر ـ منذ مئات السنين ■

الجنرال الغبي!

ربما كان السلام بين العرب واسرائيل هو أغرب سلام في تاريخ النزاع الانساني، ولاغرابةفي ذلك فهو سلام «شرق أوسطي» وبالتالي يختلف قطعا عن كل أنواع السلام في أركان الدنيا، ماضيها وحاضرها، شأنه في ذلك شأن كل ما يحدث - أو ما يأتي - في هذه المنطقة الساخنة أبدا.. فهو بالقطع ليس سلاما مثل هذا الذي شاهدناه بين المانيا والحلفاء في أعقاب أضخم حرب شهدها العالم بأجمعه، او سلاما كالذي شاهدناه بين الحلفاء واليابان، وهي الدولة التي كانت تقدس النزعة العسكرية، ولا بين أمريكا وفيتنام التي كانت الحرب بالنسبة لها هي الاختيار الوحيد المتاح، ولكن السلام بين العرب واسرائيل هو «سلام شرق أوسطي» من نوع فريد، تخيم على محادثاته أجواء المعارك أكثر من ظلال أجنحة «الحمائم» وأغصان الزيتون!

وربما كان من أغرب جوانب هذا السلام عندنا أن الحروب بيننا وبين اسرائيل لم تستغرق سوى أيام معدودة، بينما عملية السلام بيننا تدخل الآن عامها الثامن عشر ومازال السلام ناقصا لم يتحقق بالكامل وبالشكل الذي ينبغي أن يكون عليه. وعلى عكس ذلك تماما، فإن الحروب في كل أركان الدنيا استغرقت سنوات مريرة وطويلة بينما لم يستغرق تحقيق السلام بينهم سوى أيام او أشهر قليلة في أسوا الظروف، في ذلك فان المسالة ليست مسالة جذور تاريخية بقدر ماهي عقلية مختلفة تماما.. «عقلية شرق أوسطية تحمل في ثناياها كل متناقضات الدنيا، وكل تراكمات التاريخ دون أن تعي كثيرا من دروسه.

لقد شاهدنا معا توقيع اتفاق طابا، الذى يشمل المرحلة الثانية من اعلان المبادئ لتوسيع سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى فى الضفة الغربية، وهو بلا شك خطوة مهمة وحيوية على طريق السلام الشامل بين العرب واسرائيل، ولكن روحا غريبة كانت تخيم على هذا الاتفاق فجعلت منه أقرب الى اتفاق طلاق بين زوجين أثر زيجة فاشلة قرر بعدها الطرفان الانفصال،وان ينص العقد على كل مايناله كل طرف من ممتلكات وأثاث وأمتعة، وامتدت بنود العقد لتشمل حوالى أربعمائة وخمسين صفحة بسبب التفاصيل الكثيرة، وبسبب التخوف وعدم الثقة، وبسبب ان روح السلام الحقيقى لم تخيم بعد على المنطقة، ورغم كل الاتفاقات التى أبرمت.

وفى الوقت الذى كان يتفاوض فيه الطرفان على مائدة السلام فى فندق طابا - ولا ننسى أن طابا هى الأخرى كانت ملحمة طويلة ومضنية فى عملية السلام بين مصر واسرائيل - فى نفس هذا الوقت الذى كان يتفاوض فيه أصحاب المشكلة الحقيقية، كان التطرف السياسى فى المنطقة قد وصل الى ذروته على الجانبين يطالب بنبذ العملية السلمية دون ان يقدم بديلا واحدا يتسم بالعقلانية، او الواقعية، او حتى أدنى رغبة فى ايجاد مستقبل أفضل للجميع، بل أن هذا التطرف وصل الى حد نبذ السلام دون أن يقدم أى بديل من أى نوع!!

وحتى تزداد المسالة تعقيدا فانه فى الوقت الذى لاح فيه بصيص أمل للشعب الفلسطينى، الذى عانى مالم يعانيه أى شعب أخر، فى هذا الوقت بالذات خرجت علينا ليبيا من أقصى اتجاه الغرب تقرر فجأة طرد الفلسطنيين، الذين عاشوا سنوات فوق أراضى ليبيا يعملون وينتجون ويحاولون ايجاد حياة شريفة فوق أرض شقيقة.. فجأة قررت السلطات الليبية ذلك، اربا كالمسرح سياسى تتقوص أركانه أساساً بسبب فوضورية القرار، والتغير الحاد فى المزاج الشخصى!

ولأن التطرف هو درجة من درجات الجنون، فان الواقع دائما ما يأتى مخالفا لتصورات وارادة هؤلاء، ومن هنا جاء تطور الأحداث وفى مقدمتها اتفاق طابا، مغايرا تماما لماهيات له عناصر التشدد هنا وهناك،وظلت طوال أشهر تقرع بشكل هيستيرى طبول العنف والعداء، كما لو كان السلام، هو الأخر ،نزوة مزاج، عابر، وليس استراتيجية فرضها الواقع وتجارب طويلة خرجت عن النطاق المحلى، ولعبت فيها كل الاطراف الدولية دورا رئيسيا ومباشرا.

ولاشك أن الكراهية موجودة بين الطرفين، وأنها عميقة الجذور وبشكل متداخل، ولاشك أيضا أن هناك من يغذى هذه الكراهية عمدا على الطرفين، وهناك أيضا من يستغلها لأسباب، سياسية وشخصية، وقد كان أخر من غذى هذه الكراهية عمدا وبصفاقة بالغة هذا المدعو إيريه بيرو الذى اعترف بصلف غير مسبوق بانه قتل عمدا مئات من الأسرى المصريين فى سيناء خلال حرب ١٩٥٦ .. عمل حقير يصعب على أى انسان متزن ان يعترف به جهارا، وجاء فى توقيت بالغ الحساسية، ومن ثم لايمكن ان نكون من السذاجة والغفلة بحيث نأخذه على انه مصادفة، اوصحوة مفاجئة لضمير أثبتت أفعال الماضى انه معدوم، وان صاحبه خرج الى الحياة بعيب خلقى يتمثل فى نقص عضو معنوى أسمه الضمير!!

وقد يجوز جدا لنا الأن أن ناخذ هذا الاعتراف الغبى من هذا الجنرال الغبى، على انه كان محاولة. او قل مؤامرة - لاجهاض اتفاق طابا بالذات، لأن هذا الاتفاق يعنى بالدرجة الأولى تبديد الحلم الصهيونى بشأن انشاء اسرائيل الكبرى، وكل ما استشهد به البعض من التوراة لاثبات أن هذه الأرض باكملها هى أرض الأجداد، وإن كل بقعة منها جاء ذكرها فى الكتاب المقدس لليهود... نعم ان هذا الاتفاق بالذات يعنى تخلى اليهود عن حلم اسرائيل الكبرى، ومن ثم قامت المظاهرات الضخمة فى اسرائيل عقب توقيع الاتفاق، وهاجم الاسرائيليون رئيس الوزراء اسحق رابين الذى كانوا يحملون صورا له «بالعقال الفلسطينى» متهمينه بعدم الولاء لدولة اسرائيل أن ولاءه أكبر بالنسبة للعرب وللفلسطينيين.

وقد يتساءل البعض لماذا اختار المتآمرون على السلام والذين كان الجنرال السفاح بالنسبة لهم أداة غبية يحركونها كالدمية لتقول هذا او ذاك قد يتساءل البعض لماذا اختار هؤلاء قصة الأسرى المصريين فى عام ١٩٥٦ والإجابة المنطقية عن ذلك هى ، أن إثارة المصريين فى هذا الوقت ستجعل من مصر غير قادرة على تقديم العون الذى يحتاجه الفلسطينيون فى مباحثاتهم الصعبة والحرجة من أجل توسيع سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى فى الضفة، وان الرئيس مبارك بدلا من أن يلعب دوره الأساسى والمتميز فى تقريب وجهات النظر بين الطرفين وفى استغلال علاقاته واتصالاته الدولية للضغط على من يحاول الجور على عملية السلام وتحويلها إلى

مكاسب لجانب واحد فقط. بدلا من ذلك وبدلا من أداء هذا الدور الفعال، فإن الرئيس مبارك سيكون مشغولا بالتعامل مع الأزمة التى أثارت كل المصريين وفتحت جروحا عميقة بعد أن كادت تلتئم، بل وربما أن الرئيس مبارك الذى يساند عملية السلام بكل قوته ويعمل كل ما يمكنه ليجعل منها عملية سلام شامل تشترك فيها كل الأطراف العربية.. بدلا من ذلك فإن الرئيس مبارك قد يضطر هو الآخر لنسف ما تبقى من هذه العملية وعدم تشجيع المضى قدما لتحقيق السلام الشامل فى المنطقة وبالتالى يظل « حلم اسرائيل الكبرى حيا ينبض بقوة فى وجدان وعقول كل المجانين!!

اعتقد أن هذا كان هو الهدف المراد، خاصة وان حلم اسرائيل الكبرى لا يراود إلا إذهان ووجدان المتطرفين والمتشددين والمخبولين هناك أما بالنسبة للعقلاء الذين يتعاملون مع واقع الحياة وروح العصر الذى نعيش فيه فإنهم هنا وهناك يقومون بما يتفق وينسجم مع هذا الواقع ولذلك فهم بالنسبة لهؤلاء المجانين «خونة» و«عملاء» للعرب والفلسطينيين! وعلينا أيضاً فى هذا الإطار نضع في اعتبارنا أن الأنتخابات الإسرائيلية ستجرى بعد بضعة أشهر، وأن هناك أجنحة أخرى على المسرح السياسى فى إسرائيل ترغب فى هزيمة رئيس الوزراء الحالي وأن الدريعة التى يمكن أن يستخدموها بكفاءة وفاعلية هى أن رابين وبيرنز أضاعا معا «الحلم الجميل» بل إنهما حولا معا كل الأحلام والأماني الى واقع مرير وكوابيس لا الشئ إلا من اجل استمرار عملية السلام وتقديم التنازلات للفلسطينيين!

● وبالفعل عندما سمع المصريون اعترافات قتل الأسرى فى حرب ١٩٥٦، ثار الرأى العام المصرى وتناول جميع الكتاب ورجال الصحافة والأعلام هذا الحادث بهجوم ضار لم تشهده العلاقات المصرية الإسرائيلية منذ توقيع اتفاقية السلام بين البلدين، ولقد كان ولابد أن يثور الرأى العام عندنا، وكان ولابد أن يثور كل الشرفاء من رجال الصحافة والأعلام متناسين جميعا اتجاهاتهم وانتماءاتهم السياسية المختلفة، كان ولابد أن يحدث ذلك فالمجتمع المصرى مجتمع نابض دوما وممتلئ بالحياة، ولكن الشئ الوحيد الذى اغفله من فجروا هذه القنبلة فى هذا الوقت الحساس هو رد فعل الرئيس مبارك فى مثل هذه الأحوال، لقد كان الرئيس أول من سمع بهذه القصة ولم ينتظر قراءتها فى الصحف كما فعل معظمنا، وارتاب الرئيس من غرابة الاعتراف

المفاجئ ومن التوقيت المحسوب بعناية، وفي مثل هذه الأحوال فإن أفضل الحلول هو المضى قدما فيما تقوم به مصر حتى لا يضيع الهدف، والانتظار حتى يتبدد الضباب وتنكشف الحقيقة.. وكان هذا هو ما حدث وتحقق الاتفاق بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ومن ثم اندلعت مظاهرات المتشددين فى إسرائيل فى الوقت الذى كان يقف فيه الرئيس مبارك شامخا فى البيت الأبيض الأمريكى مع الرئيس كلينتون والرئيس عرفات ورابين وبيريز والملك حسين وعدد من قادة العالم يحتفلون بانجاز الاتفاق التاريخى، الذى يبشر بسلام حقيقى فى الشرق الأوسط على حد وصف وسائل الأعلام العالمية.

بذلك سقط بيرو ومن حركوه ودفعوه إلى هذا الأعتراف، لأن الأمور وصلت إلى الحد الذى لا يمكن معه السكوت على هذه الجريمة الحقيرة، ولما كان السلام قد وصل إلى منطقة اللاعودة خاصة بعد اتفاق طابا، فإن تكملة المشوار الصعب تحتاج أول ما تحتاج إلى معالجة حاسمة للجهات، والدوائر والأشخاص الذين يعرقلون ويهددون هذا الأتجاه وفى مقدمة هؤلاء يأتى هذا الجنرال السفاح وكل من وقفوا خلفه فى ساحة المعركة خلال حرب ٥٦، وفى الحلبة السياسية الإسرائيلية حاليا استعدادا للانتخابات الجديدة فى العام القادم، ويجب أن نعى جيدا أن الذين خططوا لهذه العملية ويحلمون بالفوز فى الانتخابات القادمة، أرادوا بالدرجة الأولى أن يتخصلوا من قيود التزامات مسبقة تفرضها الآن حكومة رابين فى إطار الاتفاقات السلمية مع الجانب العربى، وبالتالى تصبح اتفاقات ملزمة لأى حكومة تأتى بعد ذلك، هذا والا تفقد إسرائيل صورتها كدولة ديمقراطية، وتفقد أيضا مساعدات ومساندات كل الدول التى لعبت دوراً فى تحقيق هذه الاتفاقيات، وفى مقدمة هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية.

ولأن السلام قد وصل إلى نقطة اللا عودة كما قلنا فإن المرحلة القادمة تشمل المسارين السورى واللبنانى، حتى يصبح السلام شاملا ويسود ربوع المنطقة بأكملها وإذا أردنا أن نستفد من خبرات ثمانية عشر عاما فى أروقة ودهاليز العملية السلمية فعلينا جميعا أن ندرك أن التطرف موجود وكامن فى كل أرجاء الشرق الأوسط وأن هذا التطرف يقتنص الفرص ليفرض نفسه على الساحة أملا فى فرض البدائل التى تنسجم مع اتجاهاته، ومن هنا فإن البطء فى عملية السلام يعتبر غذاء ووقود اللابقاء

على التطرف، لأنه يعمل على الدوام على إحياء الأمل بالنسبة لهؤلاء فى أن يتمكنوا يوما من تحقيق غايتهم المنشودة، مادامت العملية السلمية الشاملة لم تحسم بالكامل، ومادامت هناك أطراف أخرى مازالت تتقدم بحذر خطوة واحدة إلى الأمام ثم سرعان ما ترتد إلى الخلف خطوتين.. ومادام هذا الموقف مستمرا فإنه يعتبر تشجيعا - وليس تغليبا - لجميع اتجاهات التطرف فى المنطقة وهى اتجاهات أعتقد أن كل الحكومات والدول - وحتى حكومات ودول الشرق الأوسط - تتفق على ضرورة القضاء عليها، من أجل الحياة والبقاء، ولا أقول «من أجل مستقبل أفضل للجميع» لأنها عبارة رنانة أصبحت مستهلكة، ولأن مستقبل أى دولة يعتمد بالدرجة الأولى على سواعد وانجازات أبنائها.

القدس - وذرية قابيل!

يبدو أن الإسرائيليين لا يعرفون كيف يجلبون الراحة لأنفسهم أو لغيرهم، مثلهم في ذلك مثل الأغريق القدامى، وإذا كان الأغريق قد حرموا انفسهم من راحة البال بسبب القضايا الفلسفية التى تطرقوا إليها، والتى لم تجد إلى يومنا هذا حلا أو إجابة شافية، فإن الإسرائيليين يؤدون نفس الغرض ولكن بقضايا سياسية ومشاكل وعقبات لن تجد حلا، ولن تؤدى إلا لمزيد من التعقيد، ومزيد منه التسخين لمنطقة تهوى الوصول والخروج من درجة الغليان.

ولقد كانت إحدى هذه المشاكل التى جلبوها هى مشكلة القدس التى اختاروها من بين سائر المدن لتكون عاصمة لدولتهم، ورغم أن الاختيار لم يلقى ترحيبا عالميا كما اعتادت دائماً اسرائيل، ولقى بالطبع صدمة فى العالمين العربى والإسلامى، ورغم ذلك فإن إسرائيل ابتدعت احتفالا غريبا اسموه الاحتفال «بعيد الميلاد الـ ٣٠٠٠ لمدينة القدس، كما لو كانت هذه المدينة الحزينة لم تعرف فى تاريخها غير اليهود، وكما لو كان العالم لا يوجد فى تاريخه كتبا مقدسة غيرالتوراة، بل كما لو كانت التوراة لا تضم شيئا غير قصة الملك داود. وبدأت الاحتفالات بالألعاب النارية وحفلات الغناء والموسيقى، ولكن كانت الصدمة الأولى بالنسبة للمسئولين الإسرائيليين إنه من بين سبعين سفيرا وممثل دولة فى العالم، ثم توجيه الدعوة اليهم، كان أن جاء للاحتفال سبعة عشر سفيرا فقط بينما اعتذر ثلاثة وخمسون سفيرا من بينهم السفير الأمريكى الذى كان حضوره يعنى الكثيرا.

فى هذه الأثناء اكتفى العرب من سكان المدينة بإطلاق بالونات فى الهواء تحمل الأعلام الفلسطينية وذلك فى احتفال حزين صامت وعاجز. صمت وعجز الدول العربية والإسلامية التى تشغل نفسها باحتلال دول عربية أخرى، أو بطرد العمال والمواطنين العرب والترحيب بعمال أسيا، أو بالاستخفاف بعقولنا بزعم قصص ومؤامرت لو صدقناها لزادت عقولنا خفة وضحالة.. أو.. أو، أو.. أى اشياء من هذا القبيل التى تنخر فى كياننا مثل سرطان العظام والنخاع عندما يجتمعان معا، ويتكاتفا ضد مريض تتابعت عليه كل أمراض الدنيا!!

كان اجراء ايجابيا أن يمتنع هذا العدد الكبير من السفراء وممثلى الدول عن حضور هذا الاحتفال المشاغب، وفى الوقت الذى خرج فيه عدنان حسينى رئيس الأوقاف الإسلامية بمدينة القدس، يعلن أن القدس كانت مدينة عربية لأكثر من خمسة آلاف عام، وكانت مدينة أسلامية لمدة ١٤ قرنا من الزمان.. خرج اليهود او لمرت عمدة القدس يعلن بصفاقة المجانين أنه: ليس هناك إنسان فى العالم يتعاطف مع أى إنسان عاش فى مدينة القدس خلال الـ ٢٠٠ عام التى سبقت وجود الملك داود..

● وإذا كان اتفاق السلام بين العرب واسرائيل عمد إلى أرجاء بحث قضية القدس عملا بمبدأ ارجاء نقاط الخلاف إلى نهاية المباحثات، إذا كان الأمر كذلك فإنه يجوز لنا القول ان السلام العربى. الإسرائيلى يتضمن لأول مرة فى تاريخ العالم، نوعا من الهدنة، يمتنع خلالها الطرفان عن الاشتباك، ولا يجوز استغلالها تحقيق أى مكاسب.. إذا كان الأمر كذلك فإن محاولة اضفاء الطابع الإسرائيلى على القدس، بما فى ذلك هذه الاحتفالات الاستفزازية، لابد وأن تعتبر نوعا من خرق اتفاق الهدنة إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير العسكرى،.. وقد يستغرب البعض من استخدام نعبيرا عسكريا فى عملية السلام، ولكن لا ينبغى أن يستغرب أحد لأن كل شئ جائز فى منطقة الشرق الأوسط.

أن التاريخ يقول لنا أن ممارسات التعصب الدينى فى هذه المدينة التى تضم مقدسات كل الأديان السماوية، لم تؤد لغير المذابح الجماعية البشعة، ولحروب وأحقاد استمرت مئات السنين ومازلنا نعانى من آثارها حتى يومنا هذا، ومازالت تكمن فى أعماقنا اعترفنا بذلك أم نعترف... ونظرة واعية للجانب الدموى من تاريخ هذه المدينة قد فسر لنا كثيرا من أوضاع الحاضر، وجانبا من احتمالات المستقبل.

لقد كان الامبراطور البيزنطى «الكسيوس» هو الذى طلب فى عام ١٠٩٥ من البابا اوربان الثانى أن يساعده ضد المسلمين الذى أصبحوا يهددون القسطنطينية، بل واحتلوا القدس والأراضى المقدسة، وشرح الكسيوس «أنه من شأن انتصار المسيحية على المسلمين أن يعود بيت المقدس إلى الحكم المسيحى، وقد يعيد أيضاً توحيد الكنيستين الشرقية والغربية اللتين انشقتا منذ عام ١٠٥٤ م».

ويقول المؤرخون أن الأمبراطور الكسيوس قد يكرن طلب فعلا المساعدة من البابا ضد المسلمين، ولكن حتى لو كان ذلك صحيحا، فإنه ولابد أن يكون قد وضع نصب عينيه المكاسب التى سيتحصل عليها من إنشاء جيش ارستقراطى من الفرسان يتمتع بدرجة عالية من التنظيم واقترن بذلك تطلع هؤلاء جميعا إلى الجهاد وفكرة الحرب المقدسة، بتطلعهم الى التكسب وجنى الثروات من المسلمين والبيزنطيين «الزنادقة».

ولما كان السلم الاجتماعى فى أوروبا فى ذلك الوقت يضم فى نهايته افواجا هائلة من الفقراء والمعدمين، فإنه حينما قام الوعاظ المتجولون من أمثال «بطرس الناسك» بنشر دعوة البابا، فإن افواج الفقراء تلك سارعت بالانضمام إلى الحرب المقدسة بغرض أساسى يقوم أولا واخيرا على اضفاء معنى لحياتهم التعسة التى لا تحمل أى قيمة، وهكذا انضم الفقراء المعدمين ماديا ومعنويا الى الفرسان الأرستقراطيين فى زحفهم المقدس من أوروبا إلى القسطنطينية وأدى هذا الإندماج إلى تحويل تلك الجيوش الى جيوش صليبية شعبية غير مدربة وغير منظمة، ويسميهم المؤرخون الغربيون الآن بالجيوش الآفاقة التى خرجت لاستئصال شأفة «ابناء... من ذرية قابيل» (كما كانوا يسمون المسلمين فى ذلك الوقت).

وباسم المسيح استولت الجيوش الآفاقة على المدن الأوروبية، والغريب أن تلك الحملات الصليبية بدأت بأول مذبحة ضخمة لليهود. فقد أعلن الصليبيون: لقد خرجنا فى زحف طويل لقتال اعدائنا فى الشرق (المسلمين)، ولكن أمام أعيننا الآن أسوأ اعداء الله وهم اليهود. فعلينا بابادة هؤلاء اولا، وكانت جاليات اليهود قد تجمعت طوال قرون من الزمن عبر نهر الراين فى رعاية الأساقفة المسيحيين، وهنا طلب غوغاء الصليبين من أولئك اليهود أن يتحولوا إلى الدين المسيحى أو يستعدوا للهلاك... ولم يدم الوقت طويلا حتى قام الغوغاء بسفك دماء هؤلاء اليهود فى مذبحة ضخمة قاموا

بها كبروفة تمرينا على المهمة الأساسية التى تنتظرهم فيما بعد فى القدس خلال المجابهة مع «ذرية قابيل».

وحتى امبراطور بيزنطة . الذى كان قد طلب المساعدة فى البداية من البابا. اعتراه الرعب من منظر هذه الجيوش الصليبية وتأكد أن القسطنطينية تتساوى مع القدس أمام هؤلاء الغوغاء والأفاقين، ونجحت الطبقة الحاكمة فى بيزنطة فى توجيه جيوش الافاقين ، تلك إلى القدس حيث كان المسلمون ينتظرون هناك بسذاجة وسماحة ولا يتوقعون ابدا هجوما بهذا القدر من العنف والشراسة والتصميم على الإبادة وفى عام ١٠٩٩ تمكن الصليبيون من القدس ولنقرأ معا هذه الفقرة من كتاب «متابعة الألفية» للمؤلف الأمريكى نورمان شون:

بعد أن سقطت القدس وقعت المذبحة إذا تم ذبح جميع المسلمين رجالا ونساء وأطفالا، جميعهم فيما عدا الحاكم وحراسة الذين اشتروا حياتهم بالمال. فاصطحبوهم إلى خارج أسوار المدينة وفى معبد سليمان وحوله خاضت الجياد فى الدماء التى وصلت حتى سروج الجياد.. لقد كان حكم الله عادلا ورائعا.. أن نفس هذا المكان الذى ارتفعت فى أرجائه هرطقات هؤلاء الذين جدفوا فى حق الله، هو نفس المكان الذى يتلقى فيه الخالق الآن دماء هؤلاء.

وعندما لجأ يهود القدس إلى معبدهم الرئيسى فى المدينة هربا من المذبحة، فقد أضرم الغزاة النيران فى هذا المعبد ومات كل اليهود فيه حرقا، ثم سار الصليبيون بعد ذلك فى مواكب النصر الى كنيسة القبر المقدس وهم يبكون فرحا وابتهالا وينشدون اغانى الشكر لله صائحين: أيها اليوم الجديد، ايها اليوم الجديد أيتها البهجة أيها الفرح الجديد الدائم.. ذلك اليوم خالدة ذكراه إلى الأبد . ذلك اليوم حول كل عذابنا والامنا إلى فرح وسرور، ذلك اليوم تأكيد قاطع للمسيحية ومحق للوثنية، وتجديد لإيماننا».

أى إيمان هذا الذى كان يتحدث عنه هؤلاء الآفاقين؟! أن تعاليم السيد المسيح كانت صريحة من ضربك على خدك الأيمن أدر له الأيسر».. لكن هؤلاء الأفاقين لم يضربوا أحد على الخد الأيمن ولا حتى أصبع الإبهام الأيسر، ولكنهم جاءوا أساسا تخليصا من الفقر وسعيا للسلب وللغنائم. وجاءوا أيضاً. كما يقول المؤرخون الغربيون

المعاصرون - لاضفاء معنى لحياتهم التعسة فى أسفل السلم الاجتماعى بأوروبا التى كان يسودها الظلم والاضطهاد، وجاءوا مرة أخرى لأن البعض هناك تصور أنه سياسى محنك وداهية - تماما كما تتصور العقول المحركة لظاهرة الإرهاب فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين.

ومزجوا الدين بالسياسة وأحيوا فى نفوس الغوغاء نعرة لا تنطفئ تقوم على فكرة أنهم وحدهم هم الأقرب إلى الله، وإن ما دونهم كافر وزنديق!

● ولأن لكل فعل رد فعل، فقد توحد المسلمون وفاقوا من سباتهم، واستطاعوا فى عام ١١٨٧ أن يستعيدوا مدينة القدس بقيادة صلاح الدين الأيوبى، فكان رد أوروبا بحملة صليبية ثانية كما نعرف والتى كان بين قادتها ريتشارد قلب الأسد الذى وصل وحده إلى الأراضى المقدسة لمواجهة صلاح الدين وعندما عجز عن الاستيلاء على القدس، واستمرت المفاوضات بينه وبين صلاح الدين أطول مما يتحمله مزاجه العصبى الحاد، قام قلب الأسد هذا بمذبحة أخرى ضد المسلمين قتل خلالها ما يقرب من ثلاثة آلاف أسير، وعندما أزدادت حدة مزاجه زعم أن الأسرى القتلى ابتلعوا ذهبا فى بطونهم فامر ببقرها بحثا عن الذهب!.. ثم ازدادت حدة مزاجه مرة أخرى فأمر بحرق القتلى الأسرى وتحليل رماد الجثث بحثا وتنقيبا عن ذهب مزعوم لم يعثر عليهو أحد من الآفاقين الغوغاء الباحثين عن الثروة والغنائم!

لم تكن هناك عقائد أو أديان وراء ذلك، فالأديان كلها تنهى عن هذه الوحشية، ولكن المسألة منذ البداية نفاق وممارسة للأبادة وأكبر دليل على ذلك أن هذه الحروب التى ارتكبت باسم المسيح انتهت بتدمير أكبر مدينة مسيحية فى العالم، وكان تدمير هذه المدينة، «القسطنطينية» هو الخاتمة الغريبة للحملة الصليبية فى سبيل تحرير الأراضى المقدسة ولأن النهب والسلب هو الهدف الحقيقى فقد قام الجيش الصليبى الشعبى بنهب المذابح والكنائس فى هذه المدينة وصهروا التحف الفنية التى لا تقدر بثمن من أجل الحصول على ما فيها من معادن ثمينة، وحطموا المحاريب والفسيفساء من أجل ما فيها من جواهر، وضاعت إلى الأبد مخطوطات تاريخية نادرة للكنيسة والعالم القديم.

ولأن التاريخ والأحداث الجسيمة تترسب فى أعماق وجدان البشر والمجتمعات الإنسانية، فإن تاريخ القدس لم ينسه أحد لا عندنا ولا عندهم، وفى بداية القرن العشرين خلال الحرب العالمية الأولى رأى الحلفاء أن يحرزوا نصرا سهلا بالاستيلاء على القدس لتغطية هزائمهم فى أوروبا، وعندما ذهب الجنود البريطانيون والفرنسيون إلى القدس كانوا ينشدون، لقد عدنا يا صلاح الدين وذلك رغم إن صلاح الدين مات منذ مئات السنين، وأمر بتوزيع ثروته بعد مماته على فقراء المسلمين واليهود والمسيحيين!!

ورغم أن اليهود تعرضوا للمذابح داخل القدس وخارجها مثلهم فى ذلك مثل المسلمين، بل وبعض المسيحيين الشرقيين فإنهم يبدو أنهم لم يعوا الدرس جيدا ولم يدركوا خطورة استغلال الأديان فى مسائل وقضايا سياسية، وعادوا فى حرب ٦٧ المشئومة ليحتلوا مدينة الأحزان الدفينة، ثم جاءوا فى نهاية القرن العشرين، بعد أن تخلى العالم المسيحى الغربى عن عدوانيته وأصبح التحضر حائلا بينهم وبين المقدسات الدينية للآخرين... عاد اليهود ليختاروا هذه المدينة بعينها لتكون «عاصمة أبدية وموحدة» للدولة اليهودية.. والتاريخ يقول غير ذلك تماما، ويقول أن المسلمين دفعوا فى هذه المدينة ثمنا باهظاً من الثروات والأبناء والدماء، ويقول أيضاً أنها مدينة مقدسة لكل الأديان، وأن التعصب الدينى داخل أسوارها يجعلها فى لحظة قابلة لاشتعال لا يخمد إلا بعد مئات السنين.

الشرق الأوسط الذى صنعته مصر!

السلام يتطلب شجعانا!

يقولون إن العظماء يصنعون التاريخ، وإنهم قلة من البشر يندر أن يجود بهم الزمن، وخاصة زمننا الراهن الذى اعتراه الجفاف الإنسانى والوجدانى.. ومع ذلك ورغم أن التاريخ فى معظم الأحوال هو من صناعة وصياغة قلة من العظماء فإن ما يقوم به السواد الأعظم من الناس هو الأكثر تأثيراً وقدرة على تغيير شكل الحياة... السواد الأعظم، أو الناس العاديون الذين لا دخل لهم بالسلطة، وبالأضواء وبالتاريخ وأمجاده، هؤلاء الناس تظل ارادتهم فى النهاية هى عامل الحسم فى تغيير شكل الحياة، فى ذلك فإن القادة والسياسيين يعملون على فتح آفاق جديدة، ولكن غزو هذه الآفاق وارتيادها يظل من واجبنا نحن وحدنا، وإلا ظلت هذه الآفاق مجرد نوافذ لفرص ضائعة تعمل على تعميق الإحساس بالحسرة والضياع!

فى هذا الإطار بالضبط يمكن أن ننظر إلى عملية السلام فى الشرق الأوسط،، فقد خرج من أراضينا رجل عظيم آمن بأن الخوف هو العدو الأول للإنسان وللبشرية، فكان السادات أول من قال «لو كان الخوف رجلا لقتلته»، وفى تصورى أن تحرره من الخوف هو الذى جعله يتخذ قرار الحرب فى اكتوبر ٧٣ لأنه لو كان خاف ولو للحظة واحدة لما أستطاع أن يتخذ هذا القرار الخطير حتى يومنا هذا، ولكنا جميعا تحولنا إلى «دراويش إنشاد» تتغنى بالحرب والعبور وهى قابعة فى مخابئها غربى القناة تفلسف الأوضاع والأقدار والظروف الدولية السائدة!! كذلك فإن تحرر هذا الرجل العظيم من مشاعر الخوف وإحساسه بالمكاسب الهائلة التى حصل عليها من جراء هذا التحرر،

والتى تمثلت فى أول نصر عسكرى على القوات الإسرائيلية ، هذا الإحساس هو الذى شجعه على اتخاذ القرار الأكثر خطورة وشجاعة بتحقيق السلام مع إسرائيل، وعندما هبط من على سلم طائرته فى مطار بن جوريون قالت أقلام وميكروفونات العالم المتحضر إن خطوة السادات فوق أرض إسرائيل كانت أشجع بمراحل من خطوة رائد الفضاء الأمريكى نيل ارمسترونج فوق سطح القمر!!

كل هذا الكم من الشجاعة، وهذه الريادة، لم تكن لتسفر عن شئ لو لم يكن هناك قادة آخرون القوا بثقلهم فى هذا الاتجاه، ومن الإنصاف القول بأن الرئيس مبارك حقق في هذا الصدد ما لم يحققه زعيم غيره على مستوى المنطقة بأكملها ، هكذا تقول الأحداث، وهذا سيسجل التاريخ، ولأن السلام منذ بدايته هو عملية مصرية فى المقام الأول ريادة وفكرا وانجازا، فإن عملية السلام بين مصر وإسرائيل استطاعت أن تتغلب على جميع الصعاب ابتداء من مستوطنات سيناء، التى كانت نماذج لمدن مستقبلية، وانتهاء بنقطتى الحدود رقم ٩٠ و ٩١ ومشكلة طابا التى نبعت من هذا الخلاف الحدودى.. كل الصعاب أمكن التغلب عليها لسبب واحد هو أن الشعب المصرى بكل طوائفه خرج عن بكرة ابيه يوم عودة السادات من القدس، واستقبل زعيمه استقبال الأبطال - على عكس كل التوقعات والتقارير الأمنية - ومن مطار القاهرة وحتى مقر السادات بالجيزة، وقف المصريون البسطاء فى الشوارع وفى نوافذ وبلكونات منازلهم يهتفون للبطل العائد ويؤيدون خطوته التاريخية، وهكذا فإن عملية السلام بين مصر وإسرائيل اشترك وتضافر فى صنعها عظماء القادة، والسواد الأعظم من الناس، ولهذا السبب وحده، أصبح الحلم البعيد حقيقة واقعة تفرض نفسها على مسرح الأحداث اقليميا وعالميا وتاريخيا.

وحتى بالنسبة لأولئك الذين عارضوا العملية السلمية بين مصر وإسرائيل فى بدايتها، فإن أعدادهم بدأت تتقلص تدريجيا مع تطور الأحداث ومع ازدياد تفهمهم للأبعاد الحقيقية لهذا التطور الحتمى، ولما كانت مصر دائما هى التى تتبنى القضية العربية عسكريا ودبلوماسيا ودوليا وإعلاميا ووجدانيا، فقد كان فى مصر دائما روافد لكل اتجاه وكل رأى عربى، حتى لو كان هذا الأتجاه أو هذا الرأى يتناقض مع الأهداف القومية المصرية، وكان اصرخ النماذج فى هذا الصدد أن أراء ومواقف

وسياسات صدام حسين بشان السلام العربى - الإسرائيلى، كان لها صدى مسموع وملموس فى مصر لم يتبدد ويتلاشى تماما إلا بعد النتائج المفجعة لهذه السياسات والتى تبلورت بشكل مأساوى بعد غزو الكويت وحروب «أم المعارك».. المهم أن مصر منذ نهاية الأربعينات وحتى يومنا هذا أثبتت على الدوام أنها «الراعى الأول» للقضية الفلسطينية وأى قصة تمس العرب - بغض النظر عن تذبذب المشاعر العربية تجاه مصر وبغض النظر عن غموض والتواء مشاعر البعض تجاهنا - وفى جولة المباحثات والضغوط بشأن مدينة الخليل، ورغم أن معظمنا لم ير مدينة الخليل ولن يراها، فإن موقف المصريين بشأن الخليل كان هو نفس موقفهم بشأن طابا المصرية الواقعة عند أقصى حدودنا الشمالية الشرقية!

إن شعبا بمثل هذه المشاعر لا ينبغى أبدا المزايدة على اتجاهاته وإحساسه بالمسئولية القومية، وفى ذلك أعنى بالدرجة الأولى هذا الكم الهائل من الإصدارات العربية التى تخرج عندنا، وهذا الكم الهائل من المحطات الفضائية - ويبدو أن مساهمتنا الوحيدة فى مجال الفضاء هى شراء وحجز قنوات الإرسال التليفزيونى - وليراجع المسئولون المرتبات والأتعاب المجزية التى تمنح للبعض من خلال هذه القنوات وهذه الإصدارات ليس بسبب عمق المدرسة الفكرية التى ينتمون إليها، ولكن أساساً بسبب انصياع هؤلاء لاتجاهات وسياسات معينة تتماشى مع استراتيجية هذه الدولة أو ذاك القطر، وربما فى تماشيها هذا تكون متعارضة ومتصادمة مع أهدافنا القومية.. إلى هذا الحد وصل الخلط والخبط وإلى أرقام فلكية وصلت الأجور وثروات «المتعهدين» من أبناء هذا البلد، والذين بسبب ثرواتهم بدأوا يفرضون أنفسهم على سماء المجتمع .. وسط ذهول المخلصين والفاهمين لحقيقة ما يجرى أمامنا من عجب!

إن هذه الأوضاع لا يمكن أن تخدم بالمرة أهدافا قومية أو تساعد على تفاعل أحداث إيجابية تخدم أى تطور أو أى هدف، بل وبالعكس تماما فإن مثل هذه الأوضاع لا يمكن إلا أن تؤدى إلى التخبط والتمزق، والحيرة التى تسبق الضياع، إن هذه الأوضاع النموذجية التى يضيع معها «خط الأفق» ويفشل الملاح خلالها مهما كان ماهرا، فى تحديد موقعه فى هذا الكون الفسيح وسط هذا المناخ فإن طريق السلام لن يكون وحده هو الذى سيختفى وتضيع معالمه، ولكن كل، وأى طريق لن يكون له

وجود أو معنى بعد ذلك هكذا تتخبط الشعوب، وتتعثر الأمم وتتلاشى أحلام الوحدة على أى مستوى!

ومن أخطر الاتجاهات التى ظهرت إبان أزمة إعادة الانتشار وانسحاب القوات الإسرائيلية من مدينة الخليل مثلا ومن أخطر هذه الاتجاهات أننا جميعا - كمؤيدين ومعارضين لعملية السلام - وجدنا أنفسنا فى مأزق حقيقى لا يسمح بغير خيار واحد: إما الإنسحاب من الخليل أو التخلى عن العملية السلمية برمتها ... أتجاه انفعالى وعفوى يعكس محدودية الاستعدادت التى تزودنا بها، والتصورات والاحتمالات التى قمنا بإعمال عقولنا فيها منذ أن وضعت الحرب اوزارها، وبدأنا فى طريق السلام... وقد يكون هذا هو الخطأ الأكبر من جانبنا، ولهذا السبب فإن تعثر اتفاق أو سلو جعلنا نسمع من جديد طبول الحرب تدوى فى جميع اركان العالم العربى... ليس لأن الاختيار العسكرى هو اختيار وارد، ولكن أساسا لأننا لم نجد أى اختيار بديل ويقينى أن المجتمعات المتمرسة فى فنون السياسة تتجنب أول ما تتجنب، أن تزج بنفسها فى مثل هذه الأوضاع الحرجة التى تحاصر الصديق والخصم معاً.

وطوال هذه الحقبة الساخنة التى حملت تهديدا مباشرا لعملية السلام ومفهوم السلام ذاته، كنت اتابع باهتمام تصريحات المسئولين والقادة العرب هنا وهناك، وأستطيع القول أنها فى مجملها كانت تصريحات يائسة تنذر بنهاية مأساوية للأمل الوحيد من أجل حياة أفضل للجميع فى منطقة الشرق الأوسط كلها كانت تصريحات من هذا النوع فيما عدا تصريح واحد أعلنه الرئيس مبارك وكان تجسيدا للشجاعة والإحساس، فى الشرق الأوسط ففى يوم ٧ يناير الحالى أعلن الرئيس المصرى فى حديث لشبكة «بى. بى. إى» الأمريكية، أن إنهيار عملية السلام ليس معناه العودة إلى الحرب - هكذا ببساطة ووضوح - ولكنه سيفتح الأبواب لعمليات الإرهاب - هكذا بعقل وواقعية - وبعد هذا التصريح الخطير خفتت «طبول الحرب» المصطنعة، وهدأت العقول الساخنة والدماء الحارة التى تجرى فى عروق البعض منا والتى لم تجلب لنا غير مواقف حرجة مازلنا نعمل على معالجتها حتى يومنا هذا.

أن رجلا واحدا فى المنطقة العربية بأكملها ، الرئيس حسنى مبارك، هو الذى عمل على وقف هذا التدهور السياسب والإعلامى على الجانب العربى، ولكن فى منطق

العالم الحديث الذى يتجه إلى مشارف القرن الحادى والعشرين، وفى ظل النظام الديمقراطى الذى نتطلع إليه ونتشدق به، فإن هذا لا ينبغى أبدا أن يحدث ... لا ينبغى أبدا أن نترك مستقبل منطقة بأكملها يرتهن بإرادة رئيس أو حاكم أو ملك واحد، ولكن الصحيح كما قلنا فى بداية المقال أن يتم صناعة التاريخ وصياغته بواسطة هذه القلة النادرة من العظماء .. وأيضا بواسطة السواد الأعظم من الناس فى أى مجتمع.

وفى هذا الإطار فإننا لو نظرنا إلى الجانب الآخر- الجانب الإسرائيلى- فإننا سنرى الصورة معكوسة تماما، فقد كان رئيس الوزراء السابق بنيامين نيتانياهو ضد أوسلو وضد الإنسحاب من الخليل، وربما كان ومازال ضد فكرة السلام بأكملها، ولكن بعد أن نشط الإعلام الغربى المحترم فى نقل حقيقة ما يجرى فى الأرض المحتلة- والتركيز على «سخافة» فكرة الاستيطان والعدد المحدود لهؤلاء المستوطنين الذين يتسيبون فى المشكلات الحالية- وقطعا أنواع أخرى من المشكلات فى المستقبل سنراها إن أجلا أو عاجلا- بهذه التغطية الإيجابية التى لا ندعى، كصحفيين وإعلاميين عرب، شرف المشاركة الإيجابية فيها «فنحن نكتفى بالمقاطعة البلهاء، رغم معرفتنا جميعا بأن المقاطعة فى مجال تغطية الأحداث وكشف الحقائق هى نوع من العجز والتنصل من مسئولية أساسية المهم أنهم فى إسرائيل تحركوا.. تحركت الأغلبية الصامتة وتحركت جماعة السلام الآن، وضغطوا جميعا على نيتانياهو وحكومته تماما كما ضغطت واشنطن والعالم الغربى بعد أن اتضحت حقائق الأمور.. بالمسئولية وكان حاسما لهذا الهراء السياسى الذى اعتلى مسرح الاحداث بسبب كل هذه الضغوط كان أن تم أخيرا الموافقة على اتفاق الخليل بأغلبية ساحقة فى الكنيست الإسرائيلى بلغت ٨٧ صوتا لصالح تنفيذ الاتفاق مقابل ١٧ قالوا: لا أى بنسبة ٥ إلى ١ وفى ذلك علقت صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية قائلة إن الإسرائيليين لا يوافقون على أى شئ فى العالم بنسبة ٥ : ١ حتى لو كانت القضية المطروحة للتصويت هى أن الشمس تشرق من الشرق!!

وهكذا نقول فى النهاية أنه من أجل الجولان، ومن أجل الدولة الفلسطينية، ومن أجل القدس، ومن أجل كل المراحل الصعبة القادمة، فإن الأغلبية الصامتة عندنا، والتى طال صمتها ويأسها لابد وأن تتحرك وتشترك فى صنع الأحداث وصياغة

التاريخ.. عليها أن تتحرك لأنها هى التى ستبنى وتجنى إذا ما تحقق السلام، وهى التى ستخوض المعارك إن أردنا الحزب.. وهى التى سترث الأرض وما عليها، سواء كانت نباتا أو يبابا.. هى وحدها التى تقرر ذلك...

مساندة عملية السلام، وفى صباح اليوم التالى صحوت مبكرا رغم أننى كنت أعمل فى الجريدة حتى الساعة الرابعة صباحا، وتوجهت إلى مكتب البريد وأرسلت برقية إلى الرئيس السادات من خمس كلمات فقط وتقول: «أنت أقوى رجل فى العالم» وفى ذلك كنت معجبا ببرقية تحمل نفس المعنى كان قد أرسلها الفيلسوف البريطانى العظيم برتراند راسل إلى الزعيم السوفيتى نيكيتا خروشوف عندما قرر السوفيت أن يوقفوا تصعيد الموقف خلال أزمة خليج الخنازير الشهيرة، يومها كان العالم كله على وشك الانفجار فى حرب تدمر الجميع وعندما تمالك السوفيت أعصابهم أمام صلف القوة العسكرية الأمريكية كان أن بعث راسل بهذه البرقية المعبرة إلى خروشوف .. فالقوة الحقيقية ليست فى الصلف، وليست فى البلطجة، وليست فى الاستهتار القتالى والعسكرى ولكنها تكمن أساسا فى القدرة على السيطرة على النفس، وعلى المشاعر والقدرة على مواجهة المحرمات الكلاسيكية والتاريخية الجامدة، والعمل على تغيير الواقع لصالح الجميع!.. تغييره بالقوة العسكرية عندما تقتضى الأمور ذلك، وبقوة الدبلوماسية والفكر وشجاعة الحوار عندما يكون ذلك متاحا!

فى هذا الإطار كنت، ومازلت، أنظر إلى الزعيم الراحل أنور السادات الذى لم أشرف بمقابلته فى يوم من الأيام والذى لم تربطنى به أى علاقة من قريب أو بعيد اللهم إلا العلاقة بين مواطن ورئيس دولته.. مواطن يقوم عمله على مراقبة وتسجيل الأحداث، ورئيس تولى المسئولية فى أحلك فترة فى تاريخ مصر واستطاع أن يخرج بها سالما من غياهب الهزيمة، ومن سراديب الأزدراء ومن مستعمرات «الجذام» الحضارى والاجتماعى التى عزلتنا عن الأهل وحتى الأشقاء .. خرج بها الرجل من كل هذه الجحور، وكل هذه السراديب، ليفرضها فرضا على العالم كله تارة بقذيفة المدفع، وتارة بمشعل الفكر والحضارة فكان أن عادت مصر تحتل مكانتها الطبيعية تحت أشعة شمس كان ينعم فى ضيائها الجميع، بينما حجبت نفسها علينا وحدنا لسنوات طويلة اقترينا خلالها من برودة الموت»!

وهكذا فإنه منذ اللحظة الأولى لهذا الخطاب التاريخى الذى ألقاه السادات وأعلن خلاله بشجاعة أنه مستعد للذهاب إلى القدس، أدركت أن هذه الخطوة ستشكل خلافا عميقا بين الجميع ، خلافا على سطح الحياة السياسية فى مصر وفى العالم العربى، ولكنه يكاد يكون معدوما على مستوى الجماهير التى تسعى للحياة والعمل بعيدا عن الأضواء وبعيدا عن ادعاءات الزعامة والمواقف التى ترمى بالدرجة الأولى إلى غزو مسرح الأحداث، بصرف النظر عن مدى جدوى هذه المواقف وملاءمتها للصالح العام، وقد يكون أكبر دليل على ذلك أن «الحفنة المقدسة» من قادة حرب أكتوبر- حربنا المنتصرة الوحيدة فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى . لم يخرج أحد منهم ابتداء من الرئيس حسنى مبارك وحتى أصغر جندى فى أصغر تشكيل قتالى، يعلن رفضه أو استياءه لهذا الاتجاه فى تناول مشكلة صراع استغرق سنوات طويلة من عمرنا، وقد يقول أحدهم أن الانضباط العسكرى الذى هو قوام العسكريين المحترفين يمنع عدم الطاعة وابداء الرأى فى مشاكل الحكم والسياسة العليا للبلاد، فإن الرد على ذلك هو أن الرئيس مبارك الذى تولى زمام الأمور بعد استشهاد السادات هو الان من أكثر الناس مساندة لاتجاه السلام وهو القائد والرئيس الذى جعل السلام حقيقة ملموسة فى جميع ربوع المنطقة بالرغم من سخافات ومماطلات ليكود نيتانياهو، وكان هذا الاتجاه هو واحد من أهم العوامل التى زادت من هامة الرئيس مبارك على مستوى العالم كله وزادت من مكانة مصر بين دول العالم المتقدم.

وإلى جانب الرئيس مبارك وقادة ورجال حرب أكتوبر، فإن شعب مصر خرج عن بكرة أبيه ربما للمرة الأولى منذ سنوات طويلة ليرحب بالسادات بعد عودته من زيارة القدس، خرجوا فى الشوارع وشرفات المنازل بعد غياب طويل - دون تخطيط أو تعبئة أو تسهيلات رسمية - ليقولوا للرجل أننا معك ونوافقك على هذا الاتجاه، ولأننى كما قلت فى بداية المقال كنت من مؤيدى عملية السلام منذ لحظاتها الأولى فقد كنت حريصا على أن اتحقق والمس بنفسى رد فعل الشارع المصرى حتى يمكن أن أحدد مدى صحة موقفى، ولذلك كنت بين الناس من مطار القاهرة الدولى وحتى مكتبى فى مبنى الأهرام فى شارع الجلاء، كنت هناك لأتلمس على الطبيعة نبض الشارع المصرى وحقيقة مشاعر الأغلبية الصامتة، والتى طال صمتها لسنوات طويلة، وأدركت وتأكدت أن الغالبية مع هذا الرجل ومع اتجاه السلام.

الديمقراطية والسلام

عندما قررت «مصر السادات» أن تتجه إلى السلام، وتجعل من حرب أكتوبر آخر الحروب بين مصر وإسرائيل، وأن تحاول فى الوقت ذاته دخول التجربة الديموقراطية بعد سنوات طويلة من الشمولية.. وعندما نجحت «مصر مبارك» فى تحويل حلم السلام إلى حقيقة ملموسة، وتدعيم الديموقراطية لتصبح منهجا ثابتا للعمل السياسى وأسلوب حياة لا رجعة فيه، عندئذ فقط بدأت تتجسد ملامح «شرق أوسط جديد» نتقدم موكبه إلى رحاب القرن الحادى والعشرين.

لقد كانت إسرائيل دائماً دولة ديموقراطية وتنادى بالسلام، ومع ذلك ظل الشرق الأوسط على ما هو عليه من حروب ونزاعات استنزفت طاقات هائلة من موارد الجميع، وجعلت من المنطقة بقعة صراع دائم وملتهب أوشك فى لحظات معينة على نشوب مواجهة نووية بين القوى العظمى فى العالم «القديم» ولكن عندما قررت مصر «السلام» والديموقراطية» أصبح الأمر مختلفا فهى حقيقة معروفة على مر التاريخ أن قرارات وارادة الكيانات الأكبر هى التى تحرك عجلة الأحداث أكثر من غيرها، ولعل ذلك يلقى الضوء على جانب من أهمية مصر اقليميا، وعالميا بالتالى، ومع ذلك فإن كثيرين - اقليميا وعالميا أيضا - يتناسون هذه الأهمية بمجرد الإنتهاء من أزمة ما.

وعلى أية حال فإن ذلك الاتجاه الجديد الذى ارتادته مصر خلال السبعينات، جاء فى ذروة الحرب الباردة، وذروة الصراع بين الغرب والشرق، ولو جاء هذا الاتجاه بعد تفكك وإنهيار الاتحاد السوفيتى لاصبح القرار الشجاع مجرد خنوع وإذعان لظروف

عالمية ومتغيرات مذهلة، أطاحت بالحليف الأول لمصر والمعسكر العربى، وكان يمكن بذلك أن ننضم إلى طابور المهزومين.

ولكن لأننا سلكنا هذا الاتجاه مبكرا وبإرادتنا فقد أصبح من حقنا أن ننسب لأنفسنا نتائج السياسات التى أرتدناها، ليس بالنسبة للسلام والديمقراطية فقط ولكن أيضاً وبنفس القدر لسياسات الانفتاح الاقتصادى - التى تعرضت لنقد جاهل قاس من بعض أجنحة المعارضة - وسياسات السوق الحرة والخصخصة.. وهى كلها سياسات تحاول الآن دول الكتلة الشرقية، بما فيها روسيا نفسها، أن تلحق بنا على هذا الطريق الذى خطوناه وحدنا منذ سنوات طويلة، قبل إنهيار حليفنا الأكبر والأوحد.. كل ذلك قد يزيد حتما من أهمية مصر فى تغيير الأوضاع وتغيير مجرى الأحداث.. ولكن مرة أخرى البعض ينسى بمجرد انتهاء المواقف الصعبة والحرجة.

وقد لا يعرف كثيرون: أن هناك ارتباطا وثيقا بين الديموقراطية والسلام وتحقيق الرخاء للشعوب، فقد أكدت التجربة ما أجمع عليه المفكرون بأن الديموقراطية تعمل أولا على تحقيق الرخاء للشعب وتحقيق السلام مع الدول المجاورة، من هنا فإنه طوال قرن كامل من الزمان (المائة سنة الماضية) مزقت الحروب بقاع العالم كله، وخاضت البشرية حربين عالميتين : الأولى منها ابادت جيلا بأكمله وأضاعت فرص السلام الذى تحقق بمقتضى معاهدة فرساى، التى كانت معاهدة مجحفة أدت إلى حرب عالمية ثانية، ولكن بعد هده الحرب الثانية كان المنتصرون قد تعلموا شيئاً من الحرب الأولى فبدلا من إذلال المهزوم وإجهاض تقدمه فى شتى المجالات ، عمل الحلفاء المنتصرون على إعادة بناء اليابان والمانيا ابتداء من «خطة مارشال» وانتهاء باتفاقية «الجات» وكان هؤلاء القادة بذلك يهدفون فى المقام الأول إلى بناء قاعدة لمجتمع من الديمقراطيات الغربية، وقاعدة لاقتصاد عالمى قوى متشابك ومزدهر.

وهكذا فإنه بسبب الديموقراطية والرخاء الذى تحقق بعد ذلك تلاشت النزعات العسكرية والعدوانية التقليدية التى كانت تنطلق دائماً من اليابان فى أقصى الشرق، ومن ألمانيا فى قلب أوروبا، ومع ذلك فإن السلام العالمى لم يتحقق لأنه كان مازال هناك كتلة عالمية منافسة، هى الكتلة الشرقية، لم تقترب من الديموقراطية ولم تعرف غير النظام الشمولى، وبالتالى استمر النزاع العالمى فى صورة الحرب الباردة التى

أطلق عليها المفكر العسكرى الشهير كلاوزفتز ادق تعبير. وسوف نلاحظ هنا أن هذا التعبير تم تحريفه عندنا ولا أدرى إن كان ذلك تم عمدا لتبرير سياساتنا السابقة أم أنه حدث سهوا. فقد وصف كلاوزفتز هذه المرحلة بقوله: إنه بإنتهاء الحر ب العالمية الثانية أصبحت السياسات الدولية لما يقرب من نصف قرن من الزمان هى أداء وممارسة للحرب ولكن بوسائل أخرى مختلفة ولم يقل ابدا أن السياسة استمرار للحرب كما سمعنا فى فترة معينة، مازال البعض يرددها حتى يومنا هذا.

وهكذا ولأن رخاء الشعوب مرتبط بالديموقراطية فقد أنهار الاتحاد السوفيتى لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى، وباتت دول الاتحاد السابق تلهث حاليا وراء الديموقراطية وتحقيق الرخاء لشعوبها، وبات السلام العالمى لأول مرة حقيقة قوية وملموسة، وبدأت المتغيرات العالمية تتلاحق كعملية «تسلسل التفاعل» التى تتميز بإطراد مستمر فى السرعة، مما جعلنا بعد عامين تقريبا من إنهيار الكتلة الشرقية نرى أمام أعيننا ما كان من المستحيل تصور حدوثه يوما ما، فقد جاء اليوم الذى رأينا فيه دول حلف الأطلنطى ودول حلف وارسو يقومان بتدريبات عسكرية مشتركة فوق اراضى بولندا، ثم رأيناهم مرة ثانية فى نهاية الشهر الماضى يقومان بنفس التدريبات فى أراضى هولندا، هكذا تغير العالم بسرعة مذهلة وأصبح يختلف جذريا عن العالم التقليدى الذى عرفناه طوال العقود الطويلة الماضية وقد جاء ذلك حصادا لأفكار واتجاهات بدأت مع نهاية الحرب الثانية فى إطار الفكر الاستراتيجى لدول العالم المتقدم الذى تحدث عن جانبه منه الكاتب «مايلز كوبلاند» فى كتابه الشهير «لعبة الأمم»، وقد أدى هذا الفكر إلى تغيير أوضاع كثيرة فى بقاع مختلفة من العالم بدون حروب أو طلقة نيران واحدة... أى أنهم اعادوا صنع العالم بالسلام والديموقراطية، وهما كما نرى نفس الاتجاهين اللذين أستشرفهما السادات واستطاع مبارك أن يحولهما إلى حقيقة قوية وملموسة.

وكما خطط المفكرون الاستراتيجيون لتغيير شكل العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، فإنهم لابد أن يكونوا قد شرعوا فى وقت ما فى تغيير الشرق الأوسط على أساس أنه منطقة استراتيجية على أعلى درجة من الأهمية، وعلى أساس أن الشرق الأوسط كما نعرف، يحتفظ فى جوفه بأهم سلعة استراتيجية هى الشريان الرئيسى

للحضارة الغربية. وإذا سلمنا بهذا الافتراض المنطقى فإن الأحداث التى شهدتها المنطقة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، تؤكد أن الهدف العام للتغيير الذى ارادوه لنا هو تحويل المنطقة إلى ساحة نزاع مستمر وأرض نيران مشتعلة على الدوام.

فلا يمكن أن يتصور إنسان عاقل، بعد استقراء أحداث المنطقة بعناية، أن الهدف كان يرمى إلى استقرار المنطقة ومساعدة شعوبها على التنمية والرخاء، وتشجيع قيام الديموقراطية فى أرجائها المختلفة كما حدث مع ألمانيا واليابان لأن هذا الاتجاه لم يكن ليتوافق ابدا مع مصالح الشرق أو الغرب معا، ولم يكن النفوذ الأمريكى ولا النفوذ السوفيتى أن يتحقق بالشكل الذى رأيناه طوال هذه الحقبة، بدون أن يكون هناك اضطراب عارم ومزمن يغلف جميع اركان المنطقة، وفى هذا الإطار لا يمكن أن ننظر إلى «وعد بلفور» على أساس أنه مصادفة تاريخية تحققت بمجرد أن وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها، وهو التاريخ الذى فيه بدأت محاولات تغيير العالم كله.

ومن هنا فإنه كما كان قرار حرب أكتوبر قرارا مصريا خالصا، فإن قرار السلام وقرار الديموقراطية كانا ايضا قرارين مصريين مائة فى المائة، وفى الوقت ذاته قرار عبقرى يعمل على انتزاع المنطقة من ذلك المدار الشيطانى الذى ظلت تحوم فيه سنوات طويلة وكئيبة، استنزفت خلالها كما هائلا من مواردها، بلا أى نتيجة استراتيجية اللهم إلا ازدياد كلا النفوذين: النفوذ الغربى والنفوذ السوفيتى، فقد وجد الاتحاد السوفيتى نفسه بين يوم وليلة يحقق حلم حياته بالوصول إلى «المياه الدافئة» من خلال صفقة الأسلحة التشيكية التى عقدها مع مصر فى الخمسينات.. والتى جاءت أصلا بسبب النزاع مع إسرائيل.. التى جاء بها وعد بلفور.. الذى جاء به الأنجليز!!

وقد يندهش كثيرون منا لفكرة الربط بين الديموقراطية والسلام، فالبعض عندنا هنا يقتصر نشاطهم الديموقراطى على قول «لا» بتشنج لكل ما نقوم به الدولة وكل ما يقوم به المسئولون، وقد تزداد الدهشة عندما يعلمون مدى تغلغل الديموقراطية إلى كافة أوجه النشاط الإنسانى حتى أن المفكر الاقتصادى «أمارتياسين» الأستاذ السابق بجامعة اكسفورد - لاحظ شيئا غريبا من خلال دراسته للتجربة الديموقراطية، مؤداه أن الدول التى تعمل بالديموقراطية وتتوافر لديها صحافة حرة نسبيا لا تتعرض أبدا

إلى أخطر المجاعات، وأن الهند التى كانت تعانى بانتظام من حدوث مجاعات كان آخرها فى عام ١٩٤٣ وأودت بحياة ٣ ملايين مواطن، لم تعان بعد ذلك من أى مجاعة منذ استقلالها فى عام ١٩٤٧ وتبنيها للديموقراطية ونظام تعدد الأحزاب، وذلك رغم أنها تعرضت مرات عديدة خلال هذه الفترة لنقص حاد فى المحاصيل الزراعية وندرة المواد الغذائية، أما فى السودان واثيوبيا فيحدث العكس تماما بسبب غياب الديموقراطية وبرغم أراضيهما الخصبة الشاسعة!

ويؤكد علماء الاجتماع أن قيام الديموقراطية ساهم بشكل فعال فى خفض عدوان الدول بعضها على البعض، كذلك يقول علماء السياسة أن الدول الديموقراطية لا تشن حروبا ضد بعضها. وهكذا فإنه لو كان قادة الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية استخدموا الديموقراطية لتحقيق السلام وتحقيق الرخاء فى مناطق معينة ونجحوا أخيرا فى صناعة عالم جديد بالشكل الذى يتوافق مع أهدافهم وميولهم السياسية، فإنه من الغريب أن تأتى مصر فى اعقاب خامس حرب مع إسرائيل لتنادى بالسلام وبالديموقراطية وبالرخاء فى آن واحد.

لم يتوافر لمصر أنذاك «رفاهية الوقت» بحيث تلجأ إلى الديموقراطية أولا وتنتظر سنوات لتتفاعل هذه الديموقراطية وتؤدى بعد ذلك إلى السلام والرخاء، ولكن مصر السادات قفزت مرة واحدة إلى السلام الذى كان يعد فى ذلك الوقت ضربا من ضروب المستحيل ذاته وربما كان هذا من حالة ما يسمونه «باعياء المقاتلين بعد المعركة» والذى يجعل هؤلاء المقاتلين يعملون لبناء اتجاهات وترتيبات ومكونات جديدة فى كافة مجالات الحياة.. خاصة لو كان هؤلاء المقاتلون قد خاضوا خمس حروب فى غضون خمسة وعشرين عاما!!

ومهما كان فإنها من المؤكد كانت لحظة رؤية واستشراف للمستقبل طافت بمخيلة رجل عظيم اسمه أنور السادات فإندفع بشجاعة يحاول تحقيق رؤيته ولكن القدر كان قاسيا ولم يمهله، وعندما جاء مبارك إلى الحكم أعاد «التوازن المفقود» بأن سار على اتجاهين متوازيين: الديموقراطية والسلام معا كوسيلة لتحقيق الرخاء بعد ذلك، ولما كان الرئيس مبارك يتمتع بكم هائل من الصبر، والهدوء، والتواضع، قلما نجده فى إنسان واحد، كانت هذه الصفات بالذات هى مفاتيح «الصناديق المغلقة فى ارجاء

المنطقة، وبذلك فقط أصبح السلام بين مصر وإسرائيل حقيقة راسخة بل خرج السلام من «الحيز الثنائى» بين البلدين إلى «النطاق الإقليمى» فى ذات الوقت الذى نمت فيه الديموقراطية واستقرت فى أكبر دولة فى المنطقة.. وهنا فقط لاح فى الأفق شرق أوسط جديد، وسنشاهد قريبا تغييرات حتمية هائلة، قد تكون أغرب بكثير من أى خيال.

السلام الذى صنعناه ... ونرضاه؟

سيظل السلام بين مصر وإسرائيل ينفرد بأنه يضم بين جوانحه أهم مقومات النجاح والاستمرار، سيظل السلام بين مصر وإسرائيل قائما طالما التزم بتلك الأسس المتينة من الاحترام .. احترام انتزعناه من إسرائيل ومن العالم كله بأداء الرجال.. وبأرواح من أثروا الموت استجلابا للشرف والكبرياء وبدماء غزيرة تشهد بأن ما نحيها كانوا على استعداد للانتقال إلى العالم الآخر إذا لم يستطيعوا أن يحققوا ما يريدونه لوطنهم فى هذا العالم الغريب الذى نعيش فيه... بسبب هؤلاء جميعا وليس لأى سبب آخر- قام السلام بين مصر وإسرائيل، وكان سلاما من الطراز الأول لأنه سلام بين انداد وليس منحة او لفته انسانية باسم التحضر من دولة الى أخرى تستطيع أن تسحبها أو تمنعها فى أى وقت من الأوقات، ولأنه بين أنداد اكتوبر٧٣، فقد كانت خلفيته الدائمة هى اكتوبر والقدرة الكامنة لهذا الشعب الطيب المتحضر فى ان ينقلب فى لحظة الى مقاتل من الطراز الأول يحمى ارضه وعرضه.. وقبلهما احساسه بالزهو والاحترام والحق فى الحياة.

هذه الخلفية العسكرية هى التى اقامت السلام، وجعلت الزعيم الراحل أنور السادات قادرا على أن يستقل طائراته ويتوجه إلى عرين العدو، يحدثهم عن انجازات ابنائه فى الحرب المنتصرة وعن أماله فى سلام يستطيع معه الجميع أن يحقق ما يرجوه لشعوب نضبت مواردها فى تغذية آلة الحرب التى التهمت كل شئ وعندما تحركت الأمور فى الأتجاه الصحيح حاول أطراف السلام أن يضغطوا على مصر فى اتفاقية كامب ديفيد

فلم يكن من السادات إلا أن جهز طائراته استعدادا لمغادرة واشنطن دون اتفاق او سلام، وكان فى ذلك مرة أخرى يعتمد على خلفية الأداء العسكرى المتميز وقدرة أبنائه على البذل والعطاء، من أجل حياة شريفة واحترام يبدو واضحا اننا لا نستطيع أن نعيش بدونه.

وتقديرا لهذه الروح الجديدة التى اعترت مصر كلها بعد أكتوبر ٧٣ التى انقذت كل شئ، كان اختيار السادات للرئيس مبارك ليكون نائباً له، وفى ذلك تجاهل السادات كل الأصدقاء والزملاء وإراد ان يكافئ مقاتلى مصر الحقيقيين الذين اعطونا كل شيء بأن يعين واحدا من أبرز قادتهم فى اعلى منصب سياسى وقيادى فى الدولة، لم يكن الاختيار والتقدير هذه المرة لكهنة السلطة وعبدتها، ولكن كان لعامل الأداء، والاستعداد للفداء والعطاء غير المحدود.

وإذا كان السادات هو الذى ارتاد السلام في الشرق الاوسط، فقد كان مبارك هو الذى «صلب عود» هذا السلام وجعله حقيقة واقعية نلمسها فى كل ارجاء المنطقة، وإذا كانت خلفية الاداء العسكرى قد ساندت ودعمت على الدوام تصرفات السادات ومفاوضاته فى القدس، وفى واشنطن وفى القاهرة والاسماعيلية واسوان ومعظم عواصم أوربا، فإن مبارك كان ومازال تجسيدا لهذه الخلفية وتشخيصا حيا للروح الجديدة التى اعترت مصر بعد أكتوبر ١٩٧٣ . لذلك لم يكن مبارك ليفرط فيما يمكن ان يحدث خللا فى الحد المناسب من ميزان القوى بالمنطقة، لانه يعلم جيدا ان الخلل فى هذا المجال الحيوى معناه الوحيد دعوة لسياسة الهيمنة وبالتالى اختفاء الاحترام بين الاطراف وبعضها، ثم اخيرا تبدد «الندية» التى دفعنا فيها أغلى ما نملك، ومن هنا كان موقف مصرالقاطع من تجديد توقيع معاهدة منع انتشار الاسلحة النووية.. مالم توقع عليها اسرائيل.

ان قبول السلام مع اسرائيل كان مرده الاول هو اختفاء الشعور «بالدونية» والقضاء على عقدة النقص التى تولدت بعد الحرب ١٩٦٧، وأى عبث فى العلاقات بيننا وبين اسرائيل يمكن ان يعيد من قريب او بعيد هذا الاحساس المقيت «بالدونية» وهذا لن يؤدى إلا الى تعميق الاحساس بالكراهية وتغذية مشاعر الاستياء والتطرف الذى قد يطيح بكل ما قمنا ببنائه بصعوبة بالغة طوال السنوات الماضية وعلى الذين يغامرون

بمثل هذه المخططات الركيكة ان يعوا جيدا ان المصريين ليسوا بالغفلة او السذاجة التى تساعد على نجاح مثل هذه المخططات دون ان يشعروا بها او يلتفتوا اليها والى عواقبها، ولكن يبدو ان هناك من يخلط بين «البساطة» و«السطحية»او«البلاهة» وهم فى ذلك يخطئون خطأ جسيما.

ومن هنا كانت محاولة الاخلال بهذه المعادلة الدقيقة لصالح اسرائيل، هى سبب الصحوة الشاملة لكل كوادر وفئات المصريين ووقوفهم صفا واحدا وراء القيادة السياسية للدولة متناسين كل الخلافات السطحية التى يسئ فهمها أى مراقب اجنبى.. صحوة مردها فى رأيى اننا نحن الذين صنعنا السلام وجعلنا منه حقيقة بحرب شجاعة وبدبلوماسية لا تقل شجاعة واقداما، وصنعناه باسلوبنا وبشروطنا التى لم نقبل فيها اجحافا بحقوقنا، وايضا بحقوق باقى الأطراف العربية، ولذلك فإن ذريعة - بل ومخطط - حفظ السلام فى المنطقة بأسلحة نووية تتوافر لدى اسرائيل وحدها، هى ذريعة باطلة ومخطط فاشل، يهدد فكرة السلام ذاتها ويتناقض تماما مع مفهومه، ومع واقع وطبيعة المنطقة والامور كلها.

والذين يفهمون طبيعة الامور جيدا فى المنطقة - مثل وزير الدفاع الأسرائيلى الراحل موشيه دايان الذى كان يقول ان احساس العرب بالكرامة لا يفوقه احساس آخر – وهنرى كيسنجر الذى ايقن ان هزيمتنا لن تؤدى الا لمزيد من الحروب – وعيزرا وايزمان رئيس إسرائيل الحالى والذى قال: ان السلام بين مصر وإسرئيل تحقق من خلال «الناشنكاه» (أى جهاز تصويب نيران الأسلحة) - هؤلاء وقليلون غيرهم يعرفون تماما ان الهزيمة لم تأت بالسلام كما قد يفكر اى مجتمع براجماتى، وان السلام الذى كان مستحيلا لم يتحقق إلا بعد الانتصار العسكرى، هذا مع أن التاريخ يقول لنا ان الهزائم العسكرية وحدها هى التى حققت السلام فى ربوع أوربا وفى بقاع آسيا وان قوة الردع النووى هى وحدها التى حققت السلام بين القوتين العظميين، ونحن لا نملك إلا الاعتراف بما هو واقع وبما جرى أمام أعيننا خلال السنوات الأخيرة، ولكننا فى نفس الوقت نضيف القول بان منطقة الشرق الاوسط ليست أوربا ولا آسيا، وان النزاع العربى الاسرائيلى له طبيعة خاصة وجذور عميقة، لا تنفع معها ابدا تجارب الصراعات الاخرى، وتتطلب معالجات خاصة جدا اما من اصحاب الشأن أنفسهم، او

بمساعدة اطراف اخرى لابد ان تتوافر لديها خبرات معينة وان تتجنب دائما الانحياز.

وإذا كنا نختلف معهم وعنهم تماما فى فكرة ان الهزائم والقهر يؤديان الى السلام وقبول الامر الواقع فإننا لا نختلف معهم اطلاقا فى مفهوم ان القوة العسكرية تحمى وتضمن وتصون السلام، هناك هم يفهمون ذلك جيدا وجربوه فى صراعات عديدة لم تنشب ابدا بسبب تكافؤ القوى والاطراف، ونحن هنا منذ بداية عملية السلام نعرف جيدا ان السلام يحتاج الى قوة تحميه وان الضعف يغرى على العدوان وهو مالا يريده أحد فى هذه المنطقة الساخنة من العالم، ومن هنا كان حرصنا دائما على «المدفع» فى وقت لم يكن يتوافر فيه «الخبز» كما ينبغى وكما هو متوافر بالنسبة للجميع من حولنا وبعيدا عنا.

واذا كانت هناك دوائر عالمية تتذرع بان «المحيط» الهادر للدول العربية الذى يحيط «بجزيرة» صغيرة تسمى اسرائيل، يمكن ان يقرر فى لحظة ان يبتلع هذه الجزيرة الضئيلة، اذا كان هذا ما تتذرع به هذه الدوائر فإننا نقول ان هذه الجزيرة بأسلحتها النووية يمكن ايضا ان تقرر فى لحظة ان تبدد هدير هذا المحيط، ولذلك فان السلام القائم على الندية والقدرات المتبادلة هو وحده الذى يستطيع ان يحافظ على الميزان، وبالتالى يحافظ على الاستقرار فى هذه المنطقة الحيوية التى شهدت ما يكفى من حروب واضطرابات لم يجد معها فى يوم من الايام التفوق النوعى للأسلحة التى كانت تحصل عليها اسرائيل حتى يومنا هذا، واذا كنا قد سكتنا على ذلك من قبل فلأنها كانت أسلحة «تقليدية» أمكننا التغلب عليها عندما أردنا وعندما دعت الحاجة الى ذلك، أما بالنسبة للأسلحة النووية فالأمر يختلف وتختلف معه كل الموازين والتقديرات ويصبح الخيار الوحيد هو قبول القهر او الانتحار.

وإساءة الفهم من قبل العقلية الغربية لما يجرى فى هذا الركن من العالم اصبحت ظاهرة عامة لم تقتصر على مساندة تمرير هذه المعاهدة رغم امتلاك وتفرد اسرائيل بالاسلحة النووية، ورغم انهم فى الغرب يدركون جيدا ان امتلاك الاسلحة النووية بواسطة اى دولة فى اى منطقة، يعمل على تشجيع باقى دول المنطقة على امتلاك نفس هذا النوع من السلاح المدمر، وينشأ على أثر ذلك سباق للتسليح النووى يزيد من الاخطار والتهديدات العالمية، وكان هذا هو المنطق الغربى السائد تجاه العراق التى

مازالت فرق التفتيش عن الأسلحة والنشاط النووى تعمل بها وتعبث باراضيها حتى الآن، ورأينا وسمعنا نفس المنطق ونفس المخاوف من احتمالات حصول ايران على اسلحة نووية ووسائل حمل هذه الأسلحة «صواريخ أرض- أرض قالوا انها من كوريا الشمالية»، وفى ذلك كنا نتفهم المنطق الغربى والعالمى ودوافع هذه المخاوف، لأن المسألة تتعلق بأمن الجميع، ومن الخطر فعلا توصل الدول الصغرى أو أى دول أخرى، الى هذا السلاح الذى لا يتحمل مغامرات الطيش السياسى العسكرى التى تنطلق يوميا من بعض دول العالم الثالث تعلن عن حماقة غير مسبقة لمن يتولون شئون هذه الدول، ولا يتحمل السلاح النووى ايضا اى اهمال او اى عبث كما رأينا معا فى مفاعل شيرنوبيل رغم ان الاتحاد السوفيتى كان القوة العظمى الثانية فى العالم. ولكن عندما وصل الامر الى اسرائيل تغير المنطق وتبددت المخاوف كما لو كانوا يرون ان اسرائيل دولة كبرى ويعاملونها كواحدة من الكبار وان الأمن والاستقرار هناك لا مثيل له فى باقى دول العالم.

وفى ذلك مغالطة كبيرة، وقدر واضح وفاضح من التحيز والنفاق العالمى الذى عانى منه الجانب العربى حتى من قبل قيام دولة اسرائيل.

وليت الأمر اقتصر على ذلك ولكن لأن اساءة الفهم لما يجرى فى هذا الركن من العالم اصبحت ظاهرة عامة فإنه فى الوقت الذى لم نسمع فيه لوما أو كلمة نقد واحدة لإصرار اسرائيل على الخيار النووى فى ذات اللحظة التى يكاد يتحقق فيها السلام الشامل فى المنطقة فإن النقد واللوم كله كان من نصيب مصر بشكل خاص، وبأسلوب متحيز ومتحامل ومنفر. فقد خرجت علينا كبرى الصحف العالمية فى أمريكا وانجلترا - وبصفة خاصة صحيفة الجارديان البريطانية - تعزف مرة أخرى تلك الاسطوانة المشروخة التى تصدح منذ سنوات وخلال فترات معينة. والتى تتحدث عن تدهور أمنى وشيك، وانهيار اقتصادى لم يملوا الحديث عنه منذ سنوات، وفساد يضم كبار المسئولين وأبنائهم ايضا، وكانت المصادر التى اعتمد عليها الكاتب العبقرى لهذا المقال هم ثلاث فئات:

سائقو التاكسى بالقاهرة، وعضو من جماعة حقوق الانسان، ودبلوماسيون غربيون بالقاهرة.. هكذا وصفهم الكاتب والصحفى الكبير دون ان يذكر إسما واحدا من هؤلاء، ولو كانت مهنة الصحافة بهذه السهولة بحيث يستقل المراسل طائرة ويهبط فى

عاصمة كبيرة يتحدث خلالها مع سائق التاكسى الذى يقله الى الفندق، ثم يتناول طعاما او شرابا مع احد الدبلوماسيين الاجانب ليخرج بعد ذلك يكتب مقالا ضخما يتحدث فيه عن دولة مساحتها حوالى مليون ونصف مليون كيلو متر مربع وتعداد سكانها يزيد عن ٦٣ مليون نسمة.. لو كان الامر كذلك لكانت مهنة الصحافة هى أسهل مهنة فى العالم وأكثرها راحة ورفاهية وتربحا. ولكن للأسف فأنهم يعلمون هناك جيداً ان مهنة الصحافة أشرف وانبل، واصعب من ذلك بكثير.

والغريب ان هذا الصحفى البريطانى نفسه تناول فى مقاله موقف مصر من معاهدة الأسلحة النووية، وخرج بفكرة رشيقة قوامها ان مصر غارقة فى المشاكل الداخلية وانها ممزقة بين المشاكل «الأصولية والفساد، وان الحل الأمثل بالنسبة لها كان أثارة قضية خارجية «وهى مشكلة الاسلحة النووية» حتى تحشد الرأى العام والتأييد الشعبى فى موقف واحد، وتبعد الانظارعن المشاكل الداخلية التى تهدد بالأنفجاروان المشاعر المعادية لأمريكا واسرائيل من قبل المصريين لم تصل يوما الى الدرجة التى وصلت اليها حاليا، وان مصر بذلك تأمل فى اعادة بناء دورها كقوة سائدة ومهيمنة فى العالم العربى خاصة بعد أن توصل الاردنيون والفلسطينيون الى سلام مع اسرائيل بعيدا عن مصر!!

هكذا صور بعض عباقرة الصحافة الغربية الاوضاع فى مصر، هكذا فسروا موقف مصر المتحضر والمنطقى من فتح ابواب السباق النووى فى المنطقة وفى ذلك حولوا نجاح الاستثمار فى مصر والازياد الطبيعى لثروات بعض المستثمرين الناجحين، الى مظاهر فساد وتضخم غير طبيعى فى الثروات كما لو كان كاتب هذا المقال يعمل بصحيفة برافدا فى أوج ازدهار النظرية الشيوعية، اما الارهاب الذى جلبوه لنا ونتعامل معه الآن بنجاح، فقد حولوه الى «أصولية» تنذر بانفجار شعبى وشيك وتغيير لا يعلم مداه إلا الله تعالى، وحتى تكتمل الكوميديا المأساوية لهذه الاسماء الضخمة فى عالِم الصحافة الغربية فإنهم يتحدثون عن تقلص دور مصر فى عملية السلام ويتجاهلون ان السلام هو صناعة وارادة مصرية خالصة، منذ مبادرة السادات وحتى يومنا هذا، ولكن المشكلة اننا نريده سلاما حقيقيا وعادلا، والبعض يريده سلاما قهريا وامرا واقعا على مدى المستقبل كله، وفى ذلك فإنهم يستخدمون أساليب رخيصة ويقتربون بجهل وغشم من دائرة الخطر.

الفهرس

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٥٨٢ / ٩٩

I . S . B . N 977 - 01 - 6402 - X



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولاحدود ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك





